C٢

انطون سعاده

نشوء الأمم

الكتاب الأول

الطبعة الثانية دمشق
1951
منقحة بقلم المؤلف



mohamed khatab
















mohamed khatab
mohamed khatab
mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab
mohamed khatab
mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab


mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

انطون سعاده

نشوء الأمم

الكتاب الأول

الطبعة الثانية دمشق
1951
منقحة بقلم المؤلف

فى

كيفية نشوء الامم

وتعريف الامة

الى رجال النهضة القومية الجبارة

ونسائها العاملين لحياة سورية ومجدها

اهدى هذا الكتاب

المؤلف

يعود الفضل في انجاز تاليف هذا الكتاب الى التسهيلات العملية التي قد مها لي في السجن المعاون الصحي الادجودان كمال الزاهد بتقدير منه والى العناية التي احاطني بها اصدقائى ورفقائي في الحزب السوري القومي الاجتماعي اذ سهلوا لي الحصول على المستندات واللوازم للعمل

مستندات هذا الكتاب

ابن خلدون ، المقدمة (بيروت ، 1900) .

المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر (باريس ، 1861) .

مایر — MEYER. E .
Geschichte des Alterthums,
Stuttgart, 1884 — 1902

ويدال دلابلاش — VIDAL DE LA BLACH. P. M J. .
Principles of Human Geography,
Fr. trans. by M. T. Bing,
(New York, 1926.)

هرتس — HERTZ, F. O
Race & Civilization,
Eng. trans. by Levetus, A. S. and
Entz, w. (London & New York, 1928.)

بواس — BOAS, F.
Anthropology & Modern Life,
New York, 1928.

حتي — HITTI,-PH. KH.
The Syrians in America, (New York 1924)

وليمز — WILLIAMS, H. S. (ed.)
Historian , s History of theWorld,
25 vols. , (New York, 1904 —5)

ولز — WELLS, H.G.
The outline of History, (New York, 1929.)

ريبيرو — RIBEIRO, J.
Ristoria Universal, (Rio do Janeiro, 1925)

برستد — BREASTED, J. H.
A History of Egypt from the Earliest
Times to the Persian Conquest,
(New York, 1905.)

اولمستد — OLMSTEAD, A.T.
History of Palestine& Syria to the
Macedonian Conquest, (New York & London, 1931)

CEATANI, L.
Studi di Storia Orientale,(Milano, 1911.) كيتاني

WEINERT, H.
Ursprung der Menschheit , (Stuttgart, 1932.) وينرت

WEINERT, H.
Menschen der Vorzeit, (Stuttgart. 1930.) وينرت

HADDON, A. C.
The Races of Man and their Distribution,
(New York, 1925.) هدن

TAYLOR, G.
Environemnt & Race, (London, 1927) تايلور

SCHMIDT, M.
The Premitive Races of Mankind, (London, 1926.) شميت

LUSCHAN, F. VON
« Anthropological View of Race,»
Papers on Inter - racial Problems,
(London, 1911,) فن لوشان

GOLDSCHMIDT, R.
" Some Aspects of Evolution " ,
Science, December, 1933. قلدشمت

KAPPERS, A.
Anthropology of the Near East,
Contributions, (Amsterdam, 1931.) كبرس

Arbeiten zur Biologischen Grundlegung
der Soziologie, (Leipzig, 1931):—

LEGEWIE, H.
« Organismus und Umwelt. » ليقوي

GEIGER, T.
« Das Tier als Geselliges Subjekt. » قيقر

WASMANN, E.
« Die Demokratie in den Staaten der »
Ameisen und der Termiten. » وسمن

SCHWIEDLAND, E.
« Triebanlage und Umwelt als
Soziale Gestalter. » شويدلند

RAPAIES,R.
« Versuch einer Geselschaftslehre
der Pf lanzen.» ربيه

ZIMMERMANN, W.
« Pflanzensoziologie. » تسمرمن

KRISCHE, P.
«Beitraege zur Soziologie der plfanzen.» كريشه

SCHJELDERUP - EBBE, TH.
« Die Despotie im sozialen Leben der Voegel. » سيلدرب ابي

HEBERER, G. هيبرر
« Das Abs tammungsproblem des Menschen im Lichte Neurer Palaeontologischer Forschung. »

WOLFF, K.E . ولف
« Die Kraniologische polaritaetstheorie und ihre Soziologische Bedeutung. »

Allgemeine Verfassungs und Verwaltungs Geschichte , (Leipzig und Berlin, 1911 :)

VIERKANDT, A. فيركنت
« Die Anfaenge der Verfassung und der Verwal tung und die Verf. u. Verw. der Primitiven Voelker. »

WENGER, L. ونقر
« Die Verfassung und Verwaltung des orıentaleschen Altertums. »

HARTMANN, M. هرتمن
« Die Islamısche Verfassung und Verwaltung. »

FRANKE, O. فرنكه
« Die Verfassung und Verwaltung Chinas. »

RATHGEN, K. راتقن
« Die Verfassung und Verwal tung Japans »

WENGER, L. ونقر
«Die Verfassung und Verwaltung Europaeischen Altertums. »

EBENGREUTH, A. R. L. VON. فن ابنقرويط
« Die Verfassung und Verwaltung der Germanen und des Deutschen Reiches bis zum Jahr 1806. »

Allgemeinee Rechtsgeschichte, (Leipzig u. Berlin, 1914:)

KOHLER, J. كولر
«Die Anfaenge des Rechts und das Recht der Premitiven Voelker. »

KOHLER, J. كولر
Das Recht der Orientalischen Voelker. »

WENGER, L. ونقر
« Das Recht der Griechen u. Roemea. »

McIVER, R. M. مكيور
The Modern State, (Oxford 1926.)

McIVER, R. M. مكيور
Commuuity, (London, 1924.)

MULLER - LYER, F. C. ملر ـ لير
The History of Social Development, (New York, 1921.)

JOHANNET, R. جوانه
Le Principe des Nationalites, (Paris, 1932.)

بار كر
BARKER, E.
National Character and the Factors In Its Formation,
(London, 927.)

جنكس
JENKS. .E
The State and the Nation, (New York 1926.)

ملاحظة: 1: في الاشارة الى هذه المستندات سنعتمد اسم المؤلف فقط وعدد الصفحة او الصفحات

2: اذا كان المؤلف صاحب بحث مدرج في احد المؤلفات الكبيرة فاننا نعتمد اسمه ونختصر اسم المؤلف الكبير مضافاً اليها عدد الصفحة او الصفحات والجزء

3 : اذا كان المؤلف صاحب كتابين اعتمدنا اسم المؤلف واسم الكتاب مع عدد الصفحة او الصفحات

وانا قد اعتمدنا المختصرات التالية :

ABS — Arbeiten zur Biologischengrundlegung der Soziologie
AVV — Allgemeine Verfassungs - und Verwaltungsgeschichte
AR — Allgemeine Rechtsgeschichte
HH — Historians' History

فهرس المواضيع

الفصل السادس — نشوء الدولة وتطورها

الفصل السابع — الاثم الكنعاني

المقدمة

ان الوجدان القومي هو اعظم ظاهرة اجتماعية في عصرنا، وهي الظاهرة التي يصطبغ بها هذا العصر على هذه الدرجة العالية من التمدن. ولقد كان ظهور شخصية الفرد حادثاً عظيما في ارتقاء النفسية البشرية وتطور الاجتماع الانساني. اما ظهور شخصية الجماعة فاعظم حوادث التطور البشري شأناً وابعدها نتيجة وأكثرها دقة ولطافة واشدها تعقداً، إذ ان هذه الشخصية مركب اجتماعي ـ اقتصادي ـ نفساني يتطلب من الفرد أن يضيف الى شعوره بشخصيته شعوره بشخصية جماعته، امته، وان يزيد على احساسه بحاجاته احساسه بحاجات مجتمعه وأن يجمع إلى فهمه نفسه فهمه نفسية متحده الاجتماعي وان يربط مصالحه بمصالح قومه وان يشعر مع ابن مجتمعه ويهتم به ويود خيره، كما يود الخير لنفسه.

كل جماعة ترتقي إلى مرتبة الوجدان القومي، الشعور بشخصية الجماعة، لا بد لافرادها من فهم الواقع الاجتماعي وظروفه وطبيعة العلاقات الناتجة عنه. وهي هذه العلاقات التي تعين مقدار حيوية الجماعة ومؤهلاتها للبقاء والارتقاء، فبقاؤها غامضة يوجد صعوبات كثيرة تؤدي الى اساءة الفهم وتقوية عوامل التصادم في المجتمع فيعرقل بعضه بعضا ويضيع جزءاً غير يسير من فاعلية وحدته الحيوية ويضعف فيه التنبه لمصالحه وما يحيط بها من اخطار من الخارج.

وإن درساً من هذا النوع يوضح الواقع الاجتماعي الانساني في اطواره وظروفه وطبيعته ضروري لكل مجتمع يريد ان يحيا. ففي الدرس تفهم صحيح لحقائق الحياة الاجتماعية ومجاريها. ولا تخلو امة من الدروس الاجتماعية العلمية إلا وتقع في فوضى العقائد وبلبلة الافكار.

على انه ليس كل درس اجتماعي درسا مفيداً . فان من الدروس ما هو كتبي او مدرسي فيكون مجموعه مواد عامة أو معلومات اولية لا تساعد على تقرير نظرة أو معرفة طبيعة واقع اجتماعي معين . وليس عالماً اجتماعياً ولا خبيراً بالاجتماع من درس مواد علوم اجتماعية مدرسية منظمة تنظيما خاصاً في جامعة معينة وادى عن دروسه امتحاناً نال به لقب مخرج او دكتور او غير ذلك .

ومنذ الف ابن خلدون مقدمة تاريخه المشهور ووضع اساس علم الاجتماع لم يخرج في اللغة العربية مؤلف ثانٍ في هذا العلم فظلت امم العالم العربي جامدة من الوجهة الاجتماعية ، يتخبط مفكروها فى قضايا اممهم تخبطاً يزيد الطين بلة . ولا نكران ان الكاتب الاجتماعي السوري نقولا حداد وضع مؤلفاً معتدل الضخامة اسماه « علم الاجتماع » . ولكن هذا الكتاب من النوع المدرسي ولا يأمن قارئه الشطط . وهو مع ذلك المحاولة الاولى من نوعها ، على ما اعلم ، لفتح طريق علم الاجتماع الحديث .

ولفقر اللغة العربية فى المؤلفات الاجتماعية نجدها فقيرة فى المصطلحات الاجتماعية العلمية . فوضعت في هذا الكتاب مصطلحات جديدة أرجو أن أكون قد توفقت في اختيارها للدلالة على الصفة المعينة ، كقولي : « الواقع الاجتماعي » و« المتحد الاجتماعي » و « المناقب » و « المناقبية » (للمورال) .

ان « نشوء الامم » كتاب اجتماعي علمي بحت تجنبت فيه التأويلات والاستنتاجات النظرية وسائر فروع الفلسفة ، ما وجدت الى ذلك سبيلا . وقد أسندت حقائقه الى مصادرها الموثوقة . واجتهدت الاجتهاد الكلي في الوقوف على احدث الحقائق الفنية التي تنير داخلية المظاهر الاجتماعية وتمنع من اجراء الاحكام الاعتباطية عليها .

وقد فرغت من تأليف الكتاب الاول وانا في السجن ، بين اوائل شباط واوائل ايار 1936 وكنت قد كتبت الفصول الاولى الثلاثة قبل دخول السجن.

وكنت أود ان اعود الى مراجعة هذا الكتاب في متسع من الوقت ليجيء اكمل في الشكل ويكون اكثر اسهابا في بعض المواضع ولكن تعاقب السجون والظروف السياسية الصعبة التي وجدتني فيها بعد سجني الاول جعلت العودة الى هذا الموضوع العلمي امراً مستحيلا . ولما كانت حاجة النهضة القومية الى هذا الاساس العلمي ماسة رأيت أن أدفع المخطوطة الوحيدة الى المطبعة وهي في حالتها الاصلية ، كما خرجت من السجن .

أما الكتاب الثاني من هـــذا المؤلف فقد درست معظم مواده ووضعت له الملاحظات والمذكرات وهذه جميعها صودرت اثناء الاعتقالات الثانية في صيف 1936 وساسعى للحصول عليها من المحكمة ، لانها اوراق شخصية لا دخل لها في القضية ، وانتهز الفرصة لتأليف الكتاب الثاني .

ومهما يكن من الامر فالكتاب الاول جامع مستوف الوجهة العامة من نشوء الامم بجميع مظاهرها وعواملها الاساسية . ومع أن نشر هذا الكتاب الاول لايسد الحاجة الى الكتاب الثاني فهو يسد الحاجة الى كتـــاب في نشوء الامم بوجه عام .

يتناول الكتاب الاول تعريف الامة وكيفية نشوئها ومحلها في سياق التطور الانساني وعلاقتها بمظاهر الاجتماع .ويشتمل الكتاب الثاني على نشوء الامـــة السورية ومحلها في سياق التطور الانساني وعلاقتها بالامم الاخرى وبالاتجاه العام.

عسى أن يفي هذا المؤلف بالغرض الذي وضع لاجله فيوضح من حقائق الاجتماع ما يجلو الغوامض في فهم الامم والقوميات.

انطون سعاده 25 ايلول 1937

الفصل الاول

نشوء النوع البشرى

التعليل الديني . كانت مسألة نشوء النوع البشري من المسائل التي شغلت عقل الانسان منذ ابتدأ الانسان يشعر بوجوده ويعقل نسبته الى مظاهر الكون ونسبة هذه المظاهر اليه . فاخذ يتكهن صدوره عن عالم غير هذه الدنيا يعود اليه بعد فناء جسده . ولم يكن هذا التكهن الراقي في التصور مما تنبه له الانسان كما يتنبه للموجودات الواقعية ، بل كان درجة بارزة في سلم ارتقاء الفكر سبقتها درجات من التخرصات الغريبة التى ليس هذا البحث مختصاً بها . ولكن لابد من الاشارة الى هذه الدرجة لانها ذات صلة متينة بنشوء الدين وفكرة الله وحكاية الخلق المستقل التي اثرت فينا تأثيراً عظيما .

في هذه الدرجة نشأت اعتبارات النفس والجسد ففي الهند اشتقت النفس من النَفَس وشاعت في اماكن كثيرة عقيدة لفظ النفس مع النفس ، حتى إذا بلغ التطور الديني إلى فكرة الله القادر على كل شيء الخالق السماوات والارض وما عليها كان ما يشبه البديهي أن يعلل الانسان نشوء نوعه بخلق مستقل «فجبل الله ترابا ونفخ فيه من روحه نسمة حياة » .

ولم يكن العقل البشري عند تلك الدرجة من الدقة في التمييز بحيث يحاول الدخول في افتراض وتقرير خلق مركب ، معقد للانسان وسلالاته فلجأ الى جعل الخلق بسيطاً ومعقولاً بحيث ينطبق على الظاهر البسيط ، فخلق الله رجلاً واحداً هو « آدم » ثم خلق له امرأة واحدة من ضلعه هي « حواء » وسنة التوالد تكفلت بتعليل تكاثر البشر وانتشارهم في الارض .

ومنذ انتشرت توراة اليهود مع كتاب المسيحية وشاعت المسيحية في العالم

رسخ فى عقول المؤمنين «بالكتاب المقدس» الاعتقاد بتسلسل البشر من مخلوق واحد. ثم جاء القرآن مؤيداً حكاية الخلق الواردة فى توراة اليهود وتأصل في أذهان المؤمنين به الاعتقاد بصحة هذه الحكاية.

هذا هو التعليل الديني لنشوء النوع البشري وقد فرض الدين على كل مؤمن الاعتقاد بصحته وعده حقيقة ثابتة اصلية وعليه بني علم السلالات القديم الذي جعلها متسلسلة من آدم ومتفرعة من سام وحام ويافث.

نقد التعليل الديني ونقضه . ظل هذا الاعتقاد مستولياً على عقول العالم المتمدن بالدين الى أن أخذت العقول الممتازة تلاحظ في ترتيب الكون ومظاهر الحياة ما يدل على وجود حقائق لا يوصلنا التعليل الديني الاولي إلى كشف القناع عنها. فكان من وراء ذلك نشوء المدرسة العلمية التي قام النزاع بينها وبين الدين فيما يتعلق بالحياة ومظاهر الكون وحقيقة الاشياء، وكان ولا يزال نزاعا شديداً.

اكتشفت المدرسة العلمية ان علاقة الانسان بالحيوان وعلاقة الحيوان بالنبات اشد كثيراً مما حدده الدين. اكتشفت هذه المدرسة أن اللغات لم تتوزع على البشر فى برج بابل واسطورته وأن النجوم ليست مجرد «نجوم» وأن الشمس لا تدور حول الارض. ولو لم تتفق هذه الحقيقة مع مجد يشوع بن نون، وأخيراً اكتشفت مدرسة العلم التاريخ الذي سطرته الارض في طبقاتها المنضدة فظهرت الى النور حقائق غريبة لم تخطر على قلب بشر من قبل.

كانت حكاية الخلق الخيالية أقرب الى تصديق اهل الدرجة المشار اليها آنفا لانها اقتصرت على تسمية وجود الشيء خلقا مباشراً تخلصاً من الدخول في أي بحث يتطلب أدلة راهنة يصح اعتبارها حقائق واقعية. ولكن الادراك البشري الذي كان آخذاً في الارتقاء بما يعرض للانسان من الاختبارات الموسعة افق النظر الفاتحة ابواب المقابلات والاستنتاج، لم يعد يقنع بالتعليلات الخيالية البحتة المعزوة إلى افتراض وجود شخصية وراء نظام الكون تحدث النظام وتحدث بلا نظام، اليها ينسب كل ما يقف امامه عقل الطفل وعقل البالغ

المجرد من العلم حائراً . ففتح كتاب التاريخ الطبيعي وكتاب الجيولوجيا الذي نضدت الارض صفحاته بكل ترتيب ونظام ووجد من ضمن الحقائق الغريبة التي يعلنها هذا الكتاب أن الارض اقدم كثيراً من عهد يسبق آدم بستة ايام فقط وان الانسان اقدم من آدم بعشرات الوف السنين .

وأنشأ الانسان علم الحيوان وعلم النبات ووجد بين اصناف الحيوان وبين هذه والنبات صلات أمتن جداً من أن تسمح بالقول ، بالخلق المستقل . واضاف علم الحياة من مكتشفات اسرار الحياة الى معلومات العلوم المتقدمة ما أيقظ الفلسفة من سباتها . وتجاه الحقائق التي ابرزها العلم أخذت مسألة الخلق المستقل تنحط وتتراجع حتى لم يعد يهتم بها إلا الطامعون بالخلود الاناني .

التعليل العلمي . إن الحقائق التي اكتشفها الانسان ومنها أنشأ المدارس العلمية العصرية ابتدأت بتسجيل الملاحظات التاريخية والمشابهات الطبيعية فتنبه تدريجاً لتقارب الانواع من حيوان ونبات قبل نشوء مدرسة التطور الحديثة، حتى أن مؤرخاً وعالماً اجتماعياً كبيراً عاش في القرن الرابع عشر — الخامس عشر (ابن خلدون) استطاع أن يدون لنا بلغتنا ما لاحظه الفلاسفة قبله من أن للكائنات الحية اتصالا غريبا معناه أن آخر افق بعضها مستعد لان يصير اول افق الذي بعده « واتسع عالم الحيوان وتعددت انواعه وانتهى فى تدريج التكوين الى الانسان » [1] . ولم يكن هذا القول من الكلام الملقى على عواهنه ولا طائل تحته ، بل كان نتيجة ملاحظات دقيقة ،لم يتح لها ان تبلغ درجة الكمال بالاستقصاء والتحري حتى كان القرن الماضي الذي اخرج لنا الدروينية .

لاحظ القدماء ان أول افق الانسان متصل بآخر افق الحيوان، كاشباه الانسان الاوران ـ اوطان والغورلا والشمبنزي . ولعل الفينيقيين كانوا أول من اهتموا بغرابة الشبه بين القرود العليا والانسان ، اذ هم اول قوم رحلوا في سبيل الاكتشاف والعلم وكانت رحلة حنون (Hanno) الفينيقي القرطاضي إحدى الرحلتين العلميتين الجغرافيتين الاوليين اللتين حدثتا فى العالم المتمدن وكلتاهما

1 ابن خلدون ص 96

فينيقيتان . فقد ارتحل حنون حوالي 520 ق . م ، بستين مركبا كبيراً وكان القصد من رحلته إيجاد محطات قرطاضية على شواطيء مراكش أو امداد المحطات الموجودة بالقوة . ولكنه لم يقتصر على ذلك بل تقدم جنوبا الى نهر الذهب (Rio de Oro) وجزيرة كرني او هرني ، ثم تابع وجاوز نهر السنقال. وقد سافر هذا الاسطول الفينيقي سبعة ايام وراء غمبيا . وفى احدى الجزر وجدت هذه البعثة رجالا ونساء يكسو أجسامهم الشعر « سماهم التراجمة غورلا » فحملت بعض أناث هذه « الغورلا » معها ولكنها اضطرت فى الطريق إلى قتلها وحملت جلودها إلي هيكل يونو [1]

كان ذلك اول اتصال العالم المتمدن باشباه الانسان،ثم مرت اجيال قبل نشوء مدرسة الاستقصاء التي أخذت على عاتقها درس علاقات الكائنات الحية بعضها ببعض .وفي هذه الاجيال العديدة كان التعليل الديني التعليل الوحيد لنشوء الانسان وسائر الكائنات . فلما نشأت هذه المدرسة ابتدأت بالملاحظة الظاهرية التي أدت إلى تقرير ما ذكره ابن خلدون في مقدمته ، ثم أخذت تتدرج في الارتقاء حتى اكتشفت العلاقات البيولوجية الوثيقة فيما بين الكائنات الحية وبين هذه والجماد .

رأت المدرسة العلمية أن الانسان ليس إلا كائناً واحداً من الكائنات الحية، وانه خاضع للنظام الجاري عليها كلها . فحيث الحياة في كل مظاهرها غير ممكنة لا يستطيع الانسان ان يعيش . ولما كان الانسان مظهراً من مظاهر الحياة العامة فلا يمكن البحث في كيفية نشوئه على حدة ولذلك لا بد من جعل السؤال «من أين جاء الانسان ؟ » ضمن نطاق سؤال أوسع هو : من أين جاءت الحياة ؟ .

وليس القصد من بحثنا هذا الدخول في سلسلة الابحاث الفلسفية العلمية التي ينطوي عليها هذا السؤال لذلك نكتفي منه بالحصول على النتيجة التي تهمنا في درسنا نشوء النوع البشري وهي أن الانسان جزء من الحياة نشأ بالتطور حتى بلغ شكله الحالي،ولذلك فعهد نشوئه يرجع إلى عهد نشوء الحياة نفسها [2]

أثبتت العلوم الطبيعية على اختلافها أن الحياة أقدم كثيراً مما قال به التعليل

---

1 انظر ولز ص 163

2 ويغرت Ursprung ص 3 .

الديني ، وأن الانواع من حيوان ونبات متصلة اتصالاً وثيقاً ينفي مبدأ الخلق المستقل . وفوق كل ذلك أثبتت الكيميـــاء وحدة العناصر التي تؤلف ما هو عضوي وما هو غير عضوي [1] فيكون ما ذهب اليه الفيلسوف السوري الكبير ابو العلاء المعري من ارتباط الحيوان بالجماد رأياً يتفق كل الاتفاق مع نتـائج المدرسة العلمية :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد

ومهما يكن من شيء فجميع الادلة تثبت أن اتصال الكائنات الحية بعضهـا ببعض كان تسلسلياً مما لم يبق مندوحة من التسليم بنظرية التطور . والتطور هو التعليل العلمي لنشوء الانسان نوعا من انواع الحياة قائماً بنفسه .

وقد اكتشف علم طبقات الارض والأحافير بقايا بشرية قديمة جداً وآثار شراذم بشرية في حالة وحشية . ووجد العلماء من هذه البقايا والآثار أن اشكال الانسان في تلك الازمنة المتطاولة فى القدم كانت أحط من اشكال الانسان الحديث ، كالانسان الهيـدلبرغي والانسان النينـدرتالي . وانسان جاوى (Pithecanthropus Erectus) الذي اكتشف بقايا جمجمته ديبوى(Dubois)، هو من أغرب الاكتشافات المسهلة لنا تتبع خطوات الانسان فى طريق ارتقائه من الحيوانات العليا .

نقد التعليل العلمي . لانستطيع ، مما أبرزه لنا العلم ، أن نعين بالضبط الزمن الذي ابتدأت فيه الحياة . ولا يمكن اقامة الدليـل ، بكل معنى الـكلمة ، على كيفية حدوث التطور منذ بدء الحيـاة حتى نشوء الانسان ، إذ ليس بين البشر الكاتبين من كان شاهداً يسجل تفاصيل هـذا الحدث الخطير ، فمن يطلب من العـلم أن يروي حكاية تطور كل كائن حي كما حدث تماما لا يحصل على جواب . ولكن التعليل العلمي يأتي بدلائل تعطي برهاناً معقولاً لوجودنـا وكيفية حدوثه . ولكل فرد يطلع على هـذه الدلائل أن يرى لنفسه هل هي كافية لاقناعه ام لا .

---

1 وينرت Ursprung ص 2

استطاع العلم أن يقيم لنا أدلة تقنعنا بان الانواع العديدة التي تملأ الدنيا إنما هي تنوعات حياة عامة وتركب عناصر أولية واحدة تمتد في سلسلة تطورات يغيب أولها وراء الطيات الجيولوجيـــة . وكل ذلك ، طبعاً ، لا يسجله العلم تسجيل شاهد عيان ، بل يتوصل اليه بالمقارنة والمقابلة ودرس خواص الكائنات الحيـة والجماد ، كما يتوصل رجال القضاء إلى تتبع أثر المجرم ومعرفته من الادلة والشبهـات المتجمعة لديهم ، حتى أنه مهما أصر المجرم على الانكار يظل القضاء يأتيه بادلة وشواهد حتى يفحمه فيعترف بجريمته وليس عليها شاهد عيان .

وصحيح ان العلم لما يتوفق إلى تعيين كيفية حدوث كل نوع بصورة قطعية، وعلى الخصوص كيفية حدوث النوع البشري ، هل كان باشتقاق أب واحد او جماعة آباء او جماعات نوع واحد . وكذلك لما يتوفق إلى تعيين المكان الذي نشأ فيه النوع البشري بالضبط ، وان كان جمهور العلماء يرجحون نشوءه في اواسط آسيا . ولكن ذلك لا يعني ان العلم لم يتوصل إلى كشف القناع عن سر تنوع الكائنات، بل ان ما لديه من الحقائق والادلة البيولوجية والانتربولوجية والكيماوية والجيولوجية الخ . يجعل العقل يدرك بالمنطق والشواهد ترابط الكائنات في سلسلة تطور الحياة . بل ان التطور قد قام عليه الدليل والبرهان الجزئي فلبعض النباتات استعداد غريب للتطور والانسان نفسه قد تطور بعد نشوئه ، فبين الانســان العصري والانسان الهيدلبرغي او النيندرتالي شوط من التطور لا يستهان به .

* * *

أما ان الانسان نشأ بالتطور فما لا جدال فيه وأما كيفية حدوث التطور ، أكان بتجمع تغيرات بطيئة تحت تأثير البيئة المتطورة أم بالتغير الفجائي استعداداً للدخول في بيئة جديدة فمما لم يتفق عليه العلماء لحاجتهم الى استكمال اختباراتهم. وقد كانت النظرية الاولى القـائلة بالتغير البطيء وفاقا للانتخاب هي السائدة . ولكن نفراً من العلماء الحديثين يعتقدون بسبق التطور لموافقة البيئة وبحدوثه دفعة واحدة [1]

1ـــ انظر فلدشمت

الفصل الثانى

السلائل البشرية

مدلول السلالة . إذا وضعت تحت البحث قبيلة من القبائل أو شعبا من الشعوب وأخذت تعود القهقرى بانسابه حتى تردها إلى أب واحد ، ثم ترد هذا الاب إلى عائلة متفرعة من ابناء نوح ، وتستمر فى ذلك حتى تبلغ إلى آدم ، وقسمت بعد ذلك الاقوام البشرية على هذه القاعدة إلى فروع آدم وهمي وقلت ان معنى السلالة مشتق من هذا التقسيم فانك قد اختلط عليك علم السلائل وعلم الانساب ، فلا تميز بين الواحد والآخر .

بيد انه على مثل هذا جرى الاوائل في العصور المتمدنة الاولى فكان النسب عندهم أصل الاجناس وتعليل حدوثها ، لان ما استندوا اليه في معرفة ذلك كان حكاية الخلق الخيالية التي تنوعت رواياتها في متعدد الاديان . ومن غريب هذه الروايات ما نقله المسعودي [1] مستنداً إلى « ما جاءت به الشريعة ورواه الخلف عن السلف والباقي عن الماضي » ، وهو أن السبب في اختلاف الوان البشر يعود إلى أن ملك الموت الذي أرسله الله أخيراً ليأتيه بطين من الارض يخلق منه آدم أتاه بتربة سوداء وحمراء وبيضاء فلذلك اختلفت الوان ذريته . وعلى هذا لايكون البشر إلا ذرية تربطها الانساب وبدهي أن مثل هذا القول لا يوصلنا إلى حقيقة مدلول السلالة أو ماهيتها .

إذا تركنا وجهة التخمين والتقديرات التخيلية في الفوارق الظاهرة في جماعات النوع البشري وبحثنا عن مدلول كلمة « السلالة » العلمي وجدنا أن هذه اللفظة هي من مصطلحات العلم الطبيعي . والغرض منها تقسيم النوع الواحد

1 ـــ المسعودي : ج ـ 1ص 51 وبعدها

إلى فروع (أجناس) تتوارث صفاتها ومزاياها الخاصة [1] ، أما النوع فيقصد منه تحديد الكائنات الحية التي ينتج تزاوجها نتاجا ناجحا يكون له ذات المقدرة بلا حدود [2] . فالاجناس تقبل الاختلاط والتزاوج والانتاج ويمتنع ذلك في الانواع إلا شذوذاً نادراً .

معتقدات السلالة . ليس بين جميع العقائد البشرية عقيدة غير الذين لعبت دوراً خطيراً في السيطرة على عواطف الاقوام كعقيدة السلالة فقد كانت السلالة مقرونة بالنسب ومرادفة للفوز والمجد والارستقراطية ولذلك كانت سبباً للفخار والمباهاة والعجرفة .

وكما ان العرب اولعوا بالافتخار بالانساب وهجو بعضهم بعضاً بالقدح في القبائل المختلفة التي ينتسب اليها المتهاجون ، كذلك كانت شعوب اخرى كثيرة تجري على مثل ذلك في اوائل عهودها . ففي القرون الوسطى كان الاشراف يعدون انفسهم من دم افضل من دم العامة المحتقرة منهم . وكان المظنون أن الفلاحين هم من نسل حام الذي قيل ان نوحاً دعا عليه بالعبودية . وكانت طبقات الفرسان في اقاليم مختلفة تعتقد أنها متحدرة من ابطال طروادة الذين قيل انهم قطنوا انقلترا وفرنسا والمانيا بعد سقوط تلك المدينة العظيمة. وفي فرنسا، موطن الفرنك ، كان هؤلاء يردون بالتسلسل الى فرنسيون ، أحد أبناء هكتور [3] . ويقال في الحقيقة ان نقولا فريره (Nicholas Freret) سجن في الباستيل سنة 1714 لانه خطأ هذه النظرية !

وفي سنة 1749 حاول استاذ الماني في روسيا اسمه مللر ان يثبت ان الروسيين هم من سلالة فنية ـ تترية . فامرت الامبراطورة اليصابات بالقبض عليه وسجنه في الحال وان يجلد ناموس المجمع العلمي ، تردباكوفسكي ، الذي قال ان مللر على صواب . وقد اجبر مللر على تكذيب نفسه ! [4]

شغفت اقوام كثيرة بحب « السلالة » وعدها مصدر جميع الخلال والمناقب

---

1 هرتس ، ص 20　　2 ايضا ، ص 20　　3 ايضا ص 5 - انظر ايضا جوانيه ص 42

4 هرتس ص18

الحميدة ، بشرط ان تكون نقيـــة خالصة . وهكذا نشأ افراد وجماعات تتشبث بنقاوة سلالاتها وكل فرد او جماعة تدعي ان سلالتها أفضل السلالات واكرمها عنصراً. ولم يسلم مثل هذا الادعاء من الغلو البعيد فقيل ان جميع السلالات الاخرى منحطة من الاصل ولا تستطيع كل قوى التمدن والتربية ان ترفعها الى مستوى السلالة الفضـلى ، وان الشيء الوحيد الذي يرفعها هو امتزاجها بهـذه السلالة ، ولكن هذا الامتزاج امر غير مرغوب فيه لانه يؤدي الى انحطاط هذه السلالة الكريمة على نسبة ارتفاع السلالة ، او السلالات الاخرى. ومن أغرب معتقدات السلالة ما أدى الى الادعاء أن البشر مفطورون على الشعور بالسلالة ولذلك يجب رفض كل محاولة من شأنها اضعاف او ابطال النزاع الطبيعي [1]

عقيدة السلالة في فرنسا وبلجيا . اندغم حب السلالة ، في تلك الأزمنة القليلة العلم بالعصبية القومية الغامضة . وليس ذلك غريباً بالنظر الى تأخر ذلك العصر ، ولكن الغريب أن هذا الاندغام استمر الى عصرنا الحاضر . ففي فرنسا مثلا ، التي ظهرت فيها الى الوجود نظريات سلالية غريبة تعددت واختلفت بمقدار تعددها ، ظل الاعتقاد بالسلالة القومية وسيلة للاستغلال حتى في الكتب العلمية. فان بين الذين عللوا اسباب الحرب بين فرنسا والمانيا عدداً من السياسيين والعلماء البارزين قالوا بان النزاع إنما هو خصومة طبيعية بين السلالة الجلالقيـة او اللاتينية العاليـة والسلالة الجرمانية الوضيعة . وان بين الـكتب المـدرسية الموضوعة بعـد الحرب الكبرى كتابا ألفه عالمان بنفسية الاحداث بلجيان ، أحدهما مركه (Mirquet) وهو رئيس مدرسة والآخر برغميني (Pergameni) وهو استاذ جامعة تجد فيه : « يظهر ان الحرب قد برهنت على ان للالمان جميعـا ميلا الى الشر ناشئاً عن غرائز سلاليـة شاذة ، كاستعمال القوة العضلية ، الخبث الفطري ، القسوة وغريزة السرقة والسلب والقتل ، انكار الجميل مهما كان شـريفا ، نسيان المعروف ، عصبية طائشة مسببـة عن حسدهم الامم الاخرى وكرههم لها ، طمع متوارث غـير طبيعي في الوصول الى التفوق العالمي ، خلو

---

1 هرتس ص 3-2

تام من كرم الاخلاق ، العجز عن تقدير بطولة اضدادهم وانكارهم انفسهم. فانهم قــد جاؤوا ببرهان قاطع على ان من خلال سلالتهم الرياء والعبـودية والمكر ، وان من غرائزهم التي لا سبيل الى كبح جماحها القسوة والشـر ، وانه ليس لهم غرائز انسانيــة ، لا فكرة عن الحق والعــدل ولا فهمٌ للشرف ولا شعور بالفــكاهة » [1] وقد حاز هذا الكتاب سنة 1920 جائزة من المجمع العلمي البلجي الملوكي !

عقيدة السلالة في انقلترا . لم تتخذ عقيدة السلالة في انقلترا صفة العصبية الجنونية التي اتخذتها في بلدان اوربية اخرى . ومع ذلك فان الاعتقاد بتفوق « السلالة الانقلوسكسونية » كان منتشراً جداً فيهـا ، وقد اتخذ من هذا الاعتقــاد حجة لتأييــد امتياز العنصر الانقليزي الانقلوسكسوني على العنصر الارلندي الكلتي . ومع ان الانقليز لا يتطرفون كثيراً في الاعتداد بالسلالة ، ولعل ذلك عائد الى خبرتهم الاستعمارية الطويلة ، فانهم لا يخلون من الاعتقاد بمزايا سلالتهم الممتازة . وهم شديدو التحفظ من الاختلاط والامتزاج مع اقوام من سلالات اخرى .

عقيدة السلالة فى المانيا . أدت النهضة الالمـانية القومية في اصيل القرن التاسع عشر الى تعاظم الفخر بالسلالة واخـذت دوائر متنفذة عديدة تنظر إلى الشعوب اللاتينية والكلتية والصقلبية حولها بعين الازدراء . ولم تقف المسألة عند هذا الحد ، بل تعدته الى الاعتقاد بان اشراف المانيا فقط هم من السلالة الآرية النبيلة أما الشعب فكان من سلالة سابقة الارية ، فكان مكتوبا للشعب الخضوع ومقدراً للاشراف السيادة . وسرى الاعتقاد بان هـذه السلالة الكريمة العنصر هي السلالة المعدة لسيادة العالم ، وعلى هذا الاعتقاد بني كثير من نظريات الجامعة الجرمانية [2] . ومن ادلة العناية بالاعتقــاد بالسلالة حتى في الدوائر المسؤولة في الشؤون السياسية الخطيرة ما صرح به المستشار الالمــاني الشهير بتمن هلوق ، بمناسبة اجازة قانون الجيش الالماني فى 7 نيسان 1913 ، قائلا ان هنالك خطر

---

1 هرتس ص 7   2 ايضا ص 10

اصطدام بين الصقالبة والجرمانيين ولذلك يضطر هؤلاء الى زيادة سلاحهم . ولم يذهب هذا القول بدون نتائج خطيرة بين صقالبة النمسا والمجر .

عقائد السلالة عموماً . انتشرت عقائد السلالة عند جميع الامم الحية تقريبا ، فلم يسلم منها شعب من الشعوب إلا فيما ندر . ففي الولايات المتحدة اتخذت بعض العقائد والنظريات لتأييد مالكي العبيد . فقال هؤلاء ان السواد في العبيد إنما هو علامة قايين الذي لعنه الله [1]. وشبيه بهذه النظرية ماتوهمه بعض النسابين العرب أن السودان هم ولد حام بن نوح ، اختصوا بلون السواد لدعوة كانت عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه [2] . ومع أن عقيدة السلالة في الولايات المتحدة كانت أظهر ما يكون بين البيض والسود فانها لم تقتصر على هذه الوجهة ، بل تناولت بغض الاسيويين عموما والصينيين واليابانيين خصوصاً . ويظهر ان التحامل على السلالات يجد دائماً تربة جيدة في اميركا [3] . وهكذا نرى بعض الاميركان يعدون السوريين والاغريق سلالات منحطة ، ففي حملة انتخابية جرت في برمنهام ، الاباما ، ربيع سنة 1926 وزعت نشرة جاء فيها :

لكورونر

صوت ل ج . د . غص

« مرشح الرجل الابيض »

« لقد جردوا الزنجي ، الذي هو اميركاني الرعوية ، من حق التصويت في الاولية البيضاء . فيجب ان يجرد الاغريقي والسوري ايضا من هذا الحق . اني لا أريد صوتهما فاذا كان انتخابي لا يمكن أن يتم على يد الرجال البيض فلا أريد الوظيفة » [4]

واذا اخذت بلاداً جديدة كالبرازيل جمعت من الزنوج وكرام الشعوب

---

1 هرتس ص 12   2 ابن خلدون ص 83   3 هرتس ص 12   4 فليب حتي ، ص 84

الاوربية والاسيوية وحثالتها وجدت لعقائد السلالة المبنيـة على الوهم جذوراً ذاهبة فى القلوب [1]

وأخذ العرب نصيباً كبيراً من تعليق أهمية عظمى على اوهام السلالة فافتخروا كثيراً « بطيب عنصرهم » وظنوا الاجانب ادنى منهم فسموهم « علوجا » وغير ذلك من الاسماء واثر الدين عندهم كثيراً على اوهام السلالة ، كما اثر على اليهود من قبلهم ، ووصلوا انساب عدنان باسمعيل بن هاجر بن ابراهيم . أما اليهود فقد زعموا أنهم سلالة ابراهيم اتخذهم الله شعباً له مفضلاً على باقي الشعوب والله عندهم هو « إله اسرائيل » .

عقائد ونظريات فى السلالة. اشتبكت عقائد السلالة المبنية بالاكثر على الوهم بالنظريات الابتدائية التي قصد منها إدراك كنه السلالة وفهم خصائصها . ومن هذه النظريات ما وجد تأييداً في مذهب أرسطو في العبودية،إذ هو يبررها على الوجه التالي:أولا :ان الطبيعة نفسها قد أعدت بعض الناس ليحكموا وآخرين ليخدموا إذ هي تهب للاول مقدرات عالية وللآخرين قوة الحيوانات . فان حق السيد في العبد كحق الانسان في الحيوان . ويمكن رد الحجة المناقبيـة ضد مثل هـذا الموقف بالاتيان بالنقطة الثانية وهي : ثانيا : إن هـذه العلاقة هي في مصلحة المسيطر عليهم ، إذهم ،لفقدهم القوى العاقلة ، يحتاجون الى إرشادسادتهم، ثالثاً : ان الشعب المتغلب هو دائماً أرقى بجميع المزايا الجيدة [2]

وقد رأينا فيما مر من هذا الفصل كيفية انتشار عقـائد السلالة في مختلف الشعوب . بقي أن نأتي هنا بلمحة صغيرة عن النظريات التي تقلبت على السلالة في اوربا ، خصوصا في فرنسا التي اختلفت فيها النظريات وتضـاربت بقدر تقلب ظروفها السياسية . ومن هذه النظريات ما قال به بودان (Bodin) معللاً أصل الفرنك من أنهم قوم من الجلالقة ارتحلوا الى المانيا ثم عادوا ليحرروا اخوانهم

---

1 خذ مثلا قول جوان ريبيرو عن الفينيقيين بناة قرطاضة « ان الشعب (شعب قرطاضة) وهو من سلالة اسيوية ، سامية ، كان احط في المدنية من الرومانيين المثقفين في جوار الاغريق الذين اخذوا عنهم الفنون والثقافة الخ » ص 113

2 هرتس ص 4

من نير رومة . فحظيت هذه النظرية بالرضى في عهد لويس الرابع عشر ، لانها تجعل الفرنسيين امة خالصة النسب وتؤيد الرغبة في الحاق الرين بفرنسا وهو ما كان هذا الملك يطلبه مدعيا ان الرين جزء من مملكة الفرنك القديمة [1] . ولكن ليبنتز الرياضي الالماني المشهور نقض هذه النظرية وبرهن على أن الفرنك من أصل جرماني . فحلت محلها نظرية الكنط دي بولانفيير (Comte de Boulanvilleirs) القائلة ان في فرنسا سلالتين ، سلالة النبلاء المتحدرة من الجرمان الفاتحين وسلالة العامة المتحدرة من الكلتيين والرومان المخضعين [2] . وهنا نرى أن نظرية أرسطو صارت نظرية سلالية فأهل المواهب العليا هم اهل المراكز العليا وهم سلالة قائمة بنفسها . ثم نشأت نظرية منلوزيه (Montlosier) القائلة ان في فرنسا « شعبين » متحدرين من السلالات الرئيسية الثلاث ، إلا ان الواحد من الاحرار والآخر من العبيد .

نظرية العقيدة الارية . من جميع هذه النظريات لم تنشأ نظرية واحدة لعبت الدور الذي قامت به نظرية الآرية التي قال بها الكنط غوبنو (Gobineau)وجمع فيها نظريتي مولانفيير ومنلوزيه . فبين سنة 1851 و 1855 أتم غوبنو وضع نظريته واستخرج فيها من النظرية الاقطاعية المشار اليها آنفا نظرية سلالية عامة تجعل الجرماني او الاري العادي فى عداد طبقة الارستقراطية « السلالية» وقيمة الشخص ومركزه يتوقفان على مقدارما في عروقه من الدم الآري [3]

ومع أن غوبنو فرنسي فان نظريته لم تصادف النجاح التام فى فرنسا ولعل السبب فى ذلك يعود الى كره الفرنسيين اعتبار مزاياهم مستمدة من السلالة الجرمانية إذ في ذلك اقرار بتفوق الالمان المبغضين ولكنها انتشرت كثيراً في المانيا ووقعت من نفس القائلين بالجامعة الجرمانية موقعاً حسناً . ولم يطل الامر حتى أخذ اسم تشمبرلن الانقليزي يذيع فقاق غوبنو . وهو اكثر من أشاد بذكر التوتونيين اندفاعا وفيه قال غليوم الثاني . « ان اول من أعلن مجد التوتونيين واشاد بذكره لالمانيا الذاهلة هو تشمبرلن في كتابه ، أسس القرن

---

1 هرتس ص 5 2 ايضا ص 5 3 ايضا ص 6

التاسع عشر [1] ولكن ذلك كله كان عبثاً كما برهن عليه سقوط الشعب الالماني [2]

ولا بد لنا هنا من الاشارة إلى أن القوة التي اكتسبتها نظرية « السلالة الآرية » استمدتها هذه النظرية من الادلة اللغوية الخداعة . فقد أدى اكتشاف قرابة اللغات الآرية إلى استنتاج أن دليل اشتقاق هذه اللغات من لغة ام في الاصل يدل ايضا على تسلسل الاقوام التي تتكلم هذه اللغات من اصل سلالي واحد . واللغة كانت عند القائلين بالسلالة الآرية أهم البراهين التي استندوا اليها، كما كانت اللغات السامية من أهم البراهين التي استند اليها القائلون « بالسلالة السامية ».ولا يخفى وهن الاستناد الى مثل هذا الدليل ، فتكلم عدد من الاقوام لغات مشتقةمن اساليب لغوية متوحدة قد يفيد ان هذه الاقوام كانتفي بعض الازمنة الغابرة متقاربة في الاجتماع او ان « اصولها » كانت تعيش معاً ، ولكنها لا تعني ابداً وجوب كون هذه الاقوام مشتقة من اصل واحد او نشأة سلالة واحدة .

النظريات العلمية العصرية • إذا تركنا المعتقدات السلالية والنظريات المبنية عليها جانبا وعمدنا الى الوجهة العلمية من الموضوع وجدنا السلائل البشرية خاضعة لعلمين رئيسيين يتناولانها بالدرس في دوائر اختصاصية ، هما الاثنلوجية، او علم الاقوام او السلائل البشرية [3] والانتربلوجية او علم

---

1 Chamberlain, Foundations of the Nineteenth Century

2 هرتس ص 10

3 اختلفت مذاهب العلماء في تحديد نطاق هذا العلم الحديث فذهب بعضهم الى جعل الاقوام او السلائل البشرية كلها ضمن دائرته ، وذهب آخرون الى وجوب تخصيص هذا العلم بدرس حياةالانسان خارج حيز المدنية الاسيوية الاوربية (انظر شمت ص 16 - 18) وقد قال شتينطال (Steinthal) معرفا هذا العلم : « ان الاتنلوجية منذ قوبلت بالفلسفة والتاريخ كانت درس حياة السلالات التي لا تاريخ لها (ايضاص 18) اما رتسل (Ratzel) فيقول ان مهمة الاتنلوجية هي « درس حياة النوع الانساني في جميع مظاهرها » (ايضا نفس المكان) ويقول ادوار مابر « ان علم مقابلة الاتنلوجية يبحث في احوال وانظمة الجماعات التي تجري ضمن دائرتها شؤون الحياة بنظرياتها وعاداتها وتقاليدها متتبعا اياها الى اقدم اشكالها » ج 1 قسم 1 ص

الانسان [1] . ومن هذين العلمين يهمنا في الدرجة الاولى ، تعيين تقسيم السلائل البشرية من الوجهة الطبيعية الفزيائية ، وهو من خصائص علم الانتربلوجية الحديث او الانتربلوجية الفزيائية (انظر هامش الصفحة السابقة) .

الفوارق السلالية . عرفنا في بداءة هذا الفصل (انظر ص 25-26) المقصود من لفظة « سلالة » ولفظة « نوع » بالمعنى العلمي ، وبناء عليه نقول ان البشر جميعهم يؤلفون نوعا واحداً بالمعنى الطبيعي الحيواني (الزولوجي) ولكنهم ينقسمون الى سلالات متعددة تتوارث كل واحدة منها صفاتها ومزاياها الخاصة . وما ندخل هنا في أي بحث يتناول تعليل حدوث هذا التقسم التنوعي لسببين : اولهما انه ليس غرض هذا الكتاب التحقيق في هذا الموضوع المستقل، والثاني ان آراء العلماء وأدلتهم ليست متفقة بهذا الصدد فيكون الخوض فيه خطراً . ولكنه لا بد لنا في سياق هذا البحث ، من أن نعرض لبعض النظريات العلمية في ذلك ، من باب التوسع الذي لا يدخلنا في خطر اصدار احكام عامة جازمة .

ونبدأ هنا بالقول ان معرفة السلالة وتمييزها عن سلالة اخرى ينتجاز عن فوارق واضحة ثابتة لا يمكن اغفالها ومن هذه الفوارق الاولية اللون ، ولعله اول الفوارق السلالية التي تنبه لها البشر فنرى حكاية المسعودي المذكورة آنفاً (ص 25) توزع البشر الوانا .وحدثت في عصور متأخرة محاولة لجعل البشر ثلاثة اقسام : سلالات « النهار » وسلالات « الليل » وبينهما سلالات« الغسق» (Daemmerungs-Menschen) ، [2] وحتى الآن لا يزال الناس ومنهم فريق كبير من الكتاب يقولون : الجنس الابيض والجنس الاسود والجنس الاصفر .

---

1 قد وردت هذه اللفظة لعدة معان متنوعة متقاربة ، فبينا ماير (ايضا نفس المكان) يعرف هذا العلم بانه « علم الاشكال العامة للحياة الانسانية والتطور الانساني » نجد بعض الكتاب يقصره على الوجهة الفزيائية من درس النوع الانساني وهـذا هو المعنى المفهوم من استعمال هذه اللفظة في اوربا القارة وخصوصا في المانيا بينما معناها في انقلترا او اميركا الشمالية يشمل المعنى الاول اي متناولا ما هو من خصائص علم الاتنلوجية ايضا (انظر شمت ص 15)

2 فن لوشان Papers ص 14

ومع أن لون البشرة هو من الفوارق الظاهرة بين الجماعات البشرية فهو ليس فارقا سلالياً اصلياً ،بل مكتسباً من تأثير البيئة الطبيعية [1] وقد تنبه لذلك ارسطو وعلى هذا عول ابن خلدون [2] وكان قد سبقه الى ذلك ابن سينا . فليس اللون إلا صبغة والبياض نقص الصبغة [3] وقد ظهر بالبحث والدرس ان البيض ليسوا سلالة واحـدة لانهم جماعات مختلفة الاشكال متباينة القامات وكذلك السود والصفر والحمر الخ . وبناء عليه لا يعتمد الانتربلوجيون العصريون ، في تقسيم النوع الانساني ، على ظاهرة واحدة فقط ، بل على عـدة صفات فيزيائية اولها واهمها مساحة الجمجمة وحجمها وقد اعتمد هدن [4] في ذلك على فوارق الشعر ولون البشرة والقامة وشكل الرأس واوصـاف الوجه والانف والعينين . وعلى ما يشبه ذلك جرى غريفث تايلر [5] في تقسيمه ووصفه الجماعات البشرية إلا انه يعتمد على الدليل الرأسي اولا للتقسيم الرئيسي فى حين ان هدن يأخذ الشعر مقياسا اولياً [6] وجمهور علماء الانتربلوجيا ، يعتمدون الدليل الرامي فارقا ثابتـا في السلالات .

نشوء السلائل وعددها . عرفنا في الفصل الاول أن الجنس البشري نشأ بالتطور ولكن كيفية حدوث ذلك لا تزال غامضة . وحتى الان لم يمكن تعيين المكان او الامكنة التي نشأ فيها الانسان ولكن يرجح ميـل فريق العلماء القائل بان اواسطآسياهيمهد البشرية [7] . وقد اختلف العلماء فى تعيين عدد السلالات[8] ولعل ذلك عائد الى اعتماد بعض ادلة اكثر من البعض الآخر . والامانة لغرض

---

1 فن لوشان Papers ص14 2 المقدمةص 84 3 انظر « المجلة » (بيروت ج 8 ع 2) الاشقر اروالاغراب وفن لوشان في بحثه المذكور انفا وغريفث تايلر ص 34

4 خصوصا ص 5 5 وفي ص 42 ـ 43 من كتابه نرى قائمة باسماء بعض العلماء وطرائق تقسيمهم السلائل البشرية 6 هدن ص 15 وما يليها 7 على هذا المبدا اعتمد غريفث تايلر (خصوصا ص 5) في وضع نظريته القائلة بتقسيم السلائل البشرية الى مناطق اقليمية ابعدها عناواسط آسيا اشدها ناخرا او اقلها تطوراً وهذا ، طبعاً ، يتعلق بالسلالات الاولية فقط .

8 هرنس ص 20 يعطي امثلة مما ذهب اليه بعض العلماء بهذا الصدد.

هذا الكتاب تقضي ألا نتوسع في هذا البحث اكثر مما يجب ، ولذلك يحسن بنا للتوفيق بين غرض الكتاب وهـذا الموضوع ان نقسم السلالات البشرية إلى قسمين : اولي (Primitive) ومرتق وهـذه الاخيرة هي شعوب آسيا واوربا اصلا . وهذه الشعوب مقسمة بحسب أدلتها الرأسية الى ثلاث سلالات رئيسية هي : السلالة الغربية (Westic) او سلالة البحر المتوسط [1] ، والسلالة الشمالية (Nordic) والسلالة الشرقية (Ostic) او الالبيـة والاولى هي ذات الدليل الرأسي المستطيل 72 - 75 ، والثانية ذات الدليل المتوسط 75 - 79 ، والثالثة ذات الدليل العريض المفلطح فوق 85 [2] وهـذه السلالات جميعها من السلالات البيضاء القوقاسية [3]

السلائل والعقليات · إن السلالات أمر فيزيائي واقع والادلة على وجوده متوفرة . ومما لا شك فيه أن هنالك فوارق بين السلالات في الارتقاء والتمـدن والاستعداد لها عدا السلائل الاولية ، فالثابت أن بعض السلالات التي ضربت في الاودية الخصبة كوادي النيل ووادي الفرات ووادي هوانهو او الاراضي الخصبة كسوريا انشأت ، بما كان لها من الاستعداد ، مدنيات رفيعة في حين أن سلالات اخرى نزلت اودية اميركا الخصبة ولكنها لم تستفد منها شيئاً ولم تنشيء مدنية تستحق الذكر [4] . وقد يكون ذلك نظراً لعدم اكتمال تطورها . ويستثنى

---

1 هرتس ص174 وما يليها . وتايلر (ص 1) يقول باشتراك « المغول » مع الالبيين .

2 هدن (25 و 27 و 28) والدليل الراسي هو نسبة عرض الراس او الجمجمة الى الطول .

3 علمت مما تقدم ان اللون ليس فارقا سلالياً اصليا ولذلك لا يوجـد فواصل حقيقية بين البيض وغيرهم الا الفواصل الاقليمية ففي السلالة الالبية مثلا (نسبة الى جبال الالب) ، اي سلالة المفلطحي الرؤوس يدخل المغول كما رايت فوق .

4 مابر ، المقدمة ص 65 . ونعلم ان بعض قبائل هنود اميركا الشمالية ادركت وجوب الاعتناء بالزراعة فكانت تاتي بحب الارز وتزرعه في المستنقعات ولكنها لم تحاول قط ترقية العناية بالزرع فليس هنالك زراعة او فلاحة بالمعنى الذي نفهمه في مدنيتنـا (انظر شمت ص 170) وقبائل البكيري على ضفة الشنقو الاعلى في اميركا الجنوبية تعمد الى اتلاف الغابات الكثيفة لاستعمال ارضها الخصبة وتكابد في ذلك مشقة عظيمة ولكنها تكتفي من الحراثة بفتح خرق او شق في الارض لنزول الحبة وتستعمل لذلك عصا خاصة محددة في اسفلها (ايضا ص 12)

من ذلك طبعاً بلاد المكسيك حيث اكتشفت بقايا مدنية من نوع راق .

وإذا تركنا السلالات الابتدائية وعمدنا الى السلالات الواقعة ضمن نطاق المدنية الاسيوية ـ الاوربية وجدنا انها كلها قد برهنت عن توفر مزايا الارتقاء فيها . ومع ذلك فيمكننا أن نجد في كل منها ما سماه لازرس (Lazarus) وشتينطال النفسية السلالية [1] وهذا قسم من الدروس الاتنلوجية ـ النفسية لا يقصد منه درس الظواهر النفسية في مختلف السلالات ، أي درس الفوارق العقلية من وجهة نظر السلالة ، بل درس النفسية السلالية كما هي تمييزاً لها عن النفسية الفردية . وبديهي أن لكل فرد نفسية او عقلية خاصة مستقلة ولكن ذلك لا يعني انها اساس للمقابلة والتفضيل السلاليين وللسلالات عقليات مستقلة موجودة فعلا ولكن يجب ألا يتخذ ذلك حجة للتمسك بعقائد تفاضل السلالات المتمدنة تفاضلا اساسيا جوهريا كما رأينا فيما تقدم من هذا الفصل (ص 26) .

أجل ، يجب ألا يستنتج من المميزات النفسية او العقلية ان هنالك مواهب عقلية سلالية خاصة مكتسبة من الشكل السلالي ومقتصرة على السلالة ومتوارثة فيها ،لان الواقع قد برهن على غير ذلك . فحيث امتزجت السلالات قديماً ، كانت المدنية أرقى . وان أسبرطه كانت تمنع الاختلاط مع الاجانب محافظة على نقاوة دمها ولكنها كانت في المدنية دون اثينا ، التي كثر فيها الاختلاط الدموي ، بمراحل : وان ارسطو طاليس كان يعد المكدونيين المحافظين برابرة . والاسكندر نفسه كان يرى انه يمكن ان يحسب الهلينيون انصاف آلهة بالنسبة إلى رجاله المكدونيين [2]

وان الادلة على عدم صحة القول بتفوق احدى السلالات الراقية في المواهب العقلية على الاخرى لمتوفرة . فاذا أخذنا الوجهة الفردية ودرسنا تسلسل بعض النوابغ وجدنا ان لا عبرة بنقاوة السلالة . فالشاعر الكبير اسكندر بوشكين المبدع في الادب الروسي القومي كان ذا عرق زنجي ، فقد كان لبطرس الاكبر قائد زنجي رفعته درجة ذكائه الى مرتبة مهندس المدفعية العام وصيرته ذا املاك

---

1 انظر شمت ص 28   2 هرتس ، ص 157

واسعة وتزوج سيدة روسية من الاشراف ، وحفيد هذا الزنجي هو بوشكين أعظم شعراء روسيا .[1] والكاتبان الفرنسيان الشهير ان دوماس الاب والابن كانا ذا عرق زنجي [2].

ان نظرية ضرورة نقاوة السلالة شرطا للارتقاء العقلي وانشاء المدنيات واطراد التقدم قد اصبحت واهية جداً ، إذا لم نقل فاسدة بالمرة ، تجاه المعلومات العلمية الحديثة ، خصوصاً ما تعلق منها بالمدنيات الاولى ، فمدنية بابل التي يعدها العلماء او جمهورهم ، اولى المدنيات التي أثرت على سير التمدن العام نحو الارتقاء لم تكن عمل سلالة واحدة او قوم اصفياء ، كما كان الظن القديم ، بل نتيجة احتكاك واختلاط الشمريين بالساميين [3] .

تغير السلائل . علمنا أن الانسان نشأ بالتطور . فهو لم يظهر « انسانا تاماً » دفعة واحدة ، والمرجح ان ارتقاءه حدث من درجة الشبنزى الى درجة الانسان الحقيقي (Homo Sapiens) . والتطور او التنوع التطوري هو التعليل الارجح لحدوث السلالات . وقد ذهب بعض العلماء الى ان بعض السلالات نشأ بامتزاج سلالتين . وبعضهم يعتقد بتحول التركب البشري حسب مقتضيات البيئة الطبيعية والبعض الآخر يقول باستحالة تغير السلالة بعامل البيئة . والذي نرجحه ان السلالات البشرية هي عدة تطورات او سلسلة تطورات حدثت في ظروف وبيئات تطورية ، أي قبل استقرار البيئة الطبيعية على حالتها المعروفة الآن ، وقبل ان يكون الارتقاء قد مكن الانسان من التحوط ضد اختلاف البيئات . فاذا كان الامر كذلك ، وهو ما نرجحه ، فقد توافقت نظرية القائلين بخضوع السلالة للبيئة والقائلين باستقلال السلالة عن البيئة . فالسلالات الحالية لا تتغير (تغيراً سلالياً) بانتقالها من الجبال الى السهول او بالعكس ، لان تأثير البيئة ليس قويا فى ظروف الاستقرار الحالي ولتوفر وسائل التحوط . ولكن اذا حدثت تغيرات جيولوجية وفلكية قوية فقد تضطر الاحياء والسلائل البشرية الى التطور او الانقراض .

---

1 هرتس ص 68 2 ايضا ص 130 3 كيتاني ج ا ص 159

واما تحول السلالات بالامتزاج فليس ثابتاً ولا دليل عليه الا في حالة امتزاج ذوي الرؤوس المفلطحة مع غيرهم فيسود التفلطح [1] . ويظهر من ابحاث بواس (Boas) في سكان ايطاليا ان امتزاج السلالات لا يظهر ميلا الى انتاج سلالة معتدلة جديدة .في ايطاليا يظهر شكلان للرأس بتنوعات معتدلة ولكن بمعدلات مختلفة ، اذ يظهر في الجنوب معدل دليل وضيع ، وفي الشمال يظهر معدل دليل رفيع. وبناء على ذلك يقول بواس :

« ان امكانيات تنوع هذين الشكلين تسبب مانراه في وسط ايطاليا من أقيسة وضيعة جداً تنتمي الى الشكل الشمالي ، حتى ان كل المنطقة تحتوي على مجال واسع للتباين ظاهر في امكانية تنوع من درجة عالية . فاذا كان يجب حدوث شكل عام قياسي من الامتزاج فيجب اذاً أن ننتظر مجالا اقل للتنوع» ويتفق هذا القول مع اختبارات فن لوشان في تركيا الدالة على ان في الامتزاج السلالي ميلا خاصا الى العودة الى اشكال الاصول ، لا الى تشكيل شكل متوسط [2]

---

1 انظر كبرس ، الكراس عدد 4 ص 13 (انظر مجموعات دروس المدرسة الطبية في الجامعة الاميركانية Collected Studies ص 128)

2 نقل ذلك كبرس وقال انه يتفق مع ما وصل اليه في نسل خليط من الصفرديم والاشكنازيم اليهود ايضا ص 10

الفصل الثالث

الارض وجغرافيتها

اهمية الارض للحياة · لو كان بحثنا في فلسفة العلم الطبيعي لكان من حق هذا الفصل ان يتقدم جميع فصول هذا الكتاب لان التعليل العلمي يقرر اويرجح، اسبقية الارض على الحيـاة . فاننا لا يمكننا أن نتصور تصوراً أشبه باليقين حيـاة شبيهة بحياتنا و كائنات حية شبيهة بكائناتنا الحية إلا على سيار شبيه بسيارنـا . والذي لا شك فيه ان وجود الارض (الكرة الارضية من ماء ويابسة) شرط اولي لوجود الحياة التي نعرفها والبر خاصة شرط أولي لوجود ذوات الجهاز التنفسي ، أي للحيوانات البرية ، وخصوصاً ذوات الاثدية . ومهما يكن من شيء فاننا لا نعرف الحياة إلا على الارض ولا نعرفها تقدمت إلا بتقدم الارض في الصلاح للحياة .

إذا كانت الارض شرطاً أولياً للحياة فلاشك انها اذاً شرط أولي لوجود النوع الانساني وبقائه. فليس للانسان حاجة من حاجات الحياة يستطيع سدها إلا مما هو فى الارض. خذ الغذاء والماء، وهما حاجة كل حي. فمصدرهما الارض وما عليها . والحياة ليست متوقفة على الغذاء والماء فقط، بل هنالك ايضاً درجة الحرارة او البرودة ومعـدل الاكسجين في الهواء . ومن هذه الوجهة نرى ان الارض ، مع كونها وحـدة جوية ، مقسمة بحسب طبيعتها الى أقاليم تتنوع فيها مقومات الحياة وتتفاوت ، وفي بعضها تنتفي بالمرة كما في القطبين، فالبرد فيهما يبلغ درجة لا قبل للانسان بها ، وتتعذر فيهما الحياة بجميع اشكالها.

الطبيعة والانسان · قلنا ان الارض شرط اولي للحياة عموما . ففيها او عليها تعيش جميع الكائنات الحية التي نعرفها. ولكننا لو وقفنا عند هذا الحد من تقرير علاقة الطبيعة بالحيوان والانسان لما كان من وراء ذلك فائدة جديدة فى

تقدم مدار كنا العقلية في تفهم أسباب حياة الحيوان والانسان .

تختلف علاقة الطبيعة بالنبات والحيوان عنها بالانسان . فالعلاقة الاولى علاقة مفردة او وحيدة الطرف ؛ فالارض تعد حاجة النبات والحيوان الحيوية وليس لاحدهما عمل مقصود لتكييف الارض واعداد مقومات الحيـاة . خذ الحيوان الذي هو اقرب إلى الانسان ، فهو لا يعرف إلا سد الحاجة مباشرة او جمع الغذاء كذلك فاذا وجد في بيئة ما يسد حاجته مباشرة بقي فيها والا انتقل الى غيرها. أما علاقة الطبيعة بالانسان فهي مزدوجة. في الدرجة الاولى نجد ان بيئة الانسان الطبيعيـة هي التي تمده بالمواد الخام اللازمة له لارضاء شعوره بالحاجة . وهي في الدرجة الثانية مشهد اعماله وسعيه لبلوغ اربه مداورة (غير مباشرة) . ومن هذه الوجهة نرى ان امتياز الانسان على الحيوان في سد حاجته مداورة — باعداد الادوات للصيد والقتال والبناء وغير ذلـك — جعل علاقته بالارض امتن من علاقة سائر الكائنات الحية بها ، اذ هو يقدر على معالجتهـا مباشرة فحيث لا نبات صالح لغذائه يحفر في الأرض وينقب ويزرع . وحيث بعض الحبوب والنباتات واللحوم لا تصلح لتناولها مباشرة يعمد الانسان الى معالجتها بالطبخ والشي . فالارض تكيف الانسان وهو بدوره يرد الفعل ويكيفها. والى هذه العلاقة المتينة يعود تفوق الانسان على بقية الحيوانات في تنازع البقاء . يكيف الانسان الارض ولكن الارض نفسها تعين مدى هذا التكييف واشكاله حسب بيئاتهـا الاقليمية . وفي الوقت الذي يسعى هو لتكييف الارض لتوافق حاجاته الحيوية يجد نفسه مضطراً لتكييف حاجاته حسب خصائص الارض النازل فيها .

اهمية البيئة للانسان : قلنا ان الارض مقسمة بحسب تكونها الى اقاليم وبيئات ولكل اقليم خصائص تختلف عن خصائص الاقليم الاخر، ولكل بيئة خصائص تتميز عن خصائص البيئة الاخرى . وهذه الخصائص هي التي تعين وجهة تقدم الانسان في سد حاجاته مداورة – أي مدنيته. بل ان البيئة هامة

لتقدم الانسان بقدر ما هي الارض عموما هامة لحياته. ولما كانت البيئة جزءاً من الارض فهي هامة لحياة الانسان ايضاً . فمن جميع المواد التي يتطلبها الانسان لحياته لا توجد مادة واحدة تمد الطبيعة بها امداداً مستمراً فى كل مكان بشكل يسد حاجة الحياة مباشرة او مداورة . وهذا ينطبق حتى على الهواء. فالمرتفعات العالية جداً كجبال الاندس فى اميركا وجبال اسيا الوسطى تبلغ من العلو طبقة من الهواء يقل فيها الاكسجين عن المقدار الضروري للحياة والعمل ، فالتنفس فيها صعب ومتسلقها لا يلبث ان يسقط فريسة « دوار الجبل » . ولما كان الانسان يتميز عن الحيوان بسد حاجاته مداورة، اي بالعمل بالادوات لاعداد الحوائج ، فالبيئة الطبيعية من الاهمية في المكان الاول ،لانها هي التي تمده بالمواد الخام اللازمة لصنع ادواته واعداد معداته .

البيئة والجماعة . ان تقسم الارض الى بيئات هو السبب المباشر لتوزع النوع البشري جماعات . فالبيئة كانت ولا تزال تحدد الجماعة، لان لكل بيئة جغرافيتها وخصائصها ، كما مر بك. فلو ان الارض كانت سهلا منبسطا في درجة واحدة من الحرارة والرطوبة ، خالياً من الحدود الجغرافية من صحاري وجبال وانهار وبحار ، لكان من البديهي ان يؤدي انتشار النوع البشري فيها الى انشاء جماعة واحدة كبيرة . ولكن الحدود الجغرافية الطبيعية جعلت انتشار الانسان في الارض موافقا للبيئات الجغرافية ، التي لولاها لما استطعنا تفسير ظواهر المدنيات المختلفة .

تحدد البيئة الجماعة من عدة وجوه ، اولها : حدود الاقليم الجغرافية . ثانيها : طبيعة الاقليم من حيث نوع تربته ومعدل درجة حرارته ورطوبته. ثالثها : شكل الاقليم (طبغرافيته) من حيث سهوله وجباله وانهاره .فالحدود الجغرافية تضمن وحدة الجماعة ، لانها تجمعها ضمنها ، وتكون العامل الاول في المحافظة عليها ، لانها الحصون الطبيعية في وجه غزوات الجماعات

الاخرى[1] .

ونحن نرى ذلك ، لا في المجتمعات الاولية فقط ، بل في الازمنة التاريخية أيضاً . فلولا جبال الالب الفاصلة بين بلاد الجلالقة (فرنسا) وايطاليا ، لما كان اصاب جيش هاني بعل (هاني بال) اعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الامم ، ما اصابه من التشتت والضعف حين زحف على رومة . ولولا هذه الجبال نفسها لما وجد اخوه القائد الباسل حسدروبعل نفسه في ذلك المأزق الحرج الذي انتهى بقتله وتقرير مصير قرطاضة . وطبيعة الاقليم تميز الجماعة بما تكسبها من لون وشكل وبما تمدها به من المواد الخام لسد حاجاتها الحيوية من غذاء وكساء وبناء وادوات . فمدنية الجماعة المستقلة مستمدة من بيئتها لان الاستنباط والتكييف يجب أن يكونا ملازمين لخصائص البيئة الطبيعية، موافقين لها . فلا يمكن ، مثلا ، أن تكون العجلة التى كان اختراعها خطوة كبيرة في ارتقاء التمدن ، قد استنبطت في الصحراء ، لان استنباطها يقتضي وجود اخشاب صلبة كالسنديان وغيره مما لا وجود له في الصحراء . وهي لا يمكن ان تنتشر بجميع اشكالها في الصحراء ، لانها لا توافق خصائص رمالها .

وان من الامور المقررة التي قد تبدو غريبة ولكن غرابتها لا تمنع من ان تكون واقعة ، ان المادة تعين الشكل . فمما لا شك فيه ان لكل مادة خصائص من شكل وحجم وصلابة تعطي صفات معينة للابنية والادوات المصنوعة منها . ونتيجة ذلك ان المواد التي تستمدها النزالات البشرية من بيئاتها وتستعملها في اغراضها تحمل طابع بيئاتها ، فيكون لكل بيئة موادها المتشكلة باشكال خاصة توافق طبيعتها وتزيد في خصائص مظهر بريتها كما تزيد منازل اليابان الخشبية في خصائص مظهر بريتها ، وان الذوق الصيني والياباني في البناء ،

---

1 يصور كميل جوليان في كتابه « تاريخ بلاد الجلالقة » هذه البلاد منطقة فسيحة . . ذات حقول محروثة في الوسط ، مصونة على اهدابها بحواجز متلاصقة اما من غابات او مستنقعات » (نقله دلا بلاش ، ص 62)

الذي يطبع مدنية هذين الشعبين بطابع خاص في اشكال منازلهم ، عائد بالاكثر الى ان اختبارهم في البناء والتزيين كان في الخشب المستخرج من اشجارهم الكثيرة. وويدال دلا بلاش يعطينا صورة من توافق الابنية الخشبية المصنوعة من مواد الشجر الدائم الاخضرار والبيئة الطبيعية في اليابان [1] . اما في الاقسام الجديبة من شرق سورية (بلاد الكلدان وشوشان) ووسيبستان وآسيا الوسطى فالقرى والمدن ايضاً قد بنيت من الطين واللبن فقط [2] .

وهكذا نرى الجماعات البشرية قد تأثرت كل جماعة منها بمواد بيئتها وجرت على اساليب توافق طبيعة هذه البيئة ، فتنوعت اساليب الجماعات ومجاري حياتها حسب تنوع بيئاتها . وهكذا نرى ان تاريخ علاقة الجماعة بالارض ، المستمد من «الجلالي» المغروسة باصناف الفاكهة والسهول المزروعة بانواع الحبوب هو غير التاريخ المستمد من الصحراء القاحلة والاراضي الجديبة .

ولشكل الاقليم تأثير عظيم في تمييز الجماعات بخصائص مادية ومعنوية . فليس المناخ وطبيعة الجو فقط العامل الوحيد في تكييف الانسان ، فالتربة وشكل الاقليم ، اشكال الاديم فضلا عن توابط اليابسة والماء — هكذا البيئة التي تؤثر على الانسان [3] فالبيئة الجغرافية المؤلفة من سهل منبسط فسيح تكسب جماعتها تجانساً قوياً يختلف في نوعه عن تجانس اهل البيئة المؤلفة من جبال . والتجانس في هاتين البيئتين يختلف اختلافا قويا عن التجانس الذي اسميه « التجانس التنوعي » الناتج عن بيئة جغرافية متنوعة الاديم من سهل وجبل وساحل .

---

1 دلابلاش ص 239 وفي كولمبيا البريطانية نجد مدنيتها القديمة قائمة على الخشب . فمنه المنازل والادوات جميعاً . وفي النزل او الفنادق المدلول عليها بانصاب خشبية امامها لا يعرف الخزف ، فالطعام يطهى في مواعين خشبية على احجار محماة (ايضا ص 207)

2 ايضا ص 245

3 ايضا ص 459

وقد اشرنا في الفصل السابق « ص 33 » الى تأثير البيئة الطبيعية على لون البشرة ونزيد هنا ان تأثير البيئة الطبيعية فى اشكال الهيئة غير السلالية تأثير قوي جداً فقد ذكر بواس[1] ان البيئة تؤثر ، في الغالب ، على اشخاص مختلفين تأثيراً يؤدي الى اتجاه واحد بناء على ان لكل عضو «حدود سلامة» يتكيف ضمنها تبعاً لمقتضيات البيئة ، فيتخذ الهيئة التي تتطلبها عوامل البيئة دون ان يفقد خصائص وظيفته . فاذا جئنا بشخصين متباينين الى بيئة واحدة فقد يتشابهان في الاجابة العضوية على المحرضات البيئية حتى انه قد يتراءى لنا حدوث تشابه اشكال تشريحية متميزة ناتج عن البيئة ، لا عن التركب الداخلي .

نرى مما تقدم ان البيئة تعد الفوارق الشكلية ايضاً للجماعات البشرية وان الترابط بين الجماعة والبيئة في انواع الحياة وفوارق الاشكال ومميزات العمران والاتجاه التمدني متين جداً .

البيئة وشخصية الجماعة . وان من اهم مؤثرات البيئة او الارض في تمييز الجماعات انها اهم عامل في تكوين « شخصية الجماعة » . والسبب في ذلك هو الارتباط الوثيق المولد حق الوراثة واستمرار التشابه الشكلي الذي تكلمنا عنه آنفاً . فلنتكلم الان على الوجه الاول من هذا السبب .

ان تأثير امتلاك ارض او عقار في شخصية الممتلك شديد جداً ، بل ان الارض او العقار جزء من شخصيته . اذ لولاه لكانت طريقة معاشه ومرتبته ونوع حياته على غير ما تكون عليه مع هذا الجزء . واذا استمر العقار في العائلة بحكم الوراثة صار جزءاً من شخصية العائلة ، به يثبت مركزها ويحفظ مقامها ، ومن هذا نستنتج ان الملك قد يكون اهم ما في الشخص المالك ، بل اهم منه ، لان الشخص زائل والملك هو الباقي على التوارث . فاذا كان رجل يملك ارضاً زراعية ، مثلا ، تكفيه وعائلته ، كانت شخصيته ورتبته الاجتماعية

---

1 بواس ص 47

موقوفتين على ما يملك حتى اذا زال من يديه تغيرت شخصيته ورتبته . هكذا، مثلا ، حدث لامراء الروس حين جردتهم الثورة البلشفية من املاكهم فخرجوا الى العالم سائقي سيارات وخدماً بعد ان كانوا أمراء . وهكذا الجماعات شخصياتها مرتبطة بالارض التي تملكها ارتباطاً وثيقاً ، بل قوام شخصياتها البيئة — الوطن.

البيئة وتاريخ الجماعة . من الحقائق المقررة علمياً وقام عليها البرهان الاختباري انه يستحيل نشوء جماعة زراعية حضرية في الصحراء. وفي حين ان الوادي الخصيب يدفع الجماعة الى الفلاحة والزرع ، فهو ليس صالحاً ، عادة ، لاقامة البدو. واذا كنا نرى في هذه الحقيقة برهاناً على اهمية الأرض الاساسية في تمييز الجماعات البشرية ، فاننا نرى من الوجهة الاخرى انه لا بد للارض من جماعة مؤهلة للاستفادة منها . فحيث كانت الارض خصبة والجماعة البشرية عديمة الخبرة في الارض لم ينشأ عمران، كما هو الواقع في اودية اميركا الخصبة التي ظلت عديمة العمران الى ان جاءت اميركا اقوام جديدة راقية في خبرتها بطبيعة الارض واستعدادها للاستفادة منها [1] . ومن هذا نستنتج ان الطبيعة والجغرافية هما الطبقة الداخلية في تاريخ حياة الانسان ، فمع انهما تميزان الجماعة تمييزاً واضحاً فانها ، فيما يختص بتاريخ الجماعة ، لا تقدمان الاضطراريات الا نادراً وفي حالات استثنائية ولكنها تقدمان الامكانيات [2] . ان التاريخ غير مكتوب في طبيعة الارض ، مع ان الارض هي احد الافتراضات التي لا بد منها لنشوء التاريخ والعوامل الفاصلة في حياة البشر وتطورها هي العوامل النفسية والفردية ، التي ، مع انها تتأثر كثيراً بعامل البيئة ، اما ان تستفيد من القاعدة الطبيعية ، شأن الجماعات الراقية ، واما ان تهملها على حسب استعدادها وارادتها . واذا عدناهنا الى ما اثبتناه في بداءة هذا الفصل (ص 41) فالقاعدة التي يمكننا ان نستخرجها من هذا البحث هي : لا بشر حيث لا ارض ولا جماعة حيث لا بيئة ولا تاريخ حيث لا جماعة .

---

1 ماير ج ا . ق ا . ص 65

2 ايضا ص 66

الفصل الرابع

الاجتماع البشري

اجتماعية الانسان وقدمها . مهما يكن من امر النظريات المتعلقة بنشوء الانسان وهل حدث ذلك ابتداء من حالة فردية كانت درجة من درجات ارتقائه ، أم أن الفردية حالة منحطة تفرعت من حالة التطور نحو البشرية [1] ، فما لا شك فيه ان الانسان يقع من الوجهة الاحصائية ، في جدول الحيوانات المتجمهرة او المتجمعة ، او هي الانواع الحيوانية التي يعيش افرادها جماعات (كالنحل والنمل والوعول والغزلان والذئاب والغنم وغيرها). فالاجتماع صفة ملازمة للانسان في جميع اجناسه، اذ اننا حيثما وجدنا الانسان وفي اية درجة من الانحطاط او الارتقاء وجدناه ، وجدناه في حالة اجتماعية . وهكذا نرى ان المجتمع هو الحالة والمكان الطبيعيان للانسان الضروريان لحياته وارتقائها.

ولما كنا لم نجد الانسان الا مجتمعاً ووجدنا بقايا اجتماعه في الطبقات الجيولوجية ايضا ، فنحن محمولون على الذهاب الى ان الاجتماع الانساني قديم قدم الانسانية ، بل اننا نرجح انه اقدم منها وانه صفة موروثة فيها [2] . نرجح ذلك ، حتى في حال ثبوت قرابة الانسان

---

1 الحقيقة انه لا يمكن مطلقا البحث في « انحطاط » فردي من درجة انسانية او مستعدة للانسانية . وجل ما يمكن اعتباره من هذا القبيل هو ازدياد القرود الصالحة لقطن الحرجات توغلا واختصاصا بهذه الحالة (انظر وينرت (Ursprung) ص 339)

2 انظر ايضا ص 194

والشبنزي [1]

واذا كان الانسان يقع ، من الوجهة الاحصائية ، في جدول الحيوانات المتجمهرة ، فلا يعني ذلك بوجه من الوجوه ان بينه وبين الحيوانات والحشرات المذكورة قرابة اجتماعية تمكن من استخراج اقيسة عامة تطبق على كلا الحيوان والانسان، كما ظن ويظن عدد من الكتاب الاجتماعيين وغيرهم . وان من اكبر الاخطاء التي وقع فيها هؤلاء الكتاب محاولتهم تطبيق احوال المجتمع الانساني على مظاهر تجمهر الحيوانات والحشرات واتخاذ قواعد اجتماعية من هذا التجمهر ومظاهره . واذا كان في انواع حياة الحيوانات والحشرات المتجمهرة شيء ذو فائدة للانسان فليس ذاك في واقع التجمهر بل في الحقائق الاخرى التي نتوصل اليها بالدرس في جميع الحيوانات والحشرات ، سواء اكانت من المتجمهرة ام من غيرها ففي الحياة سنن عامة تجري على الاجسام الحية كلها . على ان في المتجمهرة منها فائدة اخص ، وسنلم بذلك فيما يلي :

وجهة الاجتماع البيولوجية . اذا وجهنا نظرنا الى عالم الحشرات والحيوانات الدنيا ودرسناه من الوجهة البيولوجية بتدقيق ، وقفنا على حقائق كبيرة الاهمية والفائدة . ذلك ما نلاحظه من ان الحيوانات او الحشرات التي لا تعتني كثيراً ببيوضها او خليات توالد حياتها تضع من هذه الخليات عدداً كبيراً . وان القاعدة هي ان تقل عدد البيوض بالنسبة الى ازدياد العناية بالانتاج [2] . وهذه الحقيقة تجعلنا نفهم الشيء الكثير من اسباب تصرف الحيوانات والحشرات التي هذا شأنها . والملاحظة الثانية تفيدنا في فهم انواع الحياة الاجتماعية

---

1 يذهب ويترت في كتابه المذكور آنفا ، خصوصا ص 103 ـــ 197 . الى ان الغوريلا ـ الشبنزي ـ الانسان فصيلة والى ان القرابة بين الانسان والشبنزي متينة جدا . بل هو يجزم ص 302 ـ 330 بتفرع الشبنزي والانسان من نقطة اعلى من فرع الغوريلا وما دونه في شجرة الحياة او من نقطة في الجذع لا يتصل بها الغوريلا ايضا ص 85

2 انظر : ليقوي ABS ص 13

للحشرات والحيوانات الدنيا ان دور الذكر في حفظ النوع ينتهي عادة باللقاح الذي لا يزيد ، غالباً ، على مرة واحدة وبعد ذلك لا يكون للذكر ادنى اهمية في العناية بالنتاج [1] . واذا كان الانسان يتفق وسائر الحيوان والكائنات الحية في مبدأ المحافظة على النوع وخدمة النسل فان ظروف تطبيق هذا المبدأ عند الانسان تختلف عنها عند الحيوان . وان الحشرات والهوام التي تتخذ عادة امثلة للاجتماع كالنمل والنحل تختلف عن الحيوانات العليا والانسان بغرائزها البيولجية . فان افراد جماعات النحل والنمل فاقدة الحيوية الجنسية واجتماعها حول ملكاتها انما هو تجمهر مقيد بخاصية حفظ النوع فقط .

نرى ايضاً من متابعة درسنا عالم الحشرات والحيوانات الدنيا من الوجهة البيولجية ان هنالك انواع من الزنابير تجري في حياتها على اسلوب فردي مطلق . وحين ندقق في هذه الظاهرة التي تخالف ظواهر النحل يتضح لنا ان السبب هو في حيوية هذه الزنابير الجنسية ، فان اكتمال جهازها الجنسي هو السبب الظاهر الوحيد الذي نستطيع بواسطته تعليل حياتها الفردية ، كما ان ضمور الجهاز التناسلي في النمل والنحل هو اقوى عامل في تجمهرها حول ملكاتها وبيوضها .

ولسنا نطيل الشرح في موضوع يبعدنا التوغل فيه عن متجه هدفنا في هذا الكتاب ونحن ما عرضنا لبعض نواحي الاجتماع الحيواني البيولجية الا لنوضح بالدليل والامثلة ان الاجتماع في الكائنات الحية انواع ، لكل نوع منها خصائص لا تتعداه الى نوع آخر وان تطبيق الاجتماع الانساني على مظاهر التجمهر في الحشرات والحيوانات الدنيا او بالعكس غلط فادح سببه جهل مرتكبيه العوامل البيولجية المختلفة في انواع الاجتماع المختلفة .

وسواء اكان الاجتماع البشري موروثاً من اجتماع سابق الطور البشري ام حادثاً

---

1 ليقوي ABS ص 13

بعد نشوء البشرية ، فما يهمنا منه انه امر واقع ملازم للبشرية وان خصائصه ملازمة لخصائص الانسان حتى انه يستحيل تطبيق مقاييس اجتماع الحيوان ونظمه عليه ويمتنع كل وجه لجعل الاجتماع الحيواني قياساً له .

تباين اجتماع الانسان والحيوان . رأينا في درسنا وجهة الاجتماع البيولوجية ان خاصية حفظ النوع هي اظهر خصائص اجتماع الحشرات والحيوانات الدنيا. ويمكننا ان نضيف اليها خاصية الغذاء التي تكاد تكون ، أو هي بالحقيقة، عملا مطاوعاً للخاصية الاولى وضروراتها ، اذ اننا نجد في انواع حياة بعض اجناس الزنابير وغيرها من الهوام ان الافعال الدماغية وما ينتج عنها من الاعمال كالسعي في طلب الغذاء والاعتناء بالنتاج تزيد وتنقص في الحيوان الجنسي (الملكة) وفاقا لنقص او زيادة اسباب العناية بالنتاج (اي نقص عدد العمال او زيادته وما الى ذلك من نقص الغذاء وتوفره) [1]

نلاحظ ايضاً في الحشرات المنشئة الدول ظاهرة اخرى جديرة بالاعتبار هي كون «الملكة» في هذه الحشرات اقل نمواً في دماغها من العمال او ان هؤلاء اكثر نمواً في الدماغ من تلك [2] . وعليه يكون هذا التجمهر الدولي مؤلفا من ملكة ، يندر اكثر ، زائدة النمو في الجهاز التناسلي ومقصرة في نمو الدماغ ، وعمال (والاصح عاملات) مقصرين في نمو الجهاز التناسلي وممتازين بنمو الدماغ.

اما الانسان فمع اننا لا ننكر نصيب عوامل حفظ النوع في اجتماعه ، فان اجتماعه لا يصح ان يقابل بتجمهر الحشرات لعدم صحة اسباب هذا التجمهر عليه . فالحيوية الجنسية في كل انسان تتكفل ببقاء النوع كما تكفلت وتتكفل به حيوية الغورلا في معيشته الافرادية او الازدواجية فالانسان غير مضطر بطبيعة الحال الفيزيائية وغيرها الى التجمهر لاقامة النسل . وليس هو في عداد الحيوانات التي هي من الضعف وانعدام وسائل الدفاع بحيث يكون التجمهر وكثرة النتاج اقوى اسباب بقائه ، فان خصائص الانسان الفيزيائية ، كانتصابه

---

1 ليقوي : بحثه المذكور ص 121

2 ايضا ص 119

على قدميه الذي اطلق ليديه حرية الاستعمال ، تؤهله للانفراد او الازدواج في حفظ نوعه بما تجعل له من الامتياز والارجحية على خصومه. فليس الاجتماع البشري ، اذن ، من الضرورات البيولجية لحفظ النوع وفاقا لطبيعة الحال ، كما هو شأن الحشرات المتجمهرة .

واذا تركنا الوجهة البيولجية وعمدنا الى الفوارق الاجتماعية البحتة وجدنا في الاجتماع الانساني ظاهرتين مفقودتين في غيره ، هما استعداد الفرد لبروز شخصيته واكتساب الجماعة شخصيتها التي تكونها من مؤهلاتها الخاصة وخصائص بيئتها . وهاتان الظاهرتان الاساسيتان اللتان تميزان الاجتماع البشري تمييزاً شديداً بخصائصهما لا وجود لهما في عالم الحشرات والحيوانات الدنيا ولا في عالم الحيوانات العليا ، فلا النمل والنحل والغنم والذئاب ولا ما هو فوقها كالقرود لها شيء من خصائص هاتين الظاهرتين . بل هنالك الفارق الاساسي الاولي الذي يجعل لاعمال الانسان وللاجتماع البشري صفة مستقلة تبطل كل مقابلة « اجتماعية » بين الانسان والحيوان هو ظهور الفكر الذي له كل الاهمية في الحياة والاجتماع الانسانيين . ولا يبطل هذا ما قلناه من ان درس تجمهر الحيوانات وخصائصه يكون ذا فائدة كبيرة للانسان ومجتمعه ، ولكن هذه الفائدة لا تحصل الا بالدرس الدقيق الذي يكفل تعيين هذه الفائدة . واما اتخاذ ظواهر التجمهر والتجمع اساسا لبناء احكام عامة تطلق على كلا التجمهر الحيواني والاجتماع الانساني فكثيراً مالا يكون من الفائدة في شيء بل قد يكون على العكس .

ان الفائدة المعينة الاساسية التي يمكن استخراجها من درسنا حياة الحيوان الاجتماعية وغير الاجتماعية هي في علاقة هذا بالمحيط وفي ان افعاله ناتجة عن تفاعل ثلاثة اضلاع هي: الجسم — النفس (الدماغ) — المحيط (او سمها غير هذه الاسماء اذا شئت او استسهلت ذلك لنوع البحث او العلم الذي تريده) . فاذا كانت حياة الحيوانات المتجمهرة تجري ضمن هذا المثلث فحياة الانسان ايضاً تجري ضمنه . ومن تطبيق هذا الاساس الواحد على كلا الانسان

والحيوان نتوصل بالاختبار الى تعيين الفوارق الجوهرية بين الحياتين . وهي الفوارق في كيفية فهم المحيط من الوجهة النفسية. ففهم المحيط من هذه الوجهة، فيما يختص بالظواهر النفسية كالوعي والاحساس والارادة والفكر والتصور وما اليها ، ليس مما يمكن استكشافه في الحيوان . وهي هذه الظواهر التي لها كل الاهمية في حياة الانسان الاجتماعية — في فهم الانسان محيطه . وهكذا نرى ان موضوع استكشاف علم الاجتماع يختلف في الانسان عنه في الحيوان .

ولقد حملت مظاهر الحيوان الاجتماعية المشابهة لمعاني ظواهر اجتماعية انسانية، كالاستبداد والتعاون والتفاهم والرقص واللعب والتملك والتقليد وغيرها ، بعض الاجتماعيين والاجتماعيين القدماء على التكلم عن حياة الحيوان الاجتماعية بالاصطلاحات المستعملة للتعبير عن حياة الانسان الاجتماعية . والحقيقة انه لا مبرر لاعتبار مظاهر من عالم الحيوان معادلة لمظاهر عالم الانسان ، وايجاد علاقة بين تلك وهذه عن طريق بعض المشابهات الظاهرية العامة واتخاذ ذلك اساسا لايضاحها او للتحدث عنها ، فيما يختص بالانسان ، كما عن شيء واضح من الوجهة البيولجية . فاتخاذ الامثلة الاجتماعية للانسان من الحيوان يجب ان يكون على العكس ، اي من الانسان للحيوان ، فمظاهر كثيرة في عالم الحيوان الاجتماعي تشبه نوعا مظاهر من عالم الانسان الاجتماعي. ولكن كم هو عظيم مبلغ الرضى والاقتناع الذي يصاحب قولنا: «وهذا نجده ايضا في الحيوان». فما شأن هيأتنا الاجتماعية وثقافتنا وما اليها اذا كانت حياتنا الاجتماعية ليست الا تطبيقا لامثلة مأخوذة من عالم الحيوان ؟

توزع البشر ونشوء الجماعات. نعرف من الحقائق العلمية التي نتوصل اليها بالبحث المتواصل ان البشر وجدوا في جميع مناطق الارض الجغرافية الصالحة لمعيشتهم ما خلا اميركا واستراليا منذ الازمنة المتطاولة في القدم ، في طور الانسان الاول الوحشي .

فالبقايا البشرية التي اكتشفها علماء الهلك[1] في مختلف انحاء البسيطة، كانسان الصين وانسان جاوى وغيرهما، تقيم الدليل على ذلك. ونستنتج منه ومما يقدمه لنا علماء الانسان والسلائل البشرية ان البشر «توزعوا» سلائل نشأت او تكونت وفاقا لاحوال خاصة سواء اكان حدوث هذا التوزع وفاقا لما يذهب اليه بعض العلماء، ومن جملتهم غريفث تايلر، من انه كان من اواسط آسيا على قاعدة تطور سلائل لاحقة لاتلبث ان تدفع السلائل السابقة نحو الاطراف، ام وفاقا لنظريات اخرى كالنظرية القائلة بتكون السلائل بتأثير الانعزال في بيئة معينة على ممر الحقب، او كالاخرى القائلة بان الانسانية الاولية كانت مؤلفة من سلائل متميزة اكتسبت صفاتها الفيزيائية الثابتة في الازمنة القديمة جداً وأصبحت لا تقبل التغير مهما طرأ عليها من الانتقال والاختلاط. وبهذا يقول جمهور من العلماء الانثربلوجيين والجغرافيين كدي لابلاش[2] وكبرس[3] وغيرهما. وهذه النظريات تجعل التوزع مذهباً علمياً تتوفر له الحجج، خصوصاً متى درسنا جغرافية السلائل (Ethnographie (Y)) وادركنا منها مدى انتشار السلائل البشرية على وجه البسيطة.

في ذلك الطور الاولي الوحشي كانت القرابة الدموية الوسيلة الاولية لتطبيق المبدأ الاقتصادي للاجتماع - مبدأ التعاون على تحصيل القوت. فقد كان الانسان في ذلك العهد صياداً يقتات من صيده ويرحل في أثر الحيوانات التي يستسهل صيدها ويستحسن طعم لحمها. فضرب في الافاق جماعات - عشائر وقبائل - تربط كل جماعة

---

1 استعملت هذه الكلمة في مصر في بعض المجلات والكتب لتدل على علم الجيولوجيا (طبقات الارض) وقد رأى المؤلف، بعد انعام النظر، انها اكثر انطباقا على علم الباليتطلوجيا Palaeontologie (Y)

2 كتابه ص 448

3 في ابحاثه المذكورة

منها رابطة الدم التي ، ما دامت العامل الاولي الهام في تحقيق الرابطة الاجتماعية الاقتصادية : لا تسمح باتساع الجماعة وتعاظمها : لانه مع الاتساع والتعاظم تتراخى الروابط الدموية وتفقد حيويتها . لذلك كانت العشائر اخص من القبائل والقبائل منتهى ما تحتمله الرابطة الدموية .

ضربت الجماعات البشرية في الآفاق ، الامر الذي ادى الى انتشار السلائل قبائل قبائل بعدت فيما بينها الشقة وتراخت ما بينها اواصر الاجتماع لانعدام الغاية الاقتصادية منه ولعدم فائدة القرابة الدموية فى حاجة من حاجات الحياة من جراء استحالة التضافر والتعاون باختلاف البيئات وبعد المسافات . وتوالت الارتحالات الكبيرة والصغيرة واستمرت وتعددت وجهاتها واختلفت . وحيث دفعت قبائل سلالية الى مكان قصي اعتزلت فيه ، حافظت على نقاوة دمها ورجح ان تبقى من الارتقاء عند الحد الذي بلغته قبيل اعتزالها ، مدة طويلة من الزمن على الاقل .

وكان من وراء هذه الارتحالات ان جماعات سلالية تبعت جماعات اخرى او قابلتها ونزلت قربها وصادمتها واحتكت بها . وغلب في الجماعات المنحطة او الاولية او البربرية انها حافظت على نقاوة دمها ، لانها ، لانحطاطها ، لم تكن تفقه رابطة اجتماعية غيرها . الا ان هذه الجماعات كانت ، لنموها وبداءة مدنيتها تعجز عن معالجة هذا النمو بطريقة تحافظ على وحدة الجماعة وتضطر الى الانقسام عشائر وقبائل . فحيث اعتزلت الجماعات السلالية وانتحت ناحية من ارض فصلت العوامل الجيولجية بينها وبين غيرها ، كما يرجح ان يكون الواقع فيما يختص باستراليا واميركا ، [1] استطاعت الجماعات السلالية ان تتطور اجتماعيا على هذا النمط دون ان تتعرض تعرضاً خطراً للاصطدام او الاحتكاك بعضها ببعض بحيث يكثر المزيج الدموي وتفقد الجماعة وحدتها السلالية الدموية . اما حيث سهلت العوامل الجيولجية والجغرافية توالي الارتحالات والنزول في بقاع الارض الخصبة وتقارب الجماعات ، كما هو الحال فى آسيا

1 تايلر ص 16 ـ 18

واوربة ، فان الجماعات السلالية لم تلبث ان تلاصقت واحتكت بعضها ببعض وتمازجت بعامل الثبات في الارض والعكف عليها الذي هو اصل العمران وسبب المدنية ، بل هو الحال في افريقيا وارخبيل « بولنيسيا » بل وفي اميركا ايضاً . ففي افريقية نشرت قبائل البنطو لغتها فوق ثلثي طول افريقيا (40 ° عرضاً) ، في مدة قصيرة من الزمن [1] . قبائل المااليانيين البولنيسيين انتشرت فوق كل المساحة العظيمة المؤلفةمن 210 ° طولا و 80 ° عرضاً [2].

واذا بحثنا في عوامل الامتزاج وجدنا بينها عاملين بارزين هما الزواج الخارجي والحرب . والزواج الخارجي هو عادة تحريم تزاوج الجنسين في القبيلة الواحدة وجعله بين رجال قبيلة ونساء قبيلة اخرى . بل هو اكثر من عادة ، انه من شروط شرف الاخلاق [3] . فاذا دفعت عوامل المهاجرة قبائل من سلالتين او ثلاث في جهة واحدة حتى تلاصقت وتفاعلت ، اما بالحرب واما بتبادل المنتوجات والزواج الخارجي ، حصل الاختلاط الدموي وابتدأ نشوء الجماعة المطلقة مع الاقامة بالارض .

* * *

نستنتج مما تقدم من هذا الفصل انه اذا كان سياق نشوء البشر والسلائل البشرية قد جعل تكون الجماعة البشرية الاقتصادية يقوم على اساس الرابطة الدموية لانها الرابطة الاولى ، فان عوامل الحياة الانسانية ،التي قضت بانتشار البشر ، سعيا وراء الرزق او طلبا للنجاة من وجه الاعداء او اضطراراً لا ارادة فيه ، لم تلبث ان جعلت الجماعة البشرية تتكون بعاملي الاقتصاد والاجتماع على اساس الاختلاط الدموي الذي يدمج الجماعات الصغرى بعضها ببعض

---

1 . هرتس ، ص 7

2 . ايضا ص 78

3 . ايضا ص 79

ويولد منها جماعـة اكبر شرط ان تتوفر مقومات نشوء الجماعة الكبيرة كالاستقرار وصلاح البيئة واستتباب تهيؤها للتفاعل والتدامج . اما حيث لا تتوفر هذه المقومات فالحالة الابتدائية تسود ويظل الاجتماع قائمـاً على اساس الرابطة الدموية التي تقتصر على انواع من الحياة محدودة ولا امل لها بالارتقاء في مثل هــذا النظام . وعلى هــذا قبائل افريقية وآسية واميركا وجزائر المحيط الهادىء .

وبنـاء على ما تقدم نرى ان الاجتماع البشري يقسم الى نوعين رئيسيين : الاجتماع الابتدائي ورابطته الاقتصادية الاجتماعية هي رابطة الدم ، والاجتماع الراقي ورابطته الاقتصادية الاجتماعية مستمدة من حاجات الجماعـة الحيوية للارتقاء والتقدم بصرف النظر عن الدم ونوع السلالة . وفي الاجتماع الاول تقع الشعوب والقبائل التي هي في بداوة او بربرية وفي الاجتماع الثاني تقع الشعوب التي اخذت باسباب الحضارة وانشأت الثقافة .



الفصل الخامس

المجتمع وتطوره

المجتمع البدوي او المتوحش. رأينا في ختام الفصل السابق ان الاجتماع البشري يقسم الى شكلين رئيسيين: الاجتماع الابتدائي (Primitive) والاجتماع الراقي [1] والشكل الاول هو من خصائص السلالات الاولية والشعوب المنحطة المتبدية من السلالات الراقية. والشكل الثاني هو من خصائص السلالات التي انشأت المدنيات او اخذت بها. ومن هذه القسمة التصنيفية التي تقودنا اليها الملاحظة الدراسية، نرى ان النوع البشري يظهر، من الوجهة الاجتماعية، بمظهرين متباينين نوعا ومتميزين دائماً هما مظهر المجتمع المتوحش او البدوي ومظهر المجتمع العمراني او المتمدن.

والتوحش اوالبداوة احدى حالتين، اماحالة وقف التطور والجمود، وهي حالة السلالات الاولية المتوحشة. واما حالة التطور نحو الانحطاط ان بعامل انحطاط

---

1 سيجيء الكلام على مراتب التطور البشري في سياق هذا الفصل. وقد راينا ان نقتصر هنا على هذه القسمة لانها اوفى بغرضنا، الذي هو الاجتماع العمراني الراقي فاخرجنا ما دونه وجعلناه قسما واحدا، في حين ان التدقيق في امره يوجب قسمته بدوره الى قسمين متوحش وبربري فيكون الاجتماع، ثلاث مراتب: التوحش فالبربرية فالتمدن.

البيئة كما هو الراجح في بلاد العرب [1] وان بعامل الرجوع الى حالة معينة كالصيد ورعاية الماشية او نحو ذلك [2] . ومهما يكن من الامر فان الاستقرار على حالة التوحش والبداوة يخرج المجتمع المتوحش او البدوي من دائرة التطور بالمعنى الصحيح ويكاد يخرجه من نطاق هذا الفصل . ولكن رغبتنا فى جعل البحث اتم واوفى بالغرض يجعلنا نتناول حقائق هذا المجتمع قبل ان ننتقل الى المجتمع العمراني المتطـور الذي سيستغرق كل عنايتنا في سياق هـــذا الفصل والفصول التالية .

اذا كان المجتمع المتوحش او البدوي لا يتطور تطوراً بالمعنى الصحيح فلا شك في انه حالة من حالات التطور البشري الاجتماعي لها خصائصها التي يحسن بنا ان نفهمها.

خصائص المجتمع البدوي .لا بد لنا ، قبل الخوض في موضوع هذا الفصل ، من تقرير حقيقة ضرورية لفهم تركيب المجتمع والاحوال الاجتماعية على اطلاقها وفي اكثر اشكالها تعقداً ، هي حقيقة الضرورة الاقتصاديـــة للاجتماع البشري . فالرابطة الاقتصادية هي الرابطة الاجتماعية الاولى في حياة الانسان او الاساس المادي الذي يقيم الانسان عليه عمرانه فـلا نستطيع ان

---

1 سنعود الى الكلام على هذه النظرية باسهاب في بحث اصل الساميين ومهدهم في الكتاب الثاني من هذا المؤلف ونكتفي هنا بالاشارة الى النظرية التي يؤيدها كيتاني — كتابه المذكور ج. ١. — القائلة بان بلاد العرب كانت في الاعصر الجليدية ، او في العصر الجليدي الاخير اصلح الاقاليم المحيطة بها لاقامة الانسان . ثم تطورت طبيعة الارض بعد العصر الجليدي الاخير واخذت تربتها في الامحال ببطء متناه قضى على العمران الذي كان فيها — ايضا ج ١. ص 276 واضطر اقواما الى المهاجرة منها واقواما اخرى الى تعود حياة البداوة .

2 لا يعتقد ملر - لير - ص 85—88 - ان التطور كان دائما من حالة الصيد الى الرعاية الى الزراعة والحضارة . بل يعتقد بحوادث رجعة من هذا القبيل .

نتصور مجتمعا يقوم على غير اساس التعاون الاقتصادي لسد الحاجة مداورة تعويضاً عن نقص وجود المادة المحتاج اليها وقد اشرنا الى هذه الحقيقة في بداءة الفصل الثالث. ونزيد هنا ان كيفية تركب الانسان تجعل حياته تتوقف على سد حاجاته مداورة، اي بالعمل والواسطة، فهو دائماً مضطر لارضاء دافع الارتقاء والتعويض عما فقده من سرعة الجولان وقوة الوثب وتكون المخالب باعداد اداة الدفاع والصيد والمعزق. وهـذا يتطلب منه التعاون في الصناعة وفي السعي لمطاردة الفريسة والايقاع بها وفي الزراعة. ولابن خلدون بحث قيم في التعاون في مقدمته المشهورة. فالاقتصاد هو نقطة الابتداء في بحث حالات الاجتماع حتى اننا نرى الحالة الاقتصادية تؤثر على الحالة البيولجية احيانا [1]. والتطور الاجتماعي هو دائماً على نسبة التطور الاقتصادي.

يمكننا الان ان نتقدم بارتياح الى النظر في خصائص او مزايا المجتمع البدوي والمتوحش. واول ما نلاحظه في هذا المجتمع ان مستواه الاقتصادي لا يزال على درجة ابتدائية بحت فهو لا يعلو عن درجة سدحاجة الحياة مباشرة الا قليلاً. ومن مظاهر هذه الدرجة فقدان الصناعة او وقوفها عند حد صنع بعض الادوات الضرورية، خصوصاً الخشبية منها، كالاوتاد والركائز والعصي وجدل بعض الاعشاب والنباتات لسقوف وحيطان الاكواخ

---

1 راجع الفصل الرابع ص 47 . ولسنا نقصد بالضروة الاقتصادية ان الاقتصاد هو اساس اومرجع جميع المظاهر الاجتماعية، فلا نزعم ان الاقتصاد هو الدافع الى الحب والزواج والعناية بالبنين او انه الباعث على محبة الموسيقى ولكننا نزعم انه لا يكاد يعقد الزواج حتى يدخل العامل الاقتصادي اساسا لكيانه وبقائه وان محبة الموسيقى، من حيث هي مظهر اجتماعي، تبقى عقيمة او اولية بدون الاساس الاقتصادي ولا يمكن الفصل عمليا بين الحياة ومقوماتها .

(الجماعات الاولية) [1] ونسج الوبر والشعر للخيم وبعض اللباس (الجماعات المنحطة المتبدية) . واسباب عيش الجماعات التي على هـذه الدرجة تقتصر على الضروري ويندر ان تتعدى الى الحاجي فضلا عن الكمالي [2] . فكثير من الجماعات الاوليـة تطلب سد الحاجـة مباشرة او بمداورة قليلة . وحاجاتها تقف عند حد الحصول على البلغة ونقع الغلة ومدراً واق من العوارض الجوية وغدر الحيوانات المفترسة . وعلى ما يقارب هذا الجماعات المنحطة المتبدية . وهم مثل هذه الجماعات هو غالباً في الصيد وجمع القوت النباتي النابت من تلقاء نفسه (عمل النساء) وزرع بعض الحبوب على كيفية اولية رديئة . وفي شرقنا الادنى نرى العرب يسدون حاجاتهم المعاشية مباشرة او بمـا يشبه المباشرة كتناولهم لبن النوق والتقاطهم التمر . وتربية الجمال اهم شؤونهم الاقتصادية وترتقي حياتهم الى رعاية الماشية وتربية الخيل . وبيوتهم شعر ووبر وكذلك لباسهم. ويجمعون الى ذلك زراعة اولية يتولاها اهل المدر منهم .

واحوال هذا المجتمع ، او الجماعات ، الاجتماعية هي بحكم الضرورة متابعة لاحوالهم الاقتصاديـة ومطاوعة لهـا . فنظامهم الاجتماعي يقوم على الرابطة الدموية المنتهية بالقبيلة . والفرد في هذا النظام ككل فرد آخر بدون فرق او ميزة ، اي ان قيمته هي في الغالب عددية عامـة لا نوعية خاصة ، لان فقد العمران ونقص المطالب الحاجية والكمالية يبطلان المواهب الشخصية وينفيان المزايا الفردية . وكذلك نرى ان نظامهم يخلو من الحقوق الشخصية والملك الفردي واذا وجد شيء من ذلك فهو في صورة اولية غامضة . ومن درسنا احوال العرب الذين هم في جوارنا نرى ان الفرد لا يكون عندهم سوى وحدة

---

1 راجع ص 35 الحاشية عدد 4

2 قسم ابن خلدون في مقدمته — ص 120—122 — مراتب اسباب المعاش الى ثلاث : ضروري فحاجي فكمالي .

عددية في القبيلة سواء في ذلك اهل الوبر واهل المدر ،والانتساب الى احدى القبائل هو ضرورة [1] ومن هـذه الحقيقة ندرك اهمية الثأر الذي يعني حق القبيلة لا حق الفرد كما سيجيء ويرى فقدان الملك الشخصي عندهم في ان الفرد لا يمكنه الاعتماد على نفسه في الدفاع عن الممتلك وفي انه اذا فقد احد مقتنياته توجب على بقية افراد القبيلة ان يعطوا كل واحد من ماله ما يعوض على الرجل خسارته [2] .

ونوعا هذه الجماعات الاولي والبربري يشتركان في العادات الاجتماعية والاذواق بحكم مستويهم الاقتصاديين المتقاربين . فترى الضيافة التي تفرضها عليهم احوال معاشهم صفة عامـة عندهم على السواء وكذلك تعاملهم فيما بينهم ، وخصوصا معاملتهم المرأة [3] . وما يروى ، مثلا، عن كرم العرب وفروسيتهم والشعور بالشرف عندهم وضيافتهم، يروى مثله عن اهل بلاد النار (ترادلفويقو) وهنود اميركا والفيجيين والطنقوسيين [4] فهذه الصفات المشتركة تظهر بقوة في الشعوب التي لما تحركها الثقافة الزراعية التجارية وساعدتها احوال معاشها الضيقة على حصر قواها النفسية في بعض المظاهر المحدودة . ونرى اذواق هـذه الجماعات مشتركة حتى في الطعم . فهم ، لجوعهم ، يزدردون الطعام

---

1 كيتياني ج ١. ص 323

2 ايضا ص 97 . انظر ايضا بشان التملك تاريخ ادوارمابر ج ١. النصف الثاني فقرة 333

3 حمل الاثقال و تحميل الدواب وجمع الغذاء النباتي هو عمل المراة عند البدو و الجماعات الاولية راجع ايضا ملر - لير ص 72 - وقد ذكر كيتياني ج ١. ص 335- ان النساء هن اللواتي يقمن عند السحر بتقويض الخيام وبجمع المواعين والادوات وحزمها وبتحميل الجمال . غير ذلك من الاعمال الشاقة بينما الرجال يجتمعون حول المواقد يصطلون من شدة البرد .

4 راجع هرتس . انظر ايضا فيركنط ٨٧٧ ص 2

بطريقة لا تسمح بالتلذذ به على حد الجماعات الراقية ، حتى ان بعض العلماء يذهب الى جعل درجة لذة الطعم في عداد الفوارق بين الاقوام الاولية والشعوب الراقية . وجميع هذه الجماعات او المجاميع لا تعرف توزيع العمل الذي هو من خصائص المجاميع المتمدنة [1] . ومهما ارتقت اجتماعية هذه الجماعات فهي لا تبلغ الى هذه الدرجة العالية الممثلة ، في المجتمعات المتمدنة ، بالجمعيات وسائر المؤسسات التي تمثل بدورها الاعمال الذاتية والافكار الحرة الصادرة عن الافراد الذين يؤلفون المجموع المتمدن ، وتمثل .فوق ذلك ، النفسية الفاعلة في المجموع ونوع روحيته الاجتماعية . وبالايجاز نقول ان اغراض الجماعات الاولية المتوحشة والجماعات البربرية المنحطة او المتأخرة محدودة جداً بالنسبة الى اسباب سد الحاجة المعاشية مباشرة او مداورة الى مدى محدود . وفي حين ان افعال مؤلفي هذه الجماعات الاجتماعية محدودة نرى انها لا تتناول مطلقاً الافعال السياسية او ، على الاقل ، الافعال السياسية النظامية . وهذا ، من الوجهة العامة وبالاختصار ، هو المستوى الاجتماعي الذي وقفت عنده الجماعات الاولية والجماعات المنحطة او المتبدية او المتأخرة من السلالات الراقية العمرانية . وسنرى لمحة اخرى من هذا المجتمع في الفصل التالي .

المجتمع السابق العمران وتطوره . لا مشاحة في ان المجتمع العمراني ، او مجتمع السلالات العمرانية الاسيورية (الاسيوية الاروبية) ، لم ينشأ منذ البدء مع اول نشوء هذه السلالات الراقية ، بل نشأ مع تطور جماعات هذه السلالات وحين بلوغها الدرجة العمرانية التي هي درجة الزراعة والاقامة في الارض. ويحسن بنا هنا ان نمهد لدرس تطور المجتمع العمراني خاصة باستعراض التطور البشري الاجتماعي العام منذ البدء الذي امكن العلوم الاجتماعية ، او التي تدرس حياة الانسان ومنشأه ، وخصائصه ، استقصاؤه .

---

1 ان تعاون الرجل والمرأة على الحياة واتخاذ كل منها ناحية لا يمكن اعتباره « توزيع عمل » الا بصورة اولية بحت .

التطور الثقافي السابق التاريخ . ولا بد لنا ، لجعل هذا الاستعراض تاما او غير مبتور ، من الابتداء مع نشوء الانسان . اذ ما المجتمع الانساني العصري المتمدن الا نتيجة او حاصل الثقافات المتوالية على الانسان التي ولدها التفاعل المستمر بين الانسان وبيئته.

ولقد مر معنا في الفصل الثالث [1] ان الانسان هو الوحيد من بين جميع الكائنات الحية الذي امكنه ايجاد علاقة تفاعلية مع الطبيعة ، وخصوصاً مع بيئته . وما ذلك الا باجابته على مطالب البيئة بنمو الجهاز الذي اعطاه ان يعقل الطبيعة : الدماغ ان عقل بعض الاشياء المحيطة مما قد توصل اليه بعض القرود العليا . فالشبنزي ، مثلاً ، يعرف كيف يستخدم اغصان الشجر لبناء بيوت له ليست اسمج مما تبنيه القبائل المتوحشة [2] ولكن عقل الطبيعة او العقل المطلق الذي سمي به الانسان الحقيقي ال « Homo Sapiens » هو الشرط الذي لا بد من تحقيقه ليصبح التفاعل ممكناً وهو الشرط الذي تحقق في الانسان العاقل وبتحققه اخذت الصلات التفاعلية تتوثق بين الانسان والطبيعة عن طريق البيئة اولاً .

ومما لا شك فيه عند العلماء انه قد سبق عصر ال Homo Sapiens عصر ال Homo Primigenius المطلق على ال Homo Neandertalensis وسبق هذا ال Homo Heidelbergensis وقبل هذا كان ال Anthropus وهذه الاسماء تعني لعلماء الانسان اشكالا مخصوصة تدل على اطوار ليس من شأن موضوعنا الدخول فيها ولذلك فضلنا ان نسمي عصر ال Homo Sapiens عصر التفاعل وما قبله عصر الاحتكاك

ويظهر ان الاحتكاك ابتدأ من الدرجة التي نجد الشبنزي عليها اليوم ، اي من درجة عقل بعض الاشياء المحيطة واستخدامها . وقد لا تكون هذه الاشياء الاغصان المتخذة لبناء العرازيل ، كما يفعل الشبنزي ، اذ يرجح ان النوع القردي المجهز بالاستعداد للتطور نحو الانسانية لم يكن يقطن الغابات التي لا تساعد

1 ص 40

2 ملر - لير ص 54

على تولد الخصائص الانسانية كتحرير الذراعين والمشي على القدمين. ويظهر ان الاحتكاك ارتقى الى تناول النار واستعمالها لاغراض متعددة [1]. وان فجر الانسانية مقرون بفجر الثقافة الانسانية وهو ما يسمى عند علماء الانسان بالزمن الايوليثي، اي زمن الاثافي التي لم يمكن الجزم في هل اشكالها وكسورها من صنع الانسان ام من الطبيعة [2]. فاستعمال النار هو الخطوة الفاصلة التي عينت للانسان السابق اتجاهه.

واهمية النار العظيمة لحياة الانسان وارتقائه هي في كونها عاملا اقتصاديا كبير النتيجة حتى في ذلك العهد السحيق. فلا بد انها خدمت الانسان السابق في صد السباع المفترسة عنه وفي الانارة له ليلا وفي تدفئته وشي لحم فرائسه فجذبته الى حرارتها وضوئها واوجدت لذة في تجمع قطعانه حولها، وهي لذة مصحوبة بالاطمئنان. واللذة والاطمئنان وتوفير الجهد والنصب هي الضرورات التي يؤدي حصولها الى تولد الاحساسات النفسية الفردية والاجتماعية حيثما كان ذلك ممكنا في الكائنات العليا. ولعل هذا الاطمئنان قرب النار هو السبب في تحويل علاقة الذكر والانثى من عمل بيولجي بحت يقتصر على فصل اللقاح الى حالة اجتماعية لها خصائصها النفسية.

ولاشك في ان النار قوت الرابطة الاجتماعية في الانسان السابق ومهدت له كثيراً اظهار استعداده للارتقاء فساعدت كثيراً على نشوء النطق الذي يعده لتزرس قيقر [3] ابا العقل. ومهما يكن من امر تقديرنا نشوء النطق فلا

---

1 لانوافق مدرسة، منها ملرلير— انظر كتابه ص 56 - تقول ان النار دخلت في حياة الانسان بعد ان كان سار اشواطا في الثقافة. فنحن نرى ان النار ضرورة سابقة للنطق ونجد تأييد ذلك في ادلة علم الانسان

2 وينرت Menschen ص 18—19

3 ذكره ملر لير ص 50. ويصعب ان يكون مذهب قيقر صوابا. ولكن النطق كان ملازما لارتقاء العقل

بد لنا من التسليم بان النطق وحده كفل تحويل الاكتشافات والاختبارات التطورية الاولية الى معارف اجتماعية وراثية (اجتماعياً) . اعدت النار الانسان السابق لدخول العصر الحجري [1] الذي هو بدء الانسان الذي ولى الحيوان ظهره وبدء الثقافة الانسانية . ومنذ تلك العصور المتطاولة في القدم لم تفارق النار الانسان ولا قطع الانسان صلته بها .

كان الانسان السابق صياداً قبل كل شيء وكان اهم طعامه لحم طرائده ويحتمل انه كان يقتات ايضاً ببعض الاعشاب والثمار . وهذا كان الانسان الهيدلبرغي المنبثق من الحيوانية العجماء . ولا بد ان الانسان الآخذ في التقدم بفضل النار واستعداده الخاص أخذ يتنبه للاشياء المحيطة به التي اكثر من تلمسها واخذها بيده — الى الاحجار التي قد يكون استعملها عن غير عمد . وبفضل تطور دماغه أخذ يشعر بعلاقة اشياء باشياء في حاجاته وقد يكون قاده ذلك ، كما هو الارجح ، الى حمـــل مشعل بيده وحمل حجر او هراوة باليد الاخرى . ولكنه كان الى الحجر احوج ، لانه كان يستعين به على شق

---

1 يحسن بنا ، من اجل حفظ النسق العلمي في تتبع الثقافة الانسانية ، ان نحفظ الاعصر الثقافية التي رتبها علم الانسان وعلم طبقات الارض . والذي عليه اهل هذا العلم ان تاريخ الارتقاء البشري غير المكتوب يقسم الى قسمين عامين هما : العصر الحجري والعصر المعدني . وكل من هذين العصرين ينطوي على اجزائه الخاصة ، فنرى ان العصر الحجري يشتمل على ثلاثة اجزاء هي : العصر الحجري القديم او السابق (البليوليثي) والعصر الحجري المتوسط او اللاحق (المزليثي) الذي كثيرا ما يعرف بانه حقبة ختامية للعصر الحجري القديم ويسمونه « الايبليوليثي » (Epipaleolithicum) والعصر الحجري الجديد او المتاخر (النيوليثي) . ثم يدخل العصر المعدني مبتدئا بالحقبة النحاسية او باسقاط هذه والابتداء بالحقبة الشبهية (البرنز) التي حل محلها اخيرا الحقبة الحديدية التي لا نزال فيها. والعصر الحجري القديم هو اطول هذه العصور وهو المعقول بالنسبة الى حالة الانسان واحوال زمانه ، الزمان الجليدي . ويقسم احيانا هذا العصر بدوره الى ثلاثة اقسام : قديم ومتوسط وحديث ، يستغرق الاول ما بين اوائل الايوليثي واواخر الشلي (Chélles) ويشمل الثاني الاشولي (St. Acheul) والمستيري (Le Moustier) ويحيط الثالث بالاورنياكي (Aurignac) والصلترائي (Solutré) والجدلاني (La Madeleine) وهذه النعوت التصنيفية منسوبة الى الاماكن التي اكتشفت فيها عظام اصحاب البقايا الثقافية المكتشفة معهم او لوقتهم وهي اماكن فرنسية (راجع وينرت ، كتابه المذكور اخيرا ص 17 – 18 خصوصا)

الحيوان وسلخه وتقطيعه بعد قتله . فاضطره ذلك الى العناية بالحجر فاتخذ منه ادواته . ومن صناعته هذه الادوات نستطيع ان نتتبع ثقافة الانسان منذ ابتدائها . والحقيقة التي نستخرجها من درسنا ادوات الانسان السابق الحجرية هي ان هذه الادوات استغرقت كل عناية الانسان ومجهوده العقليين . وهو بديهي من ذكرنا ما مر معنا [1] من ان حياة كل كائن حي تجري ضمن المثلث: الجسم ـ النفس ـ المحيط ، وان حفظ الحياة الفردية ،مضافا الى حفظ النوع، وان حفظ الاجتماع مضافا الى حياتي الفرد والنوع، تقتضي جميعها تأمين حصول الغذاء الموجود في الطبيعة بتأمين وسائل الحصول عليه . ولا يمكننا ان نتصور حياة فردية او اجتماعية بدون غذاء . ولذلك قلنا ان رابطة الانسان الاجتماعية الاولى هي الرابطة الاقتصادية .

وظل الانسان السابق يرتقي في هذا الزمان الاحتكاكي ترافقه النار ويظهر مهارته الفطرية في تقطيع الاحجار وتحسين اشكالها وشحذ حافاتها لتفي بغرضه، ولم يكن له حينذاك من عمل « انساني » غير هذا العمل . وظلت صناعة الاحجار ثقافته الوحيدة طول الحقب المبتدئة من الحقبة الشلية الدنيا الى الشلية العليا الى الاشولية ، التي خلف فيها الانسان النيندرتالي الانسان الهيدلبرغي، الى المسترية الدنيا الى المسترية العليا التي هي نهاية الانسان النيندرتالي، او على الارجح الشكل النيندرتالي Homo Neandertalensis primigenins . وهذه الحقب تعادل نحو 250000 سنة من الزمان الجليدي [2] . وعند هذا الحد ينتهي القسمان الاولان من العصر الحجري السابق وبنهايتها تتم مدة الاحتكاك ليس لنا من ادلة اجتماعية انسان هذا العصر الاحتكاكي ونفسيته سوى

---

1 ص 50

2 هذا وفاقا لنظرية تقول بابتداء الانسان وثقافته مع نهاية عصر « قنتز » الجليدي او بدء عصر «مندل» اما حسب نظرية اخرى تقول بالابتداء مع عصر « رس » فتكون المدة نحو 150000 سنة ـ انظر وينرت حيث كتابه المذكور اخيرا ص 13 و 23 ـ والاسماء المذكورة هي اسماء انهر سويسرانية تسمى بها الاعصر الجليدية الثلاثة

آثار مواقده وبقاياه العظمية وأدواته الحجرية وكلها تدل على حالة الخروج من الحيوانية وبدء الادراك وانحصار الاعمال الانسانية في الاشتغال بادوات الفتك. ولا شك في ان نفسيته كانت لا تزال في بداءة وعيها. اما اجتماعيته فلم تكن نوعية مطلقة، اذ ان تنقيبات قريانفتش - كرامبرقر 1899 - 1905 (Gorjanovic · Kramberger) [1] في كرابينا من اعمال كرواطية دلت على ان الانسان النيندر تالي كان يأكل نوعه. وحالة معيشته كانت على درجة سد الحاجة مباشرة.

يدخل القسم الحديث من العصر الحجري السابق فنجد الانسان قد حقق ارتقاء جديداً في شكله وثقافته اكسبه اسم الانسان العاقل Homo Sapiens. وبدخول هذا القسم يبتدي، عصر التفاعل. فالانسان يظهر منذ بداءة هذا العصر انه ابتدأ يدرك طبائع المواد المحيطة به. فهو قد حسن ادواته الحجرية تحسيناً كبيراً واخترع ادوات جديدة من العظم ونوع الجميع لمختلف الاغراض. وقد فسح له هذا الارتقاء الاقتصادي المجال لبروز الحاجات النفسية مع الادراك فاخذ الانسان ينقش في الطبيعة ويحفر في كهوفه، على الحيطان، وعلى الادوات العاجية والعظمية رسوما جميلة تدل على سلامة ذوق، وقام بقسط كبير من صناعة النصب. ومع ذلك فاننا لا نجد تغيراً خطيراً في وسائل سد الحاجة. فالانسان لا يزال صياداً وان كان قد حسن عدة الصيد باختراع القوس والسنان للرماية. وقد يكون اضاف الى صيد حيوان البر صيد حيوان البحر. ولا نرى اي تطور خطير في ثقافة اوائل العصر الحجري اللاحق، ولكننا نلاحظ ان هنالك بداءة جديدة لاشكال الانسان العاقل تجعلنا نسميه «الانسان العاقل الحديث» Homo Sapiens recens تمييزاً له عن انسان العصر الحجري السابق: الانسان العاقل المتحجر Homo sapiens fossilis ونرى ان الصناعة الصغرى ارتقت. ويعرف هذا الطور عند العلماء بالطور الازيلي، نسبة الى Mas d'azil. ولكن لا يكاد هذا الطور ينتهي ويبتديء الطور الثاني الكمبيني،

---

1 ايضاً ص 58

حتى نلاحظ ظاهرة جديدة خطيرة هي ظاهرة تدجين الحيوان باقتناء الكلب ونلاحظ ايضاً ان الادوات الحجرية تتخذ وجهة اغراض جديدة ، فنجد بعضها خشناً قاسيا — ولعله لغرض العزق او الحفر في الارض — ونجد بينها الفأس الحجرية واذا بنا في مدخل العصر الحجري المتأخر المتصل بعصرنا الحالي في بعض السلالات الابتدائية .

في مجرى هذين العصرين الحجريين اللاحق والمتأخر تم نطق الانسان وارتقى الى مرتبة لغة وارتقت احوال معاشه بتدجين الحيوان والتنبه لطبائع المادة ولكنها ظلت على مستوى سد الحاجة مباشرة ، الاخذ مما تقدمه الارض من حيوان ونبات بري، وفوقها قليلا اذ نرى ابتداء النسيج وصناعة الخزف. والرابطة الاجتماعية هي الرابطة الدموية ، رابطة القبيلة .

وهذان العصران ،بالنسبة الى العصر الحجري السابق ، قصيران . ونعلم ان زمانها كان يختلف باختلاف البقاع والاقاليم، كاختلاف مراتب العصر الحجري السابق ، على الارجح . ومما لا شك فيه انه بينما كانت اوربة في ابان العصر الحجري المتأخر كان بعض مناطقها الشمالية (سكنديناقية) لا يزال في بدء هذا العصر ، اذا بالعصر المعدني ينبثق في سورية - (بلاد الكلدان - بابل وارض كنعان) - وفي مصر .

حتى العصر المعدني كانت الثقافة البشرية عامة تناولت النوع الانساني بكامله . فجميع البشر كانوا صيادين وصانعي ادوات حجرية وجامعي القوت النباتي مما تقدمه الارض الكريمة . ولكن لما حصل الاتجاه الزراعي في العصر الحجري المتأخر القصير الامد ظهر عامل جديد في ترقية حياة البشر لم تشترك فيه جميع سلالاته او شعوبه . ومع الزراعة والاشتغال بالمعادن يرتقي عصر التفاعل الى ما نسميه التفاعل العمراني او الثقافة العمرانية.

الثقافة الاولية والثقافة العمرانية . تقتصر الثقافة الاولية على 1 . اقامة النسل و 2 . السعي وراء الرزق بالمعنى الحرفي . امران ينتج عنهما نظام اجتماعي

اولي محدود ، كما رأينا في خصائص المجتمع البدوي ، بل دون ما ذكرناه هناك . اما الثقافة العمرانية فتقوم على 1- اقامة النسل . 2- تحصيل الرزق واستدرارموارده. 3- التنظيم الاجتماعي الاقتصادي. ثلاثة امور تتوج بالحياة العقلية المشتملة على المنطق والاخلاق وسلامة الذوق . وهي هذه الحياة ، التي ابتدأها بعض الشعوب السامية ووضع السوريون اساسها الراسخ ، ما يعطي المجتمع المتمدن قيمته ومزاياه والمدنية الحديثة ابرز صفاتها واثمن كنوزها.

ومع ان الزراعة هي اساس الثقافة العمرانية فالزراعة ليست نوعا واحداً ، بل انواعا . والثقافة العمرانية المؤسسة عليها هي مراتب :

1 ثقافة المعزق (Hoe) = زراعة المعزق

2 ⎰ ا. ثقافة المحراث = زراعة المحراث
  ⎱ ب . ثقافة البستان = زراعة البستان

3 ثقافة الانتاج التجاري = زراعـــة المحاصيل وانشاء الصناعات واعداد الحاجيات والكماليات .

والمرتبتان الاوليان هما افراديتان وعائليتان ترميان في الدرجة الاولى، اوهما منتهيان الى كفاية الفرد او العائلة ولكنها تستدعيان اهتمام الفرد او العائلة الدائم. وزراعة المرتبة الاولى اولية تقتصر على قلب سطح الارض بمعزق بشكل عصا محددة وتغيير مكان الزرع كل مرة . وهي لا تعطي الا الضروري . ولا تسمح في ارقى درجاتها والانصراف اليها او التعويل عليها بعمران وكثافـة سكان مدنية . وقد تبلغ الكثافة حداً يسترعي الاهتمام ولكنها تكون كثافة متقطعة متفرقة لها مراكز تفصل بينها قطع واسعة من الارض المقفرة . ففي السودان تقتصر الزراعة على التربة التي هي من الرخاوة بحيث يكفي قلبها بعصا الزراعة لطمر الحبة . فتقتضي القرية الواحـــدة ثلاثة اضعاف المساحة التي تزرعهـا في المرة الواحـدة لان افقار التربة المتروكة بدون سماد يدعو الى طلب التعويض بالمساحة [1].

---

1 دلابلاش ص 7 - 58

والمرتبة الثانية هي التي بلغتها الشعوب السامية منذ اقدم عصورها المعروفة وهي المرتبة التي تحاول سورية الان الخروج منها الى المرتبة الثالثة ، وهي اساس هذه المرتبة الاخيرة . واهم الاطوار التي مر بها القسم ا . من هذه الثقافة هي:[1]

ا) الحراثة بالحرق وهي الزراعية الكلائية الناتجة عن المجهود الاول لانقاذ التربة من الحرجات البكر . ولا يستعمل في هذه الزراعة سماد سوى رماد الاشجار المحروقة اوسماد البقر التي ترعى في المكان عينه . واكثر تقدما من هذا الطور طريقة

ب) نظام الحقل حيث تقدم الارض الصالحة للزراعة غالبا الى ثلاثة حقول ، حقل يبقى بوراً ويزرع الثاني حبوبا صيفية والثالث حبوبا شتوية. وشبيه بهذا

ج) زراعة المرج اذ تختلف الى الارض بضع سنوات من العشب وبضع سنوات من زراعة الحب [2] ، وارقى من هذه جميعها :

د) زراعة الدورة التامة ، وهي تتطلب تصنيف النبات الى ما يزيد في ثروة التربة وقوتها كالتبغ وغيره . والى ما يفقرها ويستنفذ قوتها كالحبوب والنباتات الزيتية فتتوالى زراعة هذين الصنفين في دورة تامة على الارض وهذه الدورة الزراعية التامة تتطلب العناية بها زيادة في العمل والرسمال والتحسين الزراعي للارض .

والقسم ب . من هذه المرتبة ، ثقافة البستان (او هي ثقافة المر) ، يشتمل على ارقى انواع الزراعة والعناية بالتربة على الاطلاق . وفي مقدور هذه الزراعة ان تقوم بأود مجتمع كثيف السكان، كما هي الحال في الصين [3] .وج. ا. سمعان [4] يبرز لنا صورة من هذه الثقافة. والصورة من قرية ونغ ـمو ـ

---

1 نقلا عن ملرلير ص 77

2 هذه الطريقة هي الاكثر شيوعا في اراضينا الزراعية

3 في مقاطعة الانهر الاربعة (شخوان اوششوان) يبلغ معدل السكان في سهل شنتو 300—350 للكيلومتر المربع ـ دلابلاش ص 94 ـ

4 G. E. Simon, La Cité Chinoise ذكره ملرلير ص 78

في الصينية . عدد سكانها 10,000 يعيشون على 3,000 فدان (أكر) . ويسكن في كل منزل من منازلها عائلة اتحادية لا تقتصر على الاباء وابنائهم بل تتناول الجدود والاباء والابناء والاحفاد مجتمعين والملك او البستان مشترك بينهم . فالعائلة الاتحادية من هذا النوع المؤلفة من نحو اثني عشر شخصاً تجد في قطعة من بستان لا تزيد على خمسة فدادين (أكر) من الثمار الوافية بمطالب العيش مقومات كافية . وهذا الانتاج الكبير عائد الى حسن الري والتسميد والعمل .

اذا امعنا النظر في كل مرتبة من المراتب المتقدمة وجدنا ان الاولى منها ابتدائية جداً في العمران فهي لا تدخل في نطاق الثقافة العمرانية الا من حيث انها طور تمهيدي لها والصحيح ان اهل هذه الثقافة يدخلون في المجتمع البدوي الذي وصفناه آنفا . فاذا كان لهم حياة عقلية فهي محدودة جداً . وهم خارج نطاق شعوب آسية واوربة المتمدنة . فبين الشعوب التي لها المام وقسط من هذه الزراعة بعض هنود اميركا الشمالية كالموهكان والاركوى والبنكا والمندان وغيرهم ، وبعض هنود اميركا الجنوبية ايضاً كالبكايري والقواراني في البرازيل .وهم يمارسون الى جانبها الصيد . وسكان جزائر المحيط الهادي وجزائر المحيط الهندي يمارسون هذه الزراعة مع صيد السمك وزراعو افريقيا الذين لا يدخلون في عداد الصيادين والرعاة تقوم حياتهم على هذه الزراعة فقط كقبائل زمبازي ومكلاكه ونيام ـ نيام وغيرها [1] . والسبب في بقاء هذه المرتبة خارج نطاق العمران نسبة العمل الى مقدار الحاصل الغذائي . فالاقتصاد لا يعني حقيقة سوى سد الحاجة او تأمين سدها باقل مجهود واسرع واكبر نتيجة ممكنين . وهذا النوع من الزراعة لا يوفر مجهوداً يستحق الذكر فحاصله قليل واهله مضطرون الى الاهتمام دائماً بالضروري من اسباب العيش .

---

1 ملر ـ لير ص 73—74

لا نرى للعقل منفذاً الى الحياة الفكرية والعلمية الا مع المرتبة الثانية ففي هذه المرتبة نجد الزراعة المعروفة في نطاق المدنية الاسيورية . وهي الزراعة الحضرية بمعناها الصحيح . ومع ان نطاقها بالاكثر فردي او عائلي ، بحيث يقصد منها تموين العائلة وبيع ما يفيض عن المؤونة لشراء الحاجيات بثمنه، فهي تعلو كثيراً عن الزراعة المعزقية بانها افضل لغرض الخزن . والخزن والهري فارق اساسي للزراعة بمعناها العمراني عن الزراعة الاولية . «الزراعة كانت اسلوب العيش الوحيد الذي مكن الناس منذ البدء ، من ان يحيوا معاً في مكان معين وان يحشدوا فيه مقومات الحياة . » هكذا يقول دلابلاش [1] ويزيد « ليس زارعاً الذي يحرق العشب وينثر مكانه بضع حفنات من البذور، ثم يرحل عن المكان ، بل الذي يحصد الغلال ويخزنها هو الزارع » .

ومع ان المرجح ان القسم «ب» من المرتبة الثانية ناشيء عن الزراعة الاولى. فيجب حساب هذا النوع في هذه المرتبة. وهو نوع راق رفع سد الحاجة الى درجة غنية بالغذاء او الحاجيات البيتية .

فان خيرات الارض تستدر للعائلة الى آخر مواردها فالتسميد في هذه الزراعة يبلغ شأواً بعيداً والري في حالة بالغة من الكفاءة والارض تعطي بخصب . ولكن هذا النوع كالذي قبله ، يقتضي انصباب افراد العائلة على العناية بالارض والصناعة البيتية . وهذه الزراعة بيتية قبل كل شيء وبعد كل شيء ولا يمكن ان تتقدم اكثر من هذا المدى وهذان النوعان زراعة المحراث وزراعة البستان، قد حررا العقل الى درجة ما واوجبا ارتقاء في توزيع العمل ولكنهما لم يفسحا للعقل وللتنظيم العملي كل المجال الذي يسمح لهما بالتقدم .

تأتي اخيراً المرتبة الثالثة ، التي اطلقنا عليها اسم ثقافة الانتاج التجاري ، وهي الثقافة القائمة على زراعة المحاصيل الكبيرة وانشاء الصناعات الكبرى .

---

1 ص 56 من كتابه

وهذه هي مرتبة التمدن الحديث التي اخرجتها من المرتبة الثانيـة التجارة التي ولدت الاساس النقدي والرسمالي وحولت عملية المبادلة الاولية ، الى تجارة انترنسيونية واكسبت الحاجة الى الآلة المحققة الاغراض معنى اقتصاديا عاليا وجعلت الالة من أهم عوامل ترقية هذه الثقافة . ترقت الزراعة كثيراً في هذه المرتبة فازدادت العناية بالاسمدة حتى انتهت الى الاسمدة الكيموية وامتد الرسمال وحب التجارة والكسب الى اراض جديدة ، ولو كانت بعيدة. لاستخراج المحاصيل والمواد الاولية لتلبية الطلب الحاجي واخيرا الكمالي . وكان من وراء اتساع نطاق هذه الزراعة وتحسينها ان حاصلها كثر الى درجة صار عندها قسم كبير من اهل هذه الثقافة محرراً من الحاجة الى زرع وحصد قوته بنفسه واصبح في امكانه الاهتمام بالشؤون الثقافية الاخرى والانصراف اليهـا فنشأ عن ذلك التخصص الراقي الذي هو ابرز ميزة في حيـاة المجتمع المتمدن الاجتماعية وارقى مرتبة في مراتب الاقتصاد الاجتماعي وافعل اسلوب للحصول على اكبر نتيجة من مبدأ التعاون .

تطور الثقافة العمرانية • الحقيقة ان الاطوار الزراعية التي وصفناها آنفاً لا تعني شيئا ثقافياً الا متى نظرنا الى العمل المبذول فيها ومقداره وكيفية تنظيمه وما يتبع ذلك من الاحوال الاجتماعية . اي انه لا يمكننا ان ندرس الثقافة ومراتبها ونتتبع تطورها الا في سياق التفاعل ، اي في تتبع اعمال الانسان على مسرح الطبيعة . والمقياس الذي نقيس به قيمة اية مرتبة ثقافية هو نسبة ما بين حصول اسباب العيش والعمل المبذول في هذا السبيل ، لان كل تطور في الحياة الاجتماعية وانظمة الاجتماع لا يمكن ان يحدث الا ضمن نطاق هذه العلاقة . فالنظام الاجتماعي هو دائما حاصل تفاعل الانسان والطبيعة او البيئة بطريقة معينة او منبعث منه وموافق له . ونحن نتتبع تطور الثقافة العمرانية بتتبع تنظيم الانسان مجتمعه بناء على هذا التفاعل . فكما ان التطور الانساني، نشوءا وارتقاء ، كان وفاقا لمقتضيات تطورات الطبيعة والبيئة ، اي انه تطور

محتم بالاختيار الطبيعي لا مفضل بالاختيار العقلي، كذلك التطور الاجتماعي، نشوءاً وارتقـاء هو وفاق لتطور التفاعل بين الانسان والبيئة بدافع الحاجة المادية . فاذا كان العقل نتيجـة تطورات الدماغ الفيزيائية فالعقلية الاجتماعية نتيجة تطورات التفاعل المادي لتأمين الحياة الاجتماعية .

يستنتج مما تقدم انه اذا كانت الرابطة الاقتصادية اساس الرابطة الاجتماعية البشرية فالعمل ونظامه التعاوني مصدر نظام الاجتماع واساس بناء المجتمع . وانا لنرى التعاون على نوعين : بسيط ومركب . فالبسيط هو التعاون على ما فيه مجهود من نوع واحد كرفع الاثقال وتحريكها والسعي في طلب طريدة (في حالة الانسان الصياد) وما شاكل . والمركب هو ما كان في المشاريـع البنائية وفي تنوع حاجات المجتمع واغراضه العمرانيـة . والعمل يجري على احدها واحيانا يجمع بينهما .

ذكرنا في بداءة هذا الفصل اهم المزايا التي تفرق المجتمع الذي هو دون مرتبة التمدن عن المجتمع المتمدن ومنه نرى ان النظام الاجتماعي ابتدأ من مرتبة الشيوعية في نظام العشيرة الدموي حيث الارض التي تحتلها العشيرة وتربتها مشاع للعشيرة كلها بدون تمييز وحيث العائلة جزء من العشيرة بالمعنى الاقتصادي ، اي ان العائلة ليست كياناً قائماً باوده فهي تعيش معتمدة على مورد العشيرة العام . شيوعية العمل والغذاء والارض الممثلة في وحدة العشيرة وقسمة العمل بين الجنسين الممثل في وحـدة العائلة ، هذا هو كل النظام الاجتماعي السابق الذي يكاد يكون الان بائداً . ثم ارتقى من هذه المرتبة نظام آخر اضافي الى ما تقدم هو نظام المبادلة في المنتوجات بين العشائر المتجاورة. وهو ما يسمونه الاقتسام الخارجي للعمل . ولهـذه المبادلة طرق خبر منها السوريون الكنعانيون (الفينيقيون) بناة قرطاضه ، الطريقة المعروفة بالمبادلة الصامتة . فكانوا في اقدامهم التجاري في افريقية الغربية « يفرغون البضاعة على الشاطيء ويرتبونها ثم يعودون الى مراكبهم ويصعدون دخاناً كثيفاً فيراه قاطنو ذلك المكان ويأتون الى الشاطيء ، ويضعون ذهباً بدلاً للبضاعة

ثم ينسحبون الى بعـد عن البضاعة . فينزل القرطاضيون الى البر ثانية ويفحصون كميـة الذهب حتى اذا وجدوها كافية للتعويض عن البضاعة حملوها واقلعوا والا فانهم يعودون الى مراكبهم وينتظرون فيعود اولئك القوم الى وضع كمية اخرى من الذهب . وهـكذا الى ان يرضى اصحاب البضاعة. ولم يكن احد الفريقين يلحق بالاخر اجحافا فلا الفينيقيون يمسون الذهب قبل ان يصبح مكافئاً لقيمة البضاعة ولا اهل تلك الارض يمسون البضاعة قبل ان يكون الفريق الاول اخذ الذهب » [1] . وهذا التبادل بين جماعتين ، تبادل كل واحدة بما عندها ، هو اشبه شيء بتوزيع العمل فيما بين الجماعات. وافضل امثلة هذا النوع من الرباط الاجتماعي الاولي وارقاها هو في قبائل افريقية حيث تشابه كل قبيلة «القيلد» او النقابة وتحمل اسم صناعتها كقبيلة الحدادين وقبيلة صيادي السمك الخ [2] . فقد تطورت المبادلة هنا الى تجارة منظمة بين القبائل .

ويوجد غير هذه الطريقة طريقة التجول خارج القبيلة ولما كان هذا العمل خطراً على المتجول استحدث لازالة الخطر نظام الضيافة . فينزل البائع ضيفاً على رجل وبعد اقامته يعرض على مضيفه قبل رحيله بعض ما يحمل ويسأل ما يريد مقابله . او هو يعرض بضاعته في حمى مضيفه ويقبل المبادلة . ونوع آخر هو انشاء اسواق في اماكن محايدة . وكان لهنود اميركا الشمالية سوق كبيرة على المسيسبي « في هذا المكان كانوا يجتمعون من كل ناحية وتنفذ فيهم هدنة تامة بين القبائل المتعادية [3] » (الشهر الحرام) .

ومع اننا نرى في هذا الطور الثقافي الاولي ان بنية الاجتماع هي في العشيرة وشيوعية العقار والانتاج فيها وان العائلة ليست الا وحدة جزئية متلاشية في

---

1 نقله عن هيردوتس ملر - لير ص 159

2 ملر - لير ص 167

3 ايضا ص 162 نقلا عن شرادر . انظر ايضا يوسف كولر A R ص 31

العشيرة فلا بد لنا من الاقرار بان العائلة نظام اقتصادي قبل كل شيء[1] قائم على قاعدة توزيع العمل الذي ابتدأ في الاصل بين الجنسين . فكان على الرجل، في عهد الانسان الصياد ومرتبته الحالية ، ان يقوم بالاعمال التي تتطلب الخفة والسرعة والمضاء وهو من متعلقات احضار الغذاء الحيواني، وكان على المرأة ان تقوم بكل نصيب الاعمال التي تقتضي الجهد والصبر والمعالجة ، كجمع القوت النباتي البري وبناء الاكواخ للصيف وللشتاء وحفظ النار موقدة وحمل الاثقال ، فضلا عن الاطفال ، اثناء الرحلة . وهي تدبغ الجلود وتصنع منها الاردية والاحذية وما شاكل . ولولا هذا النظام التعاوني الاقتصادي لكان نشوء العائلة، الموحدة تأخر كثيراً ،على الاقل ، اذ اننا نرى في امثلة شيوعية العمل مضافة الى شيوعية الغذاء عند بعض هنود اميركا وملايا، في اشد اطوار وحدة العشيرة الاجتماعية : ان الرجل وامرأته لا يعيشان معاً ، بل يبقى كل منهما في عشيرته [2] وسنعود الى الكلام على هذه النقطة في الفصل التالي .

ينتج لنا من هذا الاستقراء اساسان للكيان الاجتماعي الاولي هما : نظام الوحدة الاجتماعية المنصرفة الى الاهتمام بالغذاء الذي هو قوام الحياة ، بصرف النظر عن اقسام العمل وهو حق الجماعة . ونظام الوحدة العائلية المنصرفة الى الاهتمام باقتسام العمل وهو بدء تنظيم التعاون . وحالة المرأة ، على هذا المستوى الثقافي ، تدعو الى تأملنا ولسنا نجد تمييزاً واختصاصاً في الاعمال بين الرجال في هذا الطور .وفي ارقى حالاته قد نجد اتجاهاً نحو احتراف الكهانة والسحر .

متى تقدمنا نحو درجة الرعاية والزراعة الدنيا لاحظنا ارتقاء في نظام اقتسام العمل بين الجنسين على القاعدة المتقدمة عينها .فمن الصيد نشأت تربية المواشي التي هي اولى درجات الحصول على الغذاء اللحمي مداورة . ومن جني الثمار والنباتات البرية نشأت الزراعة الاولى التي كانت اول تطور نحو

---

1 ملر لير ص 157

2 ايضاً 202

الاستحصال على الغذاء النباتي مداورة . ولما كان الصيدمن خصائص الرجل فقد تولدت العناية بالحيوانات القابلة للدجن من خصائصه فاستقل بالرعاية واحوالها بينما ظل نصيب المرأة من العمل جمع الغذاء النباتي البري والقيام بالاعمال الاخرى المشار اليها كالعناية بالمضرب وضرب اطناب الخيمة و تقويضها وشد الاحمال وتحميلها او حملها :

ردت عليه اقاصيه ولبده ضرب الوليدة بالمسحاة في الثأد

خلت سبيل اتي ٍ كان يحبسه ورفعته الى السجفين فالنضد [1]

اما الزراعة فقد كانت من نتائج عمل المرأة وعنايتها بالنبات وهي(الزراعة) عند الجماعات الزراعية الدنيا شغل المرأة الخاص بها ، فالرجال بين اكثر هنود اميركا المنتمين الى هذه الدرجة الثقافية لا يساهمون فيها ، بل لا يزالون منصرفين الى شأنهم من الصيد وصيد السمك [2] . وحيث الزراعة مصحوبة برعاية الماشية نجد المبدأ نفسه ، النساء يقمن بشؤون الفلح الزراعي بينما الرجال يرعون الماشية التي هي من خصائصهم وحدهم . وفيما سوى هذا التطور نحو الاحتراف لا نجد تغييراً جوهرياً في النظام الاجتماعي الذي يحدد جميع العلاقات بالعرف والعادة ولا نرى اقامة ثابتة وبداءة عمران .

نترك هذه الدرجة ونصعد في سلم الارتقاء الى الزراعة الاولية المتقدمة المعول عليها في المعاش . فنجد ان الاقامة التي تتطلبها الزراعة اوجدت فكرة التملك العقاري ، فكرة الارتباط بين الانسان وحقله—بين الانسان وبيته. ومن ثم اوجدت استقلال العائلة والكيان الاقتصادي لها . فحلت كفاية العائلة نفسها محل كفاية العشيرة نفسها وسمحت هذه الحالة للعائلة بالتطور

---

1 النابغة الذبياني

2 .لر - لير ايضا ص 209

نحو حالة البيت الكبير الى طبقة الاشراف واصبحت حاجات اهل هذه الدرجة ارقى مما قبلها . فادى ذلك الى الاخذ بتمييز العمل ونشوء طبقة الصناع من اسرى الحرب المستعبدين عند اصحاب البيوتات الكبيرة ومن الذين لم يحصلوا على نصيب وافر من الارض الصالحة للزراعة او الذين عجزوا لسبب من الاسباب عن الاعمال الزراعية الكافية للقيام باودهم مستقلين ومعتمدين على انفسهم .

وهكذا نرى التمييز الاجتماعي يقود التمييز الاقتصادي فيكون الاشراف الملاكون طبقة دونها طبقة العامة من ارقاء او داخلين في نظام المنزل القائم بنفسه . ودون هذه ، من الوجهة الاجتماعية ، طبقة العبيد . وتمييز العمل هو في هاتين الطبقتين الاخيرتين عداعن التمييز السابق بين الجنسين في نوع العمل. ففي منزل النبيل وممتلكه نرى العبيد والصناع الاحرار مختصين كل واحد منهم، واحياناً اكثر من واحد ، بعمل خاص كصنع الشباك لصيد السمك وصنع الزوارق والنجارة والعمل في العزق وقطع الحطب والطبخ والخدمة المنزلية وغير ذلك من الاعمال التي يتطلبها سد حاجة المنزل المركب القائم بنفسه . وكل عائلة تقوم الان باودها وتطلب رزقها الخاص ويتعاون افرادها بتوزيع الاعمال فيما بينهم من بناء وعزق وصنع مواعين او ادوات منزلية وما شاكل . فقد زالت شيوعية الغذاء والملك والعمل بزوال المساواة في الرابطة العشيرية الاولية التي لم يكن لها غرض سوى حفظ حياة الجماعة (النوع) ، ونشأ مع تمييز العمل التبادل الداخلي ضمن القرية وبين الافراد .

نرى في هذه المرتبة ان العشيرة نفسها آخذة في التلاشي في القرية التي هي بداءة العمران . ولكن الرابطة الدموية لاتزال قوية فهي قدثبتت في العائلة نفسها التي هي رابطة دموية وفي نظام القبيلة الذي تتحد فيه القرى . وتصبح العلاقات البشرية في هذا الطور بحيث يبرز الشيخ او الامير على رأس القبيلة او مجموعة القرى المتقاربة . ومن هذه النقطة تبتديء الحياة السياسية .

ومن مظاهر هذه المرتبة في افريقية نظـام التجارة المستمرة فيما بين القبائل المتجاورة المتخصصة ، كما ذكرنا (ص 74) ويكمل هذا المجتمع حاجياته بالمبادلة مع الخارج .

لانجد لهذه المرتبة ، مع تقدمها ، حياة نفسية (عقلية) . فالناس غارقون في شؤون معاشهم وصناعاتهم والوقت الباقي يصرفونه فيحفلاتهم الدينية وفي الكسل والتراخي والثرثرة الغريبة . ولهم لهو بالحرب والسبي وخصوصاً سبي النساء . وعند هذا الحد نترك المجتمع الذي يخرج عن العمران والثقافة العمرانية .

في هذه المرتبة التي لا يزال عليها اهل بولنيسية وافريقية كان الاوروبيون وعلى رأسهم الاغريق ثم الرومان ، حين نشأت في سورية الثورة الثقافية العظمى التي كانت الخطوة الجازمة للمدنية فلننظر الان كيف حدثت الثورة السورية التي وضعت للثقافة الانسانية ابتداء جديداً .

كل ما مر معنا في هـذا الطور الثقافي من شيوعية العمـل وسد الحاجة مباشرة الى الرعاية وبداءة الزراعة والاقامة ينطبق على الشؤون الثقافية للعصرين الحجريين السابق والمتأخر او على الاقل اللاحق والمتأخر ، اي ثقافة الانسان قبل ان ذر قرن عصر المعادن . ومنه يمكننا ان نقول ان العصر الحجري لا يزال متعلقاً باذيال البشرية حتى اليوم . واذا كانت بقايا اطواره الاولى آخذة في الزوال والتلاشي امام فتوحات التمدن الحديث فان آخر افقه المتصل باول افق العصر المعدني لا يزال باقياً . ومن الاطوار الاولى التي تكاد تكون الان معدومة ، ومن الطور الاخير البادي في الزراعة الاولية التي هي زراعة المعزق يقدم لنا علم الاقوام البشرية (الاثنلوجية) براهينه على ثقافة الانسان السابقة التاريخ .

ابتدأ العصر المعدني في سورية وفي مصر وجمهور العلماء يرجحون ان مركزيه كانا كلدية على مجرى الفرات ودجلة ، ووادي النيل . والكنعانيون

ايضا يعدون بين اقدم الشعوب التي عرفت المعادن والتعدين في شبه جزيرة سيناء وفلسطين [1] وكانت لهم في الدفاع عن معادنهم حروب مع المصريين الذين طمعوا فيها . وفي هذا العصر ابتدأت الحضارة ترتقي بترقية احوال الفلح والتسميد والاعتناء بالاشجار المثمرة وتنويع الزرع .

في هذا العصر وفي هذه البقاع السورية دخل المحراث في العمل لسد الحاجة بواسطة الزراعة فكان ذلك خطوة واسعة في الاقتصاد نتج عنها تفوق في العمل على الانتاج فاستغني عن مقدار لا بأس به من الجهد او ، بمعنى آخر ، تحرر قسم من «الزخم» البشري من حاجة الانصباب على الارض للعناية بتأمين مقدار الغذاء الضروري واصبح في الامكان توجيهه الى سد الحاجات الاخرى التي ارتقت من المرتبة الضرورية الى المرتبة الحاجية . وانطلق العمران من قيوده الثقيلة ونطقه الضيقة التي نراها في العشيرة القائمة باودها والتي لم يتحرر منها الزارع الاولي الذي لم يتمكن من تنمية العمران الاجتماعي الى ما يزيد عن نطاق القرية وترقية النظام الاجتماعي الى ما يزيد عن امارة القبيلة وتعيين العلاقات بين السادة والعبيد او اقرار هذه العلاقات على الحالة التي توجد فيها. ففي السودان نرى العمران الاجتماعي لا يتمكن من النمو بسبب تأخر الثقافة الزراعية حتى ان زيادة السكان لا تؤدي الى زيادة في العمران ، بل الى زحام في المعاش يضطر معه اهل المنطقة الى نبذ الفئات الزائدة منهم الى مكان قصي [2] .

ازداد الحاصل الزراعي بواسطة ادخال المحراث والتسميد حتى اصبح في الامكان تغذية عدد وافر ، قابل النمو من السكان الذين اخذوا يوطدون اقامتهم في الارض بتثبيت العمران وزيادته . فنشأت المدينة وفيها ارتقت

---

1 انظر ادوار ماير ، ج 2 ف 356

2 دلابلاش ص 58

شؤون المأكل واللباس وازدادت الصناعات اليدوية واتسع نطاق التمييز الصناعي (وهذا التمييز كان ، طبعاً ، بين الذكور) فتناول صناعات عالية كصناعة الطب وفنونا كفن الحرب وفن النحت والنقش ، وفن الكتابة الاولية الهيرغليفية في مصر والمسمارية في شنعار (بابل) . وفي هذا الطور ارتقى تبادل الحاصلات والمنتوجات الداخلي الى حد عال .

بيد انه مع كل هذا التقدم في الثقافة العمرانية ونشوء الثقافة النفسية او العقلية فان الحياة العقلية ظلت ابتدائية ومقيدة بالضروري لشؤون المجتمع ، لان وسائل تحرير العقل كانت لا تزال ناقصة . فنمو العمران واتساع نطاق التمييز العملي رقيا مستوى المعيشة ولكن الكتابة الهيرغليفية والمسمارية كانت بعيدة عن اظهار التعابير العقلية المتعددة وتقتضي عناء كبيراً في التسجيل والقراءة ولا يمكن نشرها بحيث تعم فهي ادت خدمتها الضرورية الجلى بتسجيل اهم حوادث السلطان وغزواته واهم قوانين الدولة التي نشأت مع المدينة وشؤون العبادات الدينية ووقفت عند هذا الحد فلم تتناول نشر المعارف والعلوم ولا تسهيل المعاملات والاتصال بين شعب وشعب . وارتقاء التعاون المركب في المدينة ابقى حاجات كثيرة حاجية وكمالية غير قابلة السد في المجتمع نفسه فادى هذا النقص الكبير الى اتخاذ الحرب المنظمة وسيلة للتعويض عنه. هكذا الغزوات المصرية للاستيلاء على مناجم شبه جزيرة سيناء والحصول على ارز لبنان . وهكذا الغزوات الاشورية والكلدانية لاخذ الجزية التي كانت تحتاج اليها بلاليط نينوى وبابل .

وسط هذه الحروب وفي هذا النقص العمراني عن بلوغ مستوى راق من الثقافة الانسانية كان الكنعانيون يتخذون اتجاهاً جديداً .انهم ساهموا في الحالة العامة التي وصفناها آنفا ، وغزوا مصر وأنشأوا دولة منهم

فيها [1] . ولـكنهم لم يغرقوا في الحروب ، بل اهتموا بالتغلب على صعوبات الحاجات العمرانية بترتيب ثقافتهم الاقتصـادية على اساس زراعة راقية غنية جداً حتى سمي وطنهم الارض التي تفيض لبناً وعسلا ، وتنبهوا باكراً الى امـكانية التوسع والحصول على اكبر نصيب من كماليات العمران عن طريق غير طريق الغزو وفرض الجزيـة — عن طريق التجارة . فتوسعوا في ارضهم وتوجه شطر منهم شمالا على شاطيء البحر غربي لبنان واحتل كل هذا الساحـل الخصب الذي عرف فيما بعـد باسم فينيقية نسبة الى هؤلاء الكنعانيين [2] الذين لوحتهم الشمس على رمال الشاطيء وامواج اليم ، او الى الارجوان الذي كانوا يصنعونه . انشأ هؤلاء الكنعانيون المدينة البحرية التي امتازت بصفات ثقافية خاصة ، واصبحت المثال الذي احتذتـه الامم التي دخلت في نطاق المدنية السورية [3] كالاغريق والرومان . واهم خصائص هذه الثقافة انها توجد تلاؤما بديعاً بين شؤون سلك البحر وشؤون زراعة تتطلب عناية اكثر مما تتطلب جهداً عضلياً . فوراء المدينة في الهنترلند Hinterland قامت زراعة لها خصائص اتخذت مثالا نقلت عنه الامم الاخرى ، هي غراسة البستان التي جمعت بين الاشجـار المثمرة والبقول والحبوب . ان فن البستان والكرم ، العناية بالاشجار المثمرة في تشذيبها وتحسين نتائجها هو فن زراعي

---

1 ان الاستنتاجات من معظم الابحاث عن الهكسوس - الذين عرفوا بالترجمة «الملوك الرعاة» - تدل على انهم كانوا ساميين سوريين، اي كنعانيين (انظر ادوار ماير ج ا . فقرة 304 ص315 . وسوريتهم مذكورة في اخبار مصرية ، خصوصا اخبار الملك حتشبسوت و الملك ابوبي (ايضاف 303 ص 313). يدل ايضا تأثيرهم الديني على مصر (ايضا ف 304) وغريفث تايلر - كتابه المذكور 119 _ 121 _ يسميهم الملوك السوريين .

2 ماير ف 356 ص 422

3 دلابلاش 138

سوري ترده تقاليد الامم الى الفينيقيين ودلابلاش [1] يقول ان عالم البحر المتوسط اقتبس هذا النوع من الحضارة عن الشاطيء السوري ما بين طرابلس وجبل الكرمل .

كانت التجارة الطور الاول للثورة السورية الثقافية فسارت قوافل السوريين الى مصر وإلى الاناضول واليونان براً وجرت مراكبهم على سطح البحر لتكتشف في غربه وشماله اقواما لاتزال في طور الوحشية او البربرية وتنشيء معها علاقات تجارية سلمية ينتج عنها ربح مادي للمكتشفين وربح ثقافي للمكتشفين . ولم يكن هذا الطور التجاري مقتصراً على نقل بضائع بين مكان ومكان آخر ، بل كان يقوم على نشوء صناعات عديدة ونموها كالنسيج والصبغ وصنع الزجاج وماشاكل ، فضلا عن صناعة القوارب والمراكب التي بقيت صناعة قومية بحتة لا يقصد منها التصدير .

التجارة هي احد العوامل العظمى في تفاعل الثقافات واحد العوامل الاقتصادية الكبرى . التجارة مكنت السوريين من التعويض عن فقر ارضهم في المعادن وعن نقص المواد الخام التي يحتاج اليها مجتمعهم الآخذ في النمو والارتقاء المدني ومهدت لهم، بواسطة ما احدثوه من فن سلك البحر، الانتقال الى طور آخر عظيم الاثر في العمران هو طور الاستعمار الذي ادخل البحر المتوسط كله في نطاق هذه الثقافة السورية الجديدة التي هي بدء التمدن الحديث. وليس ادل على اهمية هذه الخطوة السورية المبدعة لتقدم الثقافة العمرانية وانتشارها من النظر الى حالة الاقوام البربرية التي دخلت في نطاق هذه الثقافة الجديدة عند اول عهد السوريين بها . خذ الاغريق مثلاً فان حالتهم بالنسبة الى ما كان عليه الفينيقيون من ثقافة هي ، كما يصفها هوميرس [2] مشابهة لحالة برابرة افريقية تجاه الشعوب التجارية الحديثة . فقد كان المركب الفينيقي يرسو على الشاطيء الاغريقي حاملاً انواعا عديدة من المنتوجات المصنوعة في

---

1 ص 138 . ايضا ص 214

2 ذكره ملر - لبر ص 174

بلاده للبس والزخرف وبعد ان يشتري التجار رضى الامير كانوا يعرضون بضاعتهم التي كانوا يبدلون بها من الاغريق مواد خاما كالقمح والخشب والجلود والمعادن الخام والعبيد وما شاكل . اما البضاعة السورية فكان فيها النسيج واصناف كثيرة من المصنوعات المعدنية والارجوان الذي اشتهروا به وغير ذلك .

من الثقافة الزراعية الصناعية البحتة التي وسعت نطاق تمييز العمل بواسطة تحرير الايدي الذي ادخله المحراث ومكنت النظام الداخلي من الارتقاء الى المدينة والدولة مع تحديد كل النتيجة العمرانية بالبيئة ، اللهم الا ما يأتي عن طريق الحرب وهو غير ثابت ، خطا السوريون الكنعانيون والاراميون الى التجارة وثقافة الانتاج التجاري التي تتصل بامكنة بعيدة وتمتد الى موارد واسعة جداً وتدخلها في نطاقها ونتج عن هذا التطور الخطير ، عدا الاستعمار الذي اشرنا اليه ، فن معرفة العالم وما فيه من ثروات ، وترقية فن سلك البحار وربط اماكن المواد الخام بمراكز الثقافة التجارية الجديدة . فكان التقدم من الوجهة العمرانية الاقتصادية عظيماً .

ابتدأ العمل العقلي في هذه الثقافة يرجح على غيره ، فالتجارة عمل عقلي Par excellence . فكان على الذين اوجدوا الثقافة الاقتصادية الجديدة ان يبتدعوا الطريقة العملية للحياة العقلية ويضعوا اساساً جديداً متيناً للثقافة الانسانية . كان على سورية ان تكمل ثورتها الثقافية وتفتح طريقاً جديدة للارتقاء الثقافي فاستنبط الكنعانيون (الفينيقيون) الاحرف الهجائية فتمت قاعدة التمدن الحديث .

في طور الثقافة الزراعية الصناعية القائمة باود المجتمع عن طريق العائلة والتملك الشخصي نجد نمواً في النظام الاجتماعي الاقتصادي القائم على طبقات ثلاث : الاشراف ، الصناع الاحرار ، العبيد . فقد زال ، من زمان ، نظام العشيرة القائمة باودها والقبيلة التي تضم قرى وحل محله نظام الدولة الملكية ثم الجمهورية . ولكن موارد هذه الثقافة اقتصرت على بيئتها فلم تتمكن من اطراد التقدم ، لان مواد كل بيئة محدودة بذاتها . ولم تكن الحرب تعويضاً ثابتا او وسيلة عمرانية لاطراد الارتقاء الثقافي . ولا نقول ان التجارة كانت

معدومة ولكنها لم تكن عاملا اقتصاديا منظما ، بل كانت عبارة عن تبادل خاضع للانتاج الفردي غير المنظم .

اما الثقافة التجارية فانها نظمت العمل في وحدات مشتركة واوجدت معنى الرسمال الهام . كان الرسمال قبل نهضة التجارة بين الامم فرديا يستعمل في الانتاج لسد الحاجة مداورة وللتبادل الداخلي ، الذي هو من اهم عوامل تنظيم المجتمع العمراني ، ولكنه لم يكن عاملا في تنظيم الاقتصاد والعمل ،اي انه لم يكن رسمالا بالمعنى العصري . ولكنه في الثقافة التجارية اصبح ذا قيمة قومية لانه تناول تنظيم العمل للانتاج الواسع بقصد الاتجار مع الامم وتموينها بما تحتاج اليه ، عن طريق افرادها وجماعاتها، لقاء الحصول على ما يغطي نفقة العمل ويعطي الرسمال ، نفقة تنظيمه الانتاج والاسواق ، ربحا ينمي الثروة القومية التي اصبحت في هذا الطور تحت حماية الدولة . مع هذه الخطوة الواسعة نشأ الاقتصاد القومي الذي لا يزال يسيطر على المجاميع البشرية والثقافة المدنية الحاضرة .

في هذه الثقافة ابتدأ كون العائلة اساس النظام العملي في المجتمع يضعف . فتوزع العمل وتميز بين الرجال اما المرأة فانها بقيت ربة البيت او ان عملها المميز هو القيام بجميع شؤون المنزل . وظلت القرابة الدموية الفاعل الاقوى في النظام الاجتماعي الاقتصادي اذ كانت الحرفة تبقى في العائلة يعطيها الاب لابنه وللاقربين اليه من بعده وكذلك ارث الثروة كان ذلك اهم عامل في التمييز الاجتماعي وبه تحددت الطبقات تحددا شديدا ادى الى نضال عنيف ضمن نطاق الدولة ومشادة بين الاستقراطية الوراثية وطبقة العامة . وقد تمكنت التجارة الفينيقية من ان تزيد العمل بواسطة العبيد الذين كانوا يشترونهم ويوزعونهم على الاعمال المختلفة . فظلت العائلة محتفظة بمركزها اساسا للتنظيم الاجتماعي ولكنها لم تعد وحدة اقتصادية قائمة باودها ، بل اصبحت تعتمد على الانتاج التجاري المنظم بالرسمال الامر الذي ادى الى ما عرف بالعمل البيتي للصناعات اليدوية .

الثورة الصناعية . كان هذا التطور بداءة عودة الاقتصاد الاجتماعي بدلا من الاقتصاد الفردي العائلي ، الذي لا يزال ممثلا بعض التمثيل في تجمهر العائلة المتصلة الصينية وقيامها على سد جميع حاجاتها بعملها الخاص

في بقعة صغيرة من الارض المحولة الى بستان زراعي غني خصب ، ولكن اهمية العائلة الاقتصادية لم تتلاش ، في هذا الطور ، بالمرة ، بل احتفظت بكثير من خصائصها الاقتصادية حتى مجيء عصر الآلة المعروف بعصر الثورة الصناعية فاخرج الصناعات اليدوية الباقية من بيوتها واخرج الصناع من المصانع بالمئات والالوف ، واوجد هذا العصر ، فيما اوجد، الآلة المنزلية التي أخذت معظم عمل المرأة في بيتها وزال توزيع العمل بين الجنسين ولم يعد الزواج مبدأ اقتصاديا يقوم على تقسيم العمل،الرجل لاعمال التحصيل والمرأة لاعمال التدبير . فاضطرت المرأة الى ايجاد عمل لها خارج المنزل بدافع الحاجة الى ايجاد عمل يشغلها وبدافع الحاجة المعاشية في نظام توزيع العمل والثروة الرسمالي الحاضر . ومن هذه الحالة نشأ تمييز العمل بين الاناث ايضا وظهرت الحركة النسائية الحديثة . وهذه الظاهرة الاجتماعية الحديثة هي السبب في حياة المرأة العصرية ، الغربية خصوصاً ، التي يريد الكتاب الذين لم يعنوا بدرس سنن الاجتماع ان يفضلوا المرأة الشرقية عليها ، لحشمة هذه وحيائها ولسفور تلك واقدامها وتطرفها .

ان الثورة الصناعية وضعت الاجتماع على اساس جديد . فهي لم تقتصر على سلب العائلة صناعاتها وصاحب الحرفة الفردية حرفته ، بل هي اوجدت المعامل والمصانع الكبيرة التي تضم مئات والوفا من العمال في كل معمل او مصنع. فنشأت في المدن والمناطق الصناعية هذه الطبقة من العمال ، التي عرفت في التعابير العصرية بلفظة «بروليتارية» (Proletariat) والتي اصبحت في العقود الاخيرة قوة سياسية هائلة،لانها تختلف عن الطبقة الزراعية المتصفة بالجمود[1] التي ، لبعدها عن مراكز الثقافة المتمدنة وانتشارها على ابعاد شاسعة ، لم تتسن لها وسائل الاتحاد وتنظيم صفوفها وتكوين قوة سياسية متحركة .

قادت الابجدية العالم في طريق المعرفة والعلم وتفوق القوى العقلية على صعوبات الطبيعة الى الالة الاقتصادية التي وضعت في يد الرسمالي قوة لم يكن

---

1 مكيور ص 140 Modern State

يحلم بها ، ففاقت قوة الرسمال المتعاظم اية قوة اخرى مناقبية او مادية . فقضت هذه القوة الجديدة على النظام القديم : النبلاء والاحرار والعبيد ، ووضعت نظاما جديداً : الرسماليون ومزاولو المهن الحرة والعمال ، او ما يعبر عنه بالطبقة العليا والطبقة الوسطى والطبقة الدنيا .

نجد في هذا الطور الجديد ان العائلة فقدت رابطتها المتينة السابقة و لم تعد الدرجة الرابعة من القرابة الدموية ولا الدرجة الثالثة بذات بال بل ان الدرجة الثانية ايضاً لم يعد يحسب حسابها الا نادراً . والذين لا يفهمون العوامل الاقتصادية الخطيرة العاملة تحت كل مظهر من مظاهر الاجتماع ، وخصوصاً اولئك المناقبيون الذين يرون المناقب اساس كل شيء ، يعدون هذا التحول الجديد ، تفسخا من جراء الفساد .

اوجدت الابجدية والتجارة اتجاهاً ثقافياً جديداً انتهى الى عصر الآلة الصناعية الذي هو عصر التمدن الحديث . وهذا العصر فسح للثقافة العقلية اوسع مجال ورقى التفاعل الاجتماعي الى درجة عالية جداً .

منذ الفترة التي ظهرت فيها الابجدية الى جانب التجارة واتحد هذان العاملان في التفاعل الاقتصادي الاجتماعي اتجه الاجتماع البشري نحو الحياة النفسية (العقلية) وسيطرة العقل على كنوز الطبيعة ومواردها . وفي هذه الحياة الجديدة تساهم الامم المتمدنة . وبوجود هذه الحياة ووسائلها يمكن الآن ملايين البشر ان يفكروا في قضايا الانسانية الحيوية والاجتماعية مستقلين ومشتركين وان يشتركوا في ثقافة انسانية عامة يدهش المفكر لالوانها المتعددة تعدد القوميات وللخصائص النفسية التي تنكشف عنها في امم عددها عدد البيئات .

ومتى القينا نظرة على هذا الصرح الفخم من الحياة المدنية ، التي تحرز بعد كل فترة نصراً جديداً للانسان على اسرار الطبيعة ، المزين بكل فن جميل من رسم ونحت ونقش وبناء ودهن وموسيقى الخ ، المبطن بالاخلاق و كل ما تعني من شخصية الفرد وشخصيات الاقوام — متى نظرنا الى هذا البناء العقلي السامي الذي يمثل لنا المدنية الحديثة ، ادركنا قيمة الثورة السورية ومعناها الكبير .

الفصل السادس

نشوء الدولة وتطورها ·

الثقافتان المادية والنفسية · رأينا في ما تقدم من فصول هذا الكتاب الاسس والخطط العامة لتطور البشرية وارتقائها في ثقافاتها المادية الناتجة عن تفاعل الانسان والطبيعة بقصد تأمين سد الحاجة وبقاء الذرية . ورأينا ايضاً كيف ان الثقافة النفسية جارت الثقافة المادية وقامت عليها اذ الحياة العقلية لا يمكن ان تأخذ مجراها الا حيث تستتب لها الاسباب والمقومات . ولذلك نجد التطور الثقافي بجميع مظاهره يرتقي ويسبق غيره حيث اسباب الحياة اوفر وارقى مما في سواه .

ولقد تكلمنا عن الاجتماع البشري واشرنا الى انه عريق في القدم وانه صفة بشرية عامة ، حتى ان ما قلناه بهذا الصدد ليحمل على الاعتقاد ان اجتماعية الانسان شيوعية بلا حدود او قيود والواقع غير ذلك . فالمجتمع الانساني ليس الانسانية مجتمعة ومن يدري هل يقدر للانسانية ان تصير مجتمعاً واحداً في مستقبل العصور · واذا كانت المجتمعات البشرية الثقافية تتقارب بعضها من بعض بعوامل ثقافاتها فلا يزال لنا في حالات بعض المجتمعات وشؤونها الاجتماعية بقية تدل على ان « البشرية » والاجتماع البشري ليسا مدلولين شائعين بين جميع البشر . فالاسكيمو يسمون انفسهم فقط « انويت » (الناس) وكذلك هنود الينويز ينعتون انفسهم بالينويز (Illinois : بشر) ومن حكايات الاسكيمو ان الاوروبي (الغريب) نشأ من زواج امرأة منهم وذئب قطبي [1] .

---

1 تيودور فيقر ABS ص 293

تقصينا فيما دوناه آنفا الاساس المادي للاجتماع البشري واحواله وبهذا الفصل نبدأ بدرس البناء النفسي لهذا الاجتماع . ولعل الدولة اجدر الشؤون والمظاهر الثقافية تمثيلا للحياة العقلية التي هي من خصائص الاجتماع الانساني حتى ليمكن القول ان الثقافة الانسانية والدولة صنوان .

نشوء الدولة . وبديهي ان الدولة شأن ثقافي بحت ، لان وظيفتها، من وجهة النظر العصرية ، العناية بسياسة المجتمع وترتيب علاقات اجزائه في شكل نظام يعين الحقوق والواجبات اما بالعرف والعادة -في الاصل- واما بالغلبة والاستبداد . فهي اذن شأن من شؤون المجتمع المركب ، لا وجود لها الا فيه ، وهي لذلك شأن سياسي بحت ، ومع ذلك فهي ليست شأناً لااجتماعياً، فكما ان الدولة لا وجود لها الا في المجتمع كذلك السياسة لاوجود لها بدون الاجتماع .

وقد اختلف في بداءة الدولة هل هي في بداءة الاجتماع البشري (بدء البشرية) او في طور معين من اطوار ارتقاء هذا الاجتماع . فقالت نظرية بان الدولة نشأت مع بدء الانسانية وقالت نظرية اخرى بانها نشأت حيثما ظهرت الفوارق الاجتماعية [1] . وقد قال ارسطو في الدولة انها تنشأ بعامل الحياة ، ولكنها تبقى في الحقيقة لتحقيق حياة حسنة الانتظام [2]. ومع ان البحث المنطقي العقلي يرغبنا في تتبع اسباب نشوء الدولة وردها الى الخاصة الانسانية النفسية المعينة بالتمييز بين انانية المرء (نسبة الى انا لا اسما لحب الذات) الظاهرة في استعمال « انا » وبين الظاهرة التي توجد « انت » ماثلا امام « انا » فاننا نخشى ان يقودنا مثل هذا البحث الى الابتعاد كثيراً عن النطاق المحدد لهذا الموضوع . ولذلك فكلامنا على الدولة ، اجتماعياً، يجب ان يتخذ نقطة الابتداء في واقع الدولة اي في المجتمع المركب ولو تركيباً بسيطاً . وفي كل حال يجب الا يبرح ذهننا ان هذه النقطة وهمية فاطوار الاجتماع البشري ليست مقاطع مستقلا الواحد منها عن الآخر كل الاستقلال .

---

1 فيركنط ، ٨٧٧ ص 1

2 ذكره ادوار ماير ، المقدمة ص 11

الدولة في عالم الحيوان. ولابد لنا، قبل ولوج قلب الموضوع ، من الاحتياط هنا لما احتطنا له في موضوع الاجتماع البشري، نعني اتخاذ امثلة للدولة من عالم الحيوان . فمع ما في هذا العالم من اشكال التجمع المرتبة كوجود نوع من الزعامة في بعض انواع الحيوان وجماعات النمل [1] ووجود صنف معين للقتال في جماعات النمل الابيض [2] . فان الفرق بين حقيقة هذه الظواهر وحقيقة الترتيب المنطقي العقلي في تصنيف المجتمع الانساني كبير جداً . فالكلام على «دولة النمل » و« دولة النحل » يجب الا يحملنا على التفكير بوجود دول منشأة في هذه الحشرات والهوام . ان الدولة شكل من اشد اشكال الكيان الاجتماعي تعلقاً بالعقل والمجاز [3] فلا يجوز مطلقاً ان ننقل هذا الاصطلاح الانساني المحض الى عالم الحشرات ، لان مثل هذا النقل يجعل قياساً واحداً وقيمة واحدة لما هو ثقافي وما هو طبيعي غريزي . ومع ان العالم أرخ وسمن (انظر بحثه المذكور في الهامش) يشير بوضوح ، في بداءة بحثه « الديمقراطية في دول النمل والنمل الابيض» الى الفوارق بين خصائص الانسان وخصائص الحيوان النفسية فهو لا يتورع، في مكان آخر من بحثه[4] عن ان يجد في صغر عقل عمال النمل الابيض، بالنسبة الى كبر رأسها التعليل المنطقي للنظام «الشيوعي» في «دول» هذا النمل !

الحقوق الاولية

ليست الدولة في ذاتها مقياساً للثقافة العقلية بل بما تنطوي عليه من حقوق. فلا بد لنا من القاء نظرة على بداءة الحقوق لكي نتمكن من فهم نشوء الدولة وتطورها في ظروفهما . يجب ان ننظر الى الحقوق اذا كنا نريد ان نحصل

---

1 انظر تيودور ڤيقر ص 295 وما يلي . وارخ وسمن ص 320

2 وسمن ايضا ص 330

3 ڤيقر نفس المكان فوق

4 ص 332

على تحديد حقيقي للدولة [1] .

الجماعة والفرد. في احط درجات الاجتماع البشري وابسطها نجد الجماعة اوالعشيرة وعبثانحاول ان نجد الفرد ، فهو لا وجود لهاقتصاديا ولاحقوقياً ولذلك فهو ليس بداءة الاجتماع ولاشأن له في تعيين الاجتماع وكيفيته . ولا بد هنا من الاشارة الى ان النظرة الفردية للاجتماع التي يجـدها الدارس في « التعاقد الاجتماعي »لروسو هي مستمدةمن حالة المجتمع بعد ظهور الفرد عاملا فيه ، وقبل ذلك لا اختيار للفرد في الاجتماع والمجموع . فوجوده الاناني في تلك الحالة الاولية لا يظهر الا في التمييز بينه وبين غيره في بعض العـلاقات النفسية (الذهنية) . ان هو الا نقطة في موجـة صغيرة لا يمكنك تعيينها ، كيفية وكمية ، الا اذا فصلتها عن جسمها .

الموجة ، الجماعة ، هي كل شيء في بداءة البشرية.والجماعة في الطورالاولي الذي نحن بصدده خاضعة لجميع انواع الرؤى والاوهام وهذه الرؤى وهذه الاوهـام هي كل حياتها النفسية . لذلك نرى الحق والدين شيئاً واحـداً في البدء .

الطوطمية والتناسخ . ان قرابة عرض الانسان من عرض الحيوان في هذه الدرجة جعل الانسان يحس من نفسه في نفس الحيوان . فكثرت تخيلات انتقال النفس بعـد الموت الى حيوان او الى انسان آخر . ومن ثم نشأ تشخيص نفس العائلة في كائن حيواني اونباتي وهو الطوطمية Totemismus. فاختصت كل عشيرة او تخذ نفسها بحيوان ـ وهو الاكثر ـ او نبات او جبل معين تعرف به [2] . وفي المثال الاخير نجد اتجاها نحو الاقامة . ومن نزول عدة عشائر لطواطم مختلفة في بقعة واحدة ينشأ الطوطم المكاني الذي يجمعهم جميعاً ويخضع له كل واحد منهم [3] .

---

1 مكيور ، كتابه المشار اليه ص 16 . نلفت نظر القارىء الى صعوبة ترجمة لفظة Law التي تشمل المعنيين : الحقوق والقانون

2 يوسف كولر ، AR ج .1. ص 5

3 ايضا ص 6

الزواج الخارجي • ادى الاعتقاد بتوافق الطواطم او بعضها الى استحسان التواصل الجنسي بين رجال طوطم معين ونساء طوطم آخر . وهكذا نشأ الزواج الخارجي (ص 24) المحتم الذي اتخذ اشكالا عدة وحرم الامتزاج الدموي الداخلي تحريماً يستحق من ينتقض عليه الموت [1] .

وقد ظل الزواج الخارجي احقابا طويلة زواج جماعات لا زواج افراد. وطريقته ان تعتبر نساء الجماعة الواحدة مخصوصة لرجال الجماعة الاخرى النسيبة. فليس هنالك عقود زواج ، بل اباحة الاختلاط بين رجال الجماعة الواحدة ونساء الجماعة الاخرى بدون حدود[2] . وهنا نرى المظهر التام لشيوعية العمل والنتاج (ص 75) مكملاً شيوعية العلاقات الجنسية ولكن هذه الشيوعية الاخيرة محددة بالطرق والاساليب المذكورة فوق .

الحقوق الامومية • يظهر ان الزواج الخارجي كان مصحوبا بالحقوق الامومية ، في الاصل . وهذه الحقوق تعني ان الاولاد يبقون في عهدة الام ويكونون من نصيب جماعتها ، اذ ان الجماعة ، لا الفرد ، هي صاحبة الحق وليس للافراد حقوق غير حقوقها . فاذا فرضنا ان رجال جماعة معينة تزوجوا نساء جماعة اخرى فان الاولاد يكونون حصة جماعة الامهات لا حصة جماعة الآباء. ولعل هذه الحقوق ناشئة عن الحالة الطبيعية التي توجب على الام العناية بالاولاد بينما الرجل يخرج الى الصيد والتوغل . ويرجح ان هذه الحقوق هي الاقدم وان كان ظهر ان الحقوق الابوية ايضاً وجدت في حالات قديمة جداً، واحيانا الى جانب الحقوق الامومية .

يكون الطفل في حالة الحقوق الامومية متعلقا بالام وعائلتها ، عشيرتها ،

---

1 كولر ص 6
2 ايضا ص 7

والرجال الذين يكونون الى جانبها هم اخوتها ، اخواله [1] الذين تنشأ بينه وبينهم روابط متينة جداً.

الحقوق الابوية · هي نقيض الحقوق الاomية فالولد للرجل ، لا للام ، حتى في ابان الزواج الخارجي . ولكنها في ذلك العهد ليست القاعـــدة بل الشذوذ عن القاعدة الى قاعدة جديدة . وتعني هذه الحقوق في الزواج الخارجي ان الاطفال المولودين من فريق رجال جماعة ونساء جماعة اخرى يخصون جماعة الاباء وطوطمها ، لا جماعة الامهات وطوطمها .

ان جميع الشعوب المتمشية على قاعدة حقوق الابوة قد خرجت اليها عن طريق حقوق الامومة التي درجت عليها . وهذا التحول حدث في ازمنة ليس لنا بها صلة تاريخية مطلقاً كالذي حـدث للساميين والهندجرمانيين [2] من الشعوب التاريخية بحيث لم يعد ممكناً تقصي ذلك تاريخياً لا في اقدم الشرائع السامية التي هي اقدم الشرائع طراً ، كشريعة حمورابي ، ولا في اقدم التقاليـــد الهندجرمانية الممثلة في « الفيدا Veda » .

ومن اهم مظاهر هذا الزواج الخارجي الاجتماعية كون التزاوج حاصـلا بين الاقرباء ، اي بين ابناء الاخوال .

وبعد الانتقال من الشيوعية والاباحية الى الفردية لم تضمحل الاباحية

---

1 كولر ص 19 . انظر ايضا ادوار ماير ، المقدمة

2 ايضا كولر ، المكان نفسه . وهذا القول اقوى مما ذهب اليه ادوار ماير (ج ا ق 2 ف337) من ان الشعوب السامية كانت دائما ابوية الحقوق . فقد اثبت كولر حدوث انتقال من حالة الامومية الى حالة الابوية في عشائر متجاورة ولكن لم يتحقق قط حدوث العكس . وماير نفسه يثبت في مكان اخر (ف 338) انه حيث التجا في البادية رجل الى قبيلة غير قبيلته وتزوج منها ورزق ولداً فهم لقبيلة الام لا لقبيلة الاب وفي القول المأثور « الولد للفراش » معنى كبير من حقوق الام . وفي التقاليد العربية دليل على الانتقال من حالة الامومية الى حالة الابوية وهو ما وقف عليه روبرتسن سمت ونقله جنكس ص 51 - 52

بالمرة بل تركت بقايا في الطقوس الدينية والعبادات ومن هذه البقايا التي عرفت في العالم السامي كله وفي الهند واماكن اخرى « بنات الهياكل » او « بنات الآلهة » او « بنات الشعب » اللواتي ينذرن ويكن مباحات[1] . وقد رجعت مظاهرها في الشيوعية الحديثة . وفي كل مجتمع حديث نوع من الاباحية المقيدة او السرية . يشكل صماما للحصر الذي تولده اعباء عقود الزواج .

الزواج الفردي والعقد . تطور الزواج الخارجي نحو الفردية واختصاص الزوجين وفي هذه الحالة كان لا بد من اجراء عقد للزواج . وقد يكون ما ادى الى انشاء هذه المؤسسة اضطرار بعض العشائر المتقاربة الى الانقسام او الارتحال ، مضافا اليه تولد عوامل نفسية فردية .

وقد نشأ من الزواج المجموعي نوع عرف بتعدد الازواج ، كما نعرف عن الصابئة في بلاد العرب [2] . وسببه كثرة وأد البنات وقتلهن . وهذا النوع ايضاً لم يلبث ان تطور نحو الزواج الفردي وقد يكون من اهم عوامل هذا التطور اقدام الرجل على اختطاف المرأة التي يريدها . ومنذ الساعة التي ابتدأ فيها الرجل يشعر بقوته وبرغباته الخاصة حين كان يغزو ويعود ظافراً بالاسلاب والسبي اخذ يخضع المرأة لارادته ورغباته وهكذا اصبح الرجال قوامين على النساء ووجدت هذه الحالة التي لا تزال سائدة في بلاد العرب طريقاً الى الاسلام وثبتت فيه كما ثبت فيه الاخذ بقرابة الرضاع التي هي من مصاحبات القرابة الدموية في الشعوب التي لا يزال اجتماعها اولياً . والفضل في نشر هذه القرابة في العالم يعود الى الاسلام بعد ان كانت منحصرة في القبائل العربية وفي القوقاس [3]

الزواج بالشراء . ادى اختطاف المرأة في الشعوب الاولية وفي الحالات

---

1 كولر ص 9

2 انظر مابر ، ج ١.ق 2 ف 337 و 338 . ايضا كولر ، فوق ص 82

3 ايضا ص 22 . ايضا كولر ص 89

الاولية للشعوب المرتقية الى شراء الرجل المرأة . ومع ضياع حقوق المرأة في حالة الاختطاف وحالة الشراء تمكنت سيادة الرجل وحقوقه التي اخذت تفعل في تطوير العائلة وما تنطوي عليه من حقوق وراثة وغيرها .

ومن هذا الشراء الاولي تطور الزواج ، مع ارتقاء المجاميع البشرية ، نحو الهدية والعربون وما شاكل مما اعاد الى المرأة مركزها الشخصي وازال عنها صفة السلعة . وفي المجاميع المتمدنة تحول معنى ان الرجال قوامون على النساء الى قصد العطف على المرأة والاخذ بناصرها ، لا التصرف بها .

الاستعباد • يظهر ان الاستعباد نشأ من الغزو والسبي . ولعل المرأة المسبية كانت اول من استعبد من البشر . والاستعباد عموما ليس قديماً جداً في العالم فهو غير ممكن وغير مفيد الا في طور ثقافي مرتق نوعا . انه نشأ مع تحول الجماعة الى الزراعة والاقامة اللتين يمكن فيهما الاستعباد ويفيد . ونحن نرى ان العبيد يؤلفون عنصراً هاما من عناصر الثقافة الزراعية الاولى فهم الصناع الاول الذين تميز بينهم العمل حرفا خاصة فأقامهم سادتهم في منازلهم وفي حقولهم كما اشرنا الى ذلك في الفصل المتقدم ص 77 .

وقد كثر الاستعباد في الازمنة التاريخية فاتخذ الفينيقيون عبيداً يكلون اليهم العمل في صناعاتهم وتجاراتهم وزراعاتهم . ولعل الاستعباد عندهم كان ارحمه لانهم كانوا اهل تجارة واسعة ؛ واستخدام العبيد في الشؤون التجارية أخف وطأة منه في الشؤون الزراعية . واستعبد الاغريق .واقتبس الرومان عن الفينيقيين في افريقية فوائد استخدام العبيد في الزراعة وقلدوهم في هذا المضمار [1] وتضخم الاستعباد في رومة حتى انفجر عن ثورات اروعها ثورة نشبت في صقلية على اثر الحرب الفينيقية Punic الثالثة وبطلها رجل سوري اسمه بالاغريقية يونس استوحى الهة سورية لاثارة العبيد زاعماً ان الالهة

---

1 ماير ، ج 3 ف 379 ص 682

السورية جميعها دعته ليتولى ملكا . وبالفعل انشأ يونس مملكته فجرد جيشه على الجيوش والمدن واثخن فيها ودوخ البلاد ونادى بنفسه ملكا باسم انطيوخس تيمناً بالامبراطور السوري السلوقي الكبير ،وسمي اتباعه سوريين [1] ولكن ملكه كان قصير الاجل ولم تنجح حركته التحريرية الا فترة قصيرة .

الثأر . نرى في حياة الجماعات الاولية منذ العهد الطوطمي ، ان الحقوق الجزائية تناولت شكلي العلاقات الاجتماعية الخارجي والداخلي ، الاول لما يحدث من قبل جماعة او بعضها لجماعة اخرى والثاني لما يحدث من قبل افراد في الجماعة نفسها . وكثيراً ما تؤدي هذه العوارض الى حروب بين العشائر والقبائل المتجاورة طلباً للثأر . وسببه الاصلي طلب التعويض عن الخسارة التي منيت بها عشيرة المصاب فاضعفتها في عددها تجاه العشيرة الاخرى . ولا يبحث في مثل هذه الاحوال عن الحق والذنب والاعتداء كيف وقع بل تطلب العشيرة او القبيلة الحاق خسارة مثل خسارتها بالعشيرة او القبيلة التي خرج منها الاعتداء او القتل . وكل مقتول هو للعشيرة اعتداء عليها هي .

والثأر يؤلف وجهة الحقوق الجزائية الوحيدة في الشعوب الاولية او المنحطة . وهو يدخل التقاليد ويرتقي فيها كما نجد عند العرب الذين ملأ الثأر تقاليدهم وحكاياتهم وقصائدهم حتى اصبح واحدهم يكاد لا يعيش لشيء الا « ليدرك ثأراً اوليدرك مغنما » .

ويظهر جلياً سبب الثأر المذكور آنفاً في شعر لحسان بن ثابت وهو:

وشريف لشريف ماجد . لا نباليه لدى وقع الاسل !

فالثأر ليس للقصاص من اجل العدل الاجتماعي بل للتعويض عن الخسارة. واصبح تقدير هذه الخسارة مضماراً للمسابقة الشعرية والتفاخر بين القبائل :

---

1 HH ج 5 ص 323 وما يلي.

نحن قتلنا سيدهم بشيخنا   سويد ، فما كانا وفاء به دما [1]

وقول الاخر :

اصبنا به من خيرة القوم سبعة   كراما ولم نأكل به حشف النخل [2]

اما في قبائل غينيا الجديدة فالثأر يجب ان يتصل بالواتر ولو بعد قتل عدة من اهله قبله [3] .

وقد ادى تأصل عادة الثأر والمغالاة بـه الى حروب كثيرة لم يوقفها الا نشوء عادة التعويض المادي عن الخسارة اي الدية [4] او « تعفية الكلوم » كما في قول زهير بن ابي سلمى:

تعفى الكلوم بالمئين فاصبحت   ينجمها من ليس فيها بمجرم

اما الحقوق الجزائية الداخلية اي التي تتعلق بما يرتكبه الرجل في عشيرته وقبيلته فشأنها يختلف عن حقوق الجزاء الخارجي . والسبب عامـل حفظ النوع المصغر في العشيرة او القبيلة .فالانسانية والاجتماع الانساني لرجـل العشيرة او القبيلة هما عشيرته او قبيلته . وهذا العامـل يهم الجماعة في مصيرها ولذلك لا يكون ضمن العشيرة حرب وقتال في سبيل الثـار . والقبيلة تحتاط لنفسها ضد اهل الشقاوة الداخليين بطردهم او برفع حمايتها عنهم .

وقد وجدت الجماعات الاولية مخرجا مما يجر اليه الثأر في حقوق الاجارة، خصوصاً في المجاميع التي اخذ فيها نظام العشيرة ينحل في القرية الى نظام العائلة الفردية والثأر الفردي .

---

1 الاغاني 17 : 116 راجع ايضا 15 : 73 - 75 . 16 : 32 . 53 - 54
2 ايضا 16 : 56
3 كولر ص 37
4 كولر ص 98 . فيركنط ، رسالته المذكورة ص 12

في الدولة

واقع الدولة • اثبتنافيما تقدم صورة للحقوق الاهلية التي هي نتيجة القوى المناقبية التي تعمل في المجتمع لتأمين سلامته . وفي هذه الحقوق لا نجد الدولة بل المجتمع واوهامه (دينه) وعاداته . ولسنا نجد واقع الدولة الا حيث نجد في المجتمع قوة فيزيائية تخضع او ترهب [1] .

ولكن لا بد لنا هنا من العودة الى ما قلناه في اوائل هذا الفصل من انه لا يمكن تعيين حدود حقيقية فاصلة بين طور من اطوار الثقافة الاجتماعية وغيره . ففي رجوعنا الى اوائل عهد الدولة نظل نتوغل في الماضي او ننحدر مراقي الثقافة حتى نبلغ نقطة تلتقي عندها السياسة بالاجتماع فكأنهما شيء واحد. ففي الشعوب التي لا تزال قيد الفطرة ، بالنسبة الى الشعوب الثقافية ، نجد نقطة الاتصال بين الدولة والمجتمع في الطوطمية (ص 77) ففي تقارب الطواطم بعضها من بعض واتحاد عشائرها في الزواج وانشاء الطوطم المكاني، الذي يجمع الكل في متحد اجتماعي ينقسم الى طواطم فرعية نجد نظام الدولة العشائرية او القبيلية التي لا يكون جزءاً منها الا من هو ابن العشيرة الداخلة في هذا النظام [2] .

بيد ان هذا الاتحاد لا يكفي للدلالة على واقع الدولة .فقد تجتمع العشائر

---

1 فيركنط ص 2 . وقد تصرفنا في عبارته الاصلية القائلة : « قوة فيزيائية يستخدمها المجموع للاخضاع ، او على الاقل ، للتهديد بها » لاننا لا نجد الدولة دائماً آلة في يد المجموع ، كما سنرى ، بل كثيرا ما نجد العكس .

2 كولر ص 33

وليس لها في تنظيم احوالها من الوسائل سوى المناقبية منها [1] . وهي العادة والعرف والتسليم للاوهام . ويندر الخروج على هذه القوى بين الافراد لتساوي النظر في الحياة ونقص الاستقلال النفساني في الجماعات الاولية [2] . ورويداً رويداً نبتدىء نلاحظ ظواهر اجتماعية جديدة نشأت مع الاستئثار بالمرأة والبطولة في المعارك والاقدام في الصيد وهذه الظاهرة هي : قيام الرأس، او الشيخ ، على العشيرة . فان الشيوخ قضوا على ما كان باقياً من دستور الطوطم وانشأوا المملكة الخاصة او بالحري الامارة ؛ واسسوا سلطتهم عليها [3] وفركنط [4] يزعم ان الرؤوس يظهرون في تركيب دولي اعلى من الدرجة الاولى تتفرع منه وحدات اصغر منه . ومما لا شك فيه ان الدرجة التي يظهر عليها الشيخ هي فوق درجة الطوطمية ، اذ تكون المشيخة قد قضت على الطوطمية . ولكننا هنا فقط نجد صورة الدولة في مايمكن ان نسميه سلطة، او اداة تنفيذية ، او قوة فيزيائية .

فوارق السلطة • كل دولة مهما كانت بسيطة تتألف من ثلاث وظائف: تشريعية وتنفيذية وقضائية ، تقوم على ثلاثة اصناف « سياسية » لكل مجتمع له ابتداء دولة هي: الجنس والسن والشخصية، يضاف اليها ، مع تقدم العمران، صنف العبيد . وكان طبيعياً ان يعين الجنس الدولة ، اذ لما كان اهم عناصر الدولة القوة التي بها تتم السلطة كان بديهياً ان يقوم الجنس القوي ـ الرجال ـ بامر الدولة . اما المرأة فمع انه كان لها حرية في تصرفها في عهد الزواج الشيوعي الاجماعي فهي لم تكن تشترك في الحياة السياسية الا نادراً واندر منه ان يكون لها نفوذ راجح فيها . والعبيد ايضاً لم يكن لهم شأن قط في الحياة

---

1 فركنط ، ص 2

2 ايضا نفس المكان

3 كولر ص 34

4 بحثه ص 4

السياسية ، اللهم الا المشاكل العديدة الناشئة عن وجودهم وكثرتهم .

ان الصنف الهام الذي كان له التأثير الارجح هو السن. فحيث الحياة تجري بالاختبار المباشر يكون للسن اهمية فاصلة في البت في شؤون المجتمع السياسية ، وكلما ارتقت الشعوب في حياة الاختبار مداورة وتشعبت العلوم وتراكمت موادها بفضل الابجدية ، هبطت اهمية السن من حياة المجتمع السياسية .

يأتي بعد السن ، وفي درجة اعلى منه ، الشخصية . ومع اننا نعلم ان شخصية الفرد من وجهة نفسية (عقلية) عصرية لا وجود لها في الاقوام الآخذة بالفطرة فان الفوارق الشخصية فيها ليست معدومة بالمرة . ذلك لان المواهب الطبيعية ليست عقلية فقط ، بل فيزيائية ايضاً . فتفوق بعض افراد العشيرة او القبيلة في حروبه وغزواته يكسبه شخصية بالنسبة الى حالة عشيرته او قبيلته الاجتماعية . وهكذا نجد وظائف الدولة تقابل بتشكيل الدولة من الشيخ او الامير وشيوخ القبيلة او العشيرة واجتماع الشعب . وحيث يتسع نطاق الدولة يسقط اجتماع الشعب ويبقى الامير والشيوخ . ولا يعني هذا التقسيم مطلقا ان هنالك توزيعا لوظائف الدولة يجعل السلطة التشريعية او التنفيذية في الامير او مجلس الشيوخ على ان يكون كل منها مرجعاً خاصاً لاحداها وكذلك القضاء .

الاتصال بعالم الارواح والتشريع والقضاء . يصعب كثيراً على السوري العريق في المدنية والفلسفة العقلية ان يتصور اليوم حالة الاوهام التي كانت للانسان الاول والتي لا يزال عليها بعض الشعوب الابتدائية الملازمة للفطرة. فان الرعب والوهم وهواجس الخوف والحياء تجاه الطبيعة الفائقة القوة ولدت في الانسان الفطري تصور قوى مغيبة تسيطر على الطبيعة والروح الانسانية . وقاده هذا التصور الى محاولة اتقاء شر هذه القوى الخفية بتخطيط قواعد لحياته . وهذا هو اصل العقائد الروحية التي اخذ الانسان المرتقي يعالجها

حتى بلغ بها فكرة الله ، ثم هو اخذ الان في معالجة هـذه الفكـرة نفسها ليجعل من الدين مثالاً اعلى جميلا ، خالياً من صور الرهبـة والتهويل مجرداً من المشوقات المذهبية .

ادى تصور القوى الخفية المخيفة الى عقائد غريبة منها عبادة الاجـداد وتصور عالم ارواح تأتي منه الروح وتعود اليه . ولم يطل الوقت حتى نشأ سلك السحرة والعرافين ، اسلاف الكهنة والقسس والانبياء . فكان لهم تأثير كبير على المجموع باعلان ارادة عالم الارواح الذي كانوا يدعون الاتصال به وهكذا تمكنوا من انشاء عادات جديدة واتخذوا لانفسهم صلاحية اصدار الاحكام باسم الارواح المحجوبة ، باسم الآلهة .

وليس قليلا تأثير الاعتقـاد بالارواح وبالاتصال بارواح الجـدود على الحقوق الاولية وممارستها خصوصاً فيما يتعلق بالثأر ومنه الاثر الآخذ في الزوال من الادب في سورية الظاهر في المجاز : « عظام الجدود تنتفض في قبورها » . ومن مثل هذه المعتقدات انشئت مؤسسة الطابو Tabu السحرية التي صار لها تأثير كبير على الحقوق «المدنية» والادارة العامة كما سيجيء.

وهكذا نجدان التشريع كان يستند في البدء الى السحر والعرافة (الدين)، فضلا عن العادة التي هي اول القوانين . فيكفي ، لدى الشعوب الفطرية ، ان تعلن سابقة او وحي من عالم الارواح تعزى الى بعض الجدود المشهورين [1] لسن قانون جديد . وان من اهم قوانين الجماعات الاولية : ما مشى عليه الاجداد . فالاجداد مقدسون ، بل هم آلهة ، وكل ما كان جيـداً لهم يجب ان يكون جيداً للابناء .

ولكن هذه الجماعات ، او المتقدمة منها،لا تعـدم سن القوانين بالاستنباط

---

1 فيركنط ص 5

الفردي ، كما يجري في بعض قبائل شرقي استراليا ، حيث تجتمع عشائر القبيلة في وقت معين من السنة فيقترح احد الشيوخ رأيا قد يكون بحثه مع هيئة شيوخ عشيرته فاذا لاقى اقتراحه الاستحسان صار قانونـاً [1] وفي الجنوب الشرقي من استراليا يقوم مقام الراس في طرح الاقتراح الساحر او العراف الذي يدعي انه قد رأى في نومه او انه قد اوحي اليه .

الشكل الديمقراطي . لـلدولة ثلاثة اشـكال رئيسية هي الديمقراطية والاوطقراطية والارستقراطية . او هي حكم الشعب وحـكم الفرد المطلق وحكم الاقلية المفضلة . وفي ابسط وأولى حالات الدولة التي هي ابسط حالات التطور الاجتماعي نجد الشكل الديمقراطي للدولة في العشيرة او القرية ،حيث يمكن اجتماع الشعب كله . وحيث الدولة اوسع من القرية او العشيرة فالعشيرة او القرية تتمتع باستقلال اداري تام فالطوطمية تزول ولكن الاساس الذي قامت عليه يبقى .

يتألف شكل هذه الدولة الديمقراطي من الرأس ومجلس الشيوخ او مجموع الشعب. ومجلس الشيوخ يتألف من رؤساء البيوت او العائلات او العشائر التي هي من صلب القبيلة . وفي هذه الحالة يكون الرأس مقيداً برأي المجلس او الجماعـة . وفي الدولة القبيلة او الارضية المتسعة لا سبيل لاجتماع الشعب فيكون الشأن دائماً للشيوخ . وهذا الطابع هو من خصائص دول الشعوب الفطرية التي لا قياس لها في المجتمعات المرتقية العمرانية . وهو شكل يجمع بين شكلين : ارستقراطية السن والتمثيل الشعبي. فان امتياز الشيوخ يـكاد يكون طبقة ارستقراطية في حين ان علاقتهم بالشعب متينة الى حد يكتسبون عنده صفة التمثيل والنيابة [2] وعلى هذا اكثر الشعوب الصيادة وجامعة القوت في استراليا والاسكيمو وهنودامير كا والشعوب المتبدية في آسيا وافريقيـا [3]

---

1 فيركنط ص 5

2 ايضا المكان عينه

3 ايضا المكان عينه

وظهور هذا الشكل في اقل الشعوب ثقافة يعطينا الدليل الاثنلوجي على اسبقية الديمقراطية واذا كانت الشيوعية قد سبقتها ، كما رأيت فيما تقدم من هذا الفصل ومن الفصل السابق ، فتلك حالة اجتماعية بحت لا نظام سياسي .

الشكل الاوطقراطي ٠ان الشكل الديمقراطي المتقدم وصفه هو من خصائص الجماعات الاولية والشعوب التي لا قابلية لها لانشاء الدولة الارضية المنظمة (Territorial) او التي لا تمكنها احوالها من ذلك . وهو فوق ذلك يدل على انصراف الى نوع من الحياة بعيد عن الحرب والفتح والتوسع. ولعل الحرب ادعى الامور الى نشوء الشكل الاوطقراطي ولعل الملكية الصغيرة نشأت على يد البطل الحربي الظافر [1] . وليس اوهى من النظام السابق في الحالات الحربية التي تقتضي دفاعا شديداً ضد عدو قوي او اعداد حملة منظمة على بلاد . ولذلك نرى في بعض القبائل تنظيما ثنائياً يقابل حالتي السلم والحرب فلحالةالسلم رأس ضعيف القوة وللحرب رأس واسع السلطة[2] . ومن تحول سلطة هذا الاخير الى الثبات والاستمرار ينشأ الشكل الاوطقراطي . وبعد نشوئه لا تبقى له حاجة الى شرط بقاء الحرب ، فيصبح الرأس اميراً مطاعا في الامر والنهي وفي يده الحياة والموت . ويصبح المبرر لوجوده نسبه او حسبه او ثروته او ظهور سلطة له على القوى الخفية من عالم الارواح . وابرز صورة لهذا الشكل تبدو في دول الزنوج الاستبدادية . فالرأس او الامير سرديني (سحري) . وفي بعض القبائل يحتجب شخصه عن الناس ويشدد في ذلك حتى ليجازى من رآه يأكل بالموت [3] .

ولكن الشكل الاوطقراطي لا يكون دائماً بهذه الفظاعة . ففيه ايضا مجال للاجتماع الشعبي العام وللشورى . وتضعفه بعض العادات الراسخة في

---

1 ليوبولد ونقر AVV ص 18

2 فيركنط ص 7

3 كولر ص 35

التقليد كعادة اقصاء المراهق عن المجتمع الى البرية ليتعود الاحتمال والخشونة فيتكون من مجموع المراهقين نوع من جمعية تضمهم في احوالهم الخاصة ، ثم لا تلبث ان يصير لها شأن في المجتمع [1] . ولا يستطيع الرأس الحاكم بامره التخلص من وظائف الشيوخ الشورية . والموظفون في دائرة الجباية والنظر في بعض المصالح يمتزج في خدمتهم الامير تمثيل المصالح القائمين عليها ويكونون الواسطة لابلاغ رغائب التابعين الى الامير .

الاقطاع . في الدول الاوطقراطية التي تتغلب على ما جاورها يظهر الاقطاع بشكل ولاية لرجل من اهل الامير يتصرف بالمقاطعة الموكلة اليه بمطلق ارادته [2] ، يأمر وينهي ويجبي كيفما شاء . ويكون طابع هذه الدولة استبداديا ولكن هنا ايضاً تدخل عوامل تضعف الاستبداد منها اجتماع الاشراف ووجود مجال لاجتماع الشعب ايضا . واحيانا ضعف الامير وعجزه عن القبض على ازمة الامور بقوة . وهكذا نجد عنصر الديمقراطية حتى في الدولة الاستبدادية الا ان هذا العنصر يكون من حظ الفاتحين فقط ، اما المغلوبون فعليهم الطاعة والخضوع . وطريقة اجتماع الشعب الديمقراطية تكون بالاجتماعات المعقودة في القرى برئاسة شيخ القرية للبحث في شؤون القرية الداخلية . ويكون فوق هذه الاجتماعات اجتماعات اكبر لكل منطقة الدولة لحل الاختلافات التي لا يمكن حلها في الاجتماعات القروية [3] .

الشكل الارستقراطي . نرتقي من الشكلين المتقدمين الى الشكل الارستقراطي عن طريق الاقطاع . وينشأ هذا الشكل في ارقى الشعوب الفطرية ثقافة كالبوانسيين الذين لهم زراعة واقامة ، وفيهم تنشأ البيوتات الكبيرة الجامعة العبيد والارقاء والقائمة باود اهلها منفردة . فهنا نجد للدولة ملكاً او اميراً والى جانبه طبقة النبلاء التي تفصل بينها وبين العامة شقة بعيدة.

---

1 كولر ص 15 ـ 1 . فيركنط ، بحثه
2 فيركنط ص 9
3 ايضا المكان عينه

والشعب يرى في الامير سر قوة الهية فلا يتقدم اليه الاتباع الا ركعاً . وله سلطة على الحياة والموت . الا ان سلطته تخف جداً تجاه الاشراف الذين يهمه امرهم والذين كثيراً ما يؤلفون مجلس شورى يقيم بعض الحدود للسلطة المطلقة التي يتمتع بها الامير .

ادارة الدولة . هكذا الدولة الاولية في اشكالها السياسية . ولا بد لنا لاكمال نظرتنا فيها، من لمحة تتناول ادارتها . وهي ضئيلة جداً ، لان الادارة ظلت متأخرة جداً عن النظام الدستوري للدولة ، ولذلك لا يصح مطلقاً ان نطلق على الدولة الاولية اسم منظمة فهذا الاسم تحتفظ به الدولة التاريخية التي شكلت الادارات وسجلت الحقوق القانونية .

ولا شك في ان العادة وما مشى عليه الجدود شكلا قسما كبيراً من الادارة وعاقا نشوء الادارة الفعلية . ومن هذه الجهة تبدو لنا اهمية الرأس او الامير حيث الوظائف والمكاتب الادارية معدومة . فحين يكون الامير قويا طموحا تمتد الدولة وحين يكون خامل الهمة تضعف الدولة وتتقلص .

والعقائد والاوهام الدينية (السحرية والخرافية) تلعب دوراً هاما في عرقلة تقدم الادارة ، فنفوذ السحرة كبير وتسلطهم على العامة عظيم حتى ان رأس الدولة في المرتبة الديمقراطية يتخذ لنفسه وظيفة الساحر ويستمد من هذه الوظيفة نفوذاً اداريا لا يستهان به . ولكن ليس كل الرؤوس مؤهلين للاعمال السحرية ولذلك تظل الكهانة قائمة وتتخذ لنفسها وظائف دولية كالقيام بنصيب من التشريع .

واننا نرى سياسة الدولة الاقتصادية تستند على الدين فتتخذ من الطابو وسيلة لحفظ حقوق الامتلاك فاستخدمته اقوى الطبقات الاجتماعية لمنع الناس من استعمال او استثمار بعض المناطق والممتلكات . والطابو مستمد من الاعتقاد بالاتصال بعالم الارواح الذي هو من خصائص السحرة . فتطوب الممتلكات وتصبح محرمة فكل من اعتدى عليها يخرق حرمة الطابو ويعرض نفسه لغضب عالم الارواح ، ثم ارتقى هذا التعريض الى انزال العقاب الدنيوي

بكل من تسول له نفسه انتهاك قداسة الطابو [1] .

وتتناول الادارة عدا ما تقدم «دخولية» السوق فيعين الرأس او الامير حراسا ليتحققوا من نزع سلاح القادمين الى السوق وقضاة لحل المسائل الحادثة اثناء السوق ويفرض الرأس ضريبة « الدخولية » وضرائب اخرى ينزلها بالقوم المغلوبين . وفي الدول الاستبدادية تتخذ الضرائب شكلا من السلب لايقتصر على مؤدي الجزية بل كثيراً مايتناول اتباع الامير انفسهم

في الدولة التاريخية

يظهر لنا في ما تقدم صورة جلية لكيفية نشوء الدولة بعامل الحياة الانسانية. ومنذ نشأت الدولة اصبحت هي شخصية المجتمع وصورته ، يعظم بعظمتها ويصغر بصغرها واننا نرى ابن خلدون في مقدمته قصر اجتهاده على تعريف شكل واحد للمتحد الاجتماعي هو الدولة . فالدولة هي التي صهرت جماعات متباينة في بوتقة واحدة و كونت من المزيج وحدة نظامية حينما مكنت من ذلك البيئة ووجهة الحياة . والحقيقة ان الدولة ما كادت تشعر بوجودها و كونها سلطة في المجتمع حتى اخذت تسيطر على المجتمع وتصرفه في اغراضها. الدولة هي التي تشكل المجتمع وتعين مداه وتكيف شؤون حياته وتمثل شخصيته. هكذا نجد الدولة المنبثقة مع فجر التاريخ ، وهكذا تنشيء الدول التاريخ.

يبتديء عهد الدولة التاريخية ، في الاقوام الثقافية الخارجة من العصر الحجري الى العصر المعدني ، وهي الاقوام السامية في سورية (بابل وارض كنعان) والحامية في مصر ، كما اشرنا الى ذلك سابقاً ص 99 ، بالانتقال من التنظيم العشائري الى دولة الارض وبحول الامير ذي القوة السحرية الخرافية الى ملك هو الاله او كاهنه الاعلى ، هو بهاء الشمس المشرقة . في

---

1 فيركنط ص 13 كولر ، ص 18

الاساطير المصرية ان الالهة انشأت الدولة المصرية ، كما انشأت العالم وانظمته [1]
وفي المملكة المصرية الجنوبية ، قبل ميناس بزمان ، نجد هورس ، اقدم اله
مصري قومي ، متجسداً في الملك [2] ويذهب ماير [3] الى ان الحالة في المملكة
الشمالية لم تكن تختلف عن هذا الشكل .

الدولة الاستبدادية وعهد الامبراطوريات الاولى . الحقيقة اننا لا ننتقل
دفعة واحدة من مرتبة الدولة الاولية الى مرتبة الدولة التاريخية الناشئة في
سورية (بابل واشور) وفي مصر ، بل هنالك مرتبة وسطى لا بد لنا من الالماع اليها
هي مرتبة دول الشعوب المتوسطة بين الشعوب الاولية والشعوب الثقافية .

على هذه المرتبة المتوسطة نجد امبراطورية الازتك المكسيكية الدالة على
طور ثقافي عال نوعا . فان شعب الازتك كان قد اخترع كتابة خاصة لا
علاقة لها بكتابة الشعوب الاسيوية لها مزية قابلية التطور نحو الكتابة الصوتية
المقطعية ، وانشأ دولة واسعة الاطراف بقي لنا منها قسم من كتاب في الحقوق
الجزائية لعهد الملك « نزاهو الكويتل » الذي ملك من 1431 الى 1472 [4] .
وكان لهذا الشعب عادات تشابه عادات العالم القديم كعادة الختان والمعمودية
بالماء .

وفي هذه الدرجة ايضاً امبراطورية الانكا البيروانية وهي امبراطورية
قامت على الحرب والفتح وملوكها آلهة متحدرون من الاله الشمس ومن
تقاليد ملوكهم تزاوج الاخ والاخت وفاقا للتقاليد الدينية . والملك هو في
الوقت نفسه رئيس كهنة الشمس والروح الكونية . ويجيء بعده سلك من
الكهنوت لا بأس بترتيبه . ولكن الانكا ، اجمالا ، احط ثقافة من الازتك

---

1 ادوار ماير ، ج ١ . ف 192

2 ايضا ف 199 . كولر ص 66

3 ص 199

4 كولر ص 51

فليس لهم كتابة [1] .

ومن الشعوب الشقيقة للشعوب الثقافية ولم تتمكن ، لظروفها الخاصة ، من بلوغ مرتبة الدولة الثقافية التاريخية : العرب والمغول . ففي بلاد العرب اوجد محمد الدولة الدينية التي ما لبثت ان انتقلت الى خارج بلاد العرب حيث دخلت في حوزة الشعوب الثقافية المنشئة الدول . وفي بلاد المغول المشهورين بفروسيتهم وقوة سياسييهم نشأت بعض الدول التي دخلت التاريخ وقامت بفتوحات واسعة ، خصوصاً في الصين ، التي دخلها اتباع جنكيزخان، والهند. ولكن شعوب المغول الباقية ، كالقلموق ، فان دولتهم تشبه الدولة في بلاد العرب من حيث انها دولة قبائل يؤلف العرف نصوص حقوقها والاوامر والنواهي الدينية شرعها . وقد عرض ابن خلدون ، في مقدمته ، للاسباب التي تحول دون نشوء الدولة في العرب ومن في حكمهم الاعلى اساس دعوة دينية ولكنه لم يستوف هذه الاسباب.

واننا نجد الدولة التاريخية نفسها مستندة في بدئها الى اساس ديني حتى اننا نجد شبهاً عظيما بين ملوك مصر قبل ميناس وملوك الانكا في اميركا الجنوبية ولكن الدولة التاريخية استمرت وتطورت مع تطور الشعوب .

طبعت الدولة التاريخية في بدء نشوئها بطابع الاستبداد ، لان الدولة بطبيعتها قوة والقوة تطلب دائماً السيطرة . وطرليف شيلدرب ـ ابه [2] يقول ان الاستبداد هو المبدأ الاساسي للاجتماع الانساني والحيواني والنباتي ،بل وللجماد ايضا . ونزيد ان الاستبداد هو الفكر الاساسي للعالم . وما نريد ان نتوغل هنا في مثل هذه المذاهب الفلسفية في طبيعة الدولة والاجتماع . ولكننا نقول ان الدولة الشاعرة بقوتها في عهد لا ارادة ظاهرة فيه سوى ارادتها لم يكن

---

1 كولرص 52

2 ABS ، ج 2 ص 82

لها مندوحة عن الاستبداد . فهي كانت شيئا فوق المتحد الاجتماعي وكانت تدعي سلطة من عالم فوق هذا العالم . اما الارادة العامة التي هي من خصائص كل متحد فكانت شيئاً اما باطناً واما كامناً . ولم تكن الدولة فقط تدعي سلطة الله ، بل كان الناس يعبدون الملوك عبادة . ففي الدولة المصرية الوسطى اوصى أب أولاده: مجدوا الملك في قلوبكم، فهو اله الحكمة التي تبصر عيناه ما في القلوب ، هو رع الذي نبصر لمعانه ، هو يضيء مصرا اكثر من الشمس ويجعل الارض اخصب مما يجعلها النيل الكبير ، هو يطعم عابري سبيله . الملك روح خالق وباريء الناس الخ [1] . وكما اوجدت الآلهة المملكة المصرية كذلك اسست الآلهة مملكة حمورابي واسلافه فهي لا تزول حتى تزول السماء والارض، كما يقول الملك نفسه [2] .

لا مجال ، في هذا البدء التاريخي للدولة ، في هذه الدولة التي اسستها الالهة، لتعريف القوة السائدة بانها « من صفات الارادة العامة التي عممها الاتحاد في القصد »[3] . فالقصد هو قصد الدولة ، قصد القوة السائدة المسيطرة، قصد الملك الذي استأصل شأفة الثأر وجعل الحقوق الجزائية من شأنه [4] وانشأ الجيش وسيره للفتح والسلب . وتصريف شؤون الدولة امر متفق عليه بين الملك والاله المتجسد فيه .

لما كانت هذه الدولة القائمة بارادتها قد نشأت في مهد الثقافة ، في الشرق الادنى ، خلط المؤرخون والدارسون القدماء بين طبيعة الدولة وطبيعة الشرق، بين طور من اطوار الثقافة والشعوب المنشئة الثقافة بين الشعوب المتقدمة والشعوب الجامدة . ولا يزال هذا الخلط يردد حتى الان .

سارت الدولة التاريخية نحو الامبراطورية بعامل مبدأ القوة . والدولة المتسعة كانت تمثل انتصار فكرة القوة في السياسة على فكرة العدل فيها [5]

---

1 ونقر AVVص 21

2 ايضاص 20

3 مكيور كتابه المذكور ص 14

4 كولر ص57

5 مكيور ايضا ص 25

فقد تخلت الدولة عن تلك الديمقراطية الاولية الملازمة لحالة كل اشكالها وقواها رهن القوت الضروري ، واتخذت من اسباب الثقافة المرتقية في اعمال الانتاج والخزن وسيلة لتنفيذ ارادتها . وهكذا تمت لها السيطرة التي اصبحت محور المزاحمة بين طبقة الملاكين الارستقراطية والملك . ولكن سياسة الامبراطورية كانت في جانب الملك لما تقتضيه من التمركز خصوصاً حيثما كانت الخطط خطط الملك كما في بابل ومصر .

وبديهي ان تمركز القوة تمركزاً نظامياً لا يمكن ان ينشأ في حالة البداوة وبين الرعاة وهو عند اهل الزراعة والفلح اضعف منه عند اهل المدن ولذلك نجد القوة في المناطق الحضرية متمركزة في اهل المدينة . وان قوة بابل العظيمة تعزى الى المدن التي نشأت في شنعار اكثر مما تعزى الى غنى الارض . ومتى علمنا ان عدداً من المدن الصغيرة في منطقة تكاد لا تتجاوز الخمسين ميلا طولا والعشرة اميال عرضا [1] هي الاساس الذي بنت عليه بابل عظمتها وقوتها الامبراطورية ادركنا اهمية المدينة للدولة الرامية الى الاتساع .

في بابل وممفيس تمركزت القوة والادارة حتى اصبحت ارادة الفرد الملك هي كل شيء في الدولة . ولكننا نجد فرقا ظاهراً في تفرد النظامين السوري (الشنعاري) والمصري . فمع ان حمورابي لبى دعوة الالهة ليقيم القسطاس في الناس فان شريعته الشهيرة التي خلدت ذكره كلها احكام زمنية دنيوية وليس في بابل لسلك الكهنة الشأن الذي كان له في مصر في الدولة الجديدة حيث شغل الكهنة وظائف الدولة . هنا نشب نزاع شديد بين قوة الدولة الزمنية وسلطة الكهنة لعهد اخنتون [2] . ولكن المحاولة الاصلاحية القائلة بوحدة الاله التي نادت بها الملكية خابت ودلت عودة العبادة القديمة على ان قوة السلك

---

1 مايرج ا.ق 2 ف 360

2 ونقر ابضاص 25

الكهنوتي كانت اشدمن قوة الملك الذي اصبح لا يحمل من الحكم سوى اسمه بينما الفصل في اهم الشؤون يلقيه امون الى رئيس الكهنة فكانت خطط الفكر بين سورية ومصر عظيمة واكيدة . ولكننا مع ذلك لا نرى في مصر ولا في اية دولة اخرى ما نراه في الهند من قوة الكهنة الذين شكلوا طبقـة احتكرت السلطة ، فهنالك تنص القوانين على خضوع الملك الحاكم بمفرده للكهنة . وقد قوي سلك هؤلاء وبلغ من استفحال امره ان اصبح من واجبات الملك المتوج اداء يمين الاخلاص للكهنة البرهمانيين الذين لهم الكلمة النافذة في اعلان الحرب ووضع السلم ، وفي السياسة والقضاء والتنفيذ والتشريع [1] . والارجح ان هذا هو السبب في بقاء الهند بلا امبراطورية ولا ديمقراطيـة الى العصر الحاضر .

كان للتفرد في السلطة في بابل ومصر ، خصوصا في الاولى ، الشأن الاعظم في تنظيم الدولة وترتيب الامبراطورية . فان المسؤولية تجـاه الملك وامكان مراجعة الرعية الملك في اي امر كبير او صغير منع تولد سيطرة النبلاء وذهاب السلطة الى ايديهم واغلق باب التلاعب بالمقدرات لهم. والحقيقة اننا نجد جذور الديمقراطية الحديثة في سلطة الفرد التي انقذت السيادة من مطامح الاقلية الممتازة او كما يقول مكيور [2] ؛ على هذه الطريقة اعـدت الملكية طريق الديمقراطية .

نظمت الدولة المركزية ذات السلطة الفردية الادارة العامة والجيش . ففي بابل نظمت المكتبية بكل دقة وكانت العناية بموظفي الحكومة كبيرة . وكانت الدولة تأخذ على نفسها تحرير الاسرى الذين يقعون في ايدي العدو حين لا يكون لهم ما يفكهم [3] . وكان نظـام توزيع الثروة والاشتراك في

---

1 ونقر ص 26

2 كتابه المذكور ص 59

3 كولر ص 62 . ونقر ص 28

الدولة يقوم على استثمار المشاع بحيث تحدد للمرءارض يعمل فيهاويعطي الزائد عن حاجته للدولة لقاء استعداده للانخراط في الجيش والاشتراك في الحملات الحربية . وقد كان الجيش في بابل ومصر من ابناء الدولة شعبياً . وكانت الدولة السورية في عهد حمورابي تمتاز على الدولة المصرية بتنظيم الجيش في ايام السلم والحرب ففي شريعة حمورابي كان استئجار الجنديعاقب بالاعدام [1] وقد ارتفع لذلك الفن الحربي عند البابليين فعنهم نقل المكدونيون فن الحصار ومن فنونهم محطات النار التي عرفت فيما بعد بالنار الاغريقية [2] . اما في مصر فلم يكن للجيش مكانة ممتازة في الامبراطورية المتوسطة ، وان كانت هذه الدولة قد سجلت لنفسها بعض الانتصارات الهزيلة. والفضل في رفع الجيش المصري في الامبراطورية الجديدة الى مستوى مشرف يعود الى الملوك السوريين ، الهكسوس [3] الذين اعادوا تنظيم الجيش . ولكن الامبراطورية الجديدة استندت في تقوية الجيش الى استئجار الجند فكان ذلك من اكبر العيوب التي أدت الى عواقب وخيمة كالعواقب التي نزلت بالامبراطورية القرطاضية ، كما سيجيء ، اذ ان مايبقي الجيش المأجور قائماً هو رنين النقدلا صوت الملك. والجيش الذى ساعد بزمتيخ Psammeiich على انشاء دولته اخذيتناول اجرته من فارس بعد نكبة بلوسيوم .

اما الادارة العامة فقد اشرنا الى أنهـا كانت متمركزة وصحيح ان الفرد المتسلط بصفة ملك كان له مجلس يستشيره في امور الدولة ولكن هذا المجلس لم يكن له شأن المجلس الوزاري الذي نعرفه واخبار حمورابي تدل على كثرة ما كان يمر على يدي الملك من الشؤون . فهو الذي كان يهتم بالاعمال الزراعية

---

1 ونقر ص 29

2 ايضا ص 27

3 ايضا ص29

كالري وبناء المخازن لايام الجدب وما شاكل وهو مرجع كل امر كبير او صغير.

مما تقدم لنا في هذا الأستعراض نرى ان الدولة الامبراطورية عرفت السيادة بمعنى التملك وحولت الثروة العامة الى ملك خاص ولكن السلطة الفردية انقذت الشعب من استبداد الطبقة ، حيث وجدت ، الا في الهندحيث برهنت الطبقات على انها اشد ارتكازاً من سلطة الملك الفرد.

جرت الدولة على خطة الاتساع الارضي فسيطرت على شعوب متعددة وبقاع واسعة فقد قامت بابل ثم سقطت وقامت اشور التي جرت على الاسلوب نفسه ثم عادت الدولة البابلية الجديدة على سواعد الكلدان الذين هم فرع من الاراميين فكسرت شوكة الاشوريين وبسطت سلطانها عليهم . وحمورابي نفسه كان سوريا اموري الاصل [1] . ونشأت في سورية دولة قوية بسطت سلطانها على مصر ونقلت مركزها اليها . كما عادت مصر فوسعت سلطانها و كما انحدر الفرس على امبراطورية الكلدان وبسطوا سيطرتهم على بقاع مترامية الاطراف.

في كل هذا التاريخ الطويل نعرف المجتمع في الدولة السائدة فالشعب تابع لها ، فلا كيان للاقوام غير كيان الدولة ، وان احتفظت بعباداتها وطقوسها، بل اننا نجد الدولة آخذة في جبل المجتمع فهي قد جبلت الساميين والشمريين في « باب الله » (بابل) في سورية الشرقية وهي جبلت الشماليين بالجنوبيين في سورية الغربية.

الدولة المدنية والامبراطورية « البحرية » • ولكن الدولة لم تسر دائماً على الاسلوب المتقدم وصفه فهو من خصائص اسباب معينة في ظروف موافقة.

---

1 ظهر الاموريون ، في النصف الاول من الالف الثالث ق م ، هجرة اتجهت نحو سورية الغربية وتوطنت لبنان وانشأت فيه دولة خاصة . وقد نزح قسم من الاموريين بعد اقامتهم في غربي سورية الى شرقها الى شنعار . انظر مار ، ج ا . ق 2 ف 396 . وكانت لغتهم قريبة جدا من الكنعانية (الفينيقية) وظل العنصر الاموري منتشرا في الهلال السوري الخصيب كله. انظر ايضا فاتري Patrie

ففي سورية نجد الدولة تحتاج الى درس خاص سنتوسع فيه في الكتاب الثاني من هذا المؤلف . ولكن لا بد لنا هنا من ذكر ما له علاقة بالتطور العام للدولة في هذه البلاد .

ان سورية ايضاً ساهمت في الدولة البرية حيث ساعدت الظروف كما في الشرق حيث نشأت الامبراطورية الاكادية والامبراطورية الكلدانية وكما في الشمال حيث نشأت الامبراطورية الاشورية والحثية . واننا نعلم انه على اثر انتهاء الامبراطورية الوسطى في مصر قامت من سورية حركة امبراطورية واسعة اكتسحت مصر وثبتت نفسها هناك وانشأت الاسرة المعروفة باسرة الهكسوس الذين عرفوا ،باحدى الترجمات ، بالملوك الرعاة [1] . ولكن اتجاهاً خاصاً في الدولة نشأ في سورية كان له شأن غير الشأن العام الذي كان للدول في مصر والصين . ونرجح ان السبب الاقوى في نشوء هذا الاتجاه هو البيئة السورية المتنوعة ، خصوصاً الشاطيء السوري . فان البحر لم يكن للسوريين ما كانه لاقوام البلدان الاخرى : حداً يجب الوقوف عنده . ومن هذا الواقع ندرك ان التاريخ غير مكتوب على الاديم . فهو غير حتمي ، كما تظهره اقوال وكتابات كثير من السوريين في اعصر الخمول القومي واوضحها العبارة : ان سورية جسر بين الشرق والغرب ، اي ان تاريخها مقرر في موقعها . والحقيقة ان الارض تقدم الممكنات لا الاضطراريات او الحتميات وهذا يعني ان الارض هي الجهة الايجابية من التاريخ لا الجهة السلبية .فكون سورية ، مجازاً، صلة وصل بين الشرق والغرب لا يحتم مطلقاً ان يكون تاريخها تاريخ «جسر» ولدينا اكثر من برهان واحد على صحة ما نقول .

الحقيقة ان ما تألمت منه سورية منذ اقدم عصورها الى اليوم هو كونها موازية من الجنوب للصحراء الهاجمة على ارضها وانها معرضة دائماً لتسلط تيارات من هجرة القبائل المتبدية عليها . اما شكل الارض الداخلي فقدنوع

---

1 انظر بريستد ص 216 - 219 ايضامابر ، ج2 . ق 2 ف468

الممكنات للشعوب السورية ، بمقدار ما حددها في العصور القديمة. فان سلسلة جبل لبنان اوجدت صعوبة كبيرة لاعمال توسيع الدولة وتثبيتها . ولكن ليس هذا كل شيء، بل اننا نرى من الوجهة الشعبية اتجاهاً خاصاً. فان الكنعانيين انصرفوا الى اعمال الزرع والغرس والتجارة كما اشرنا الى ذلك آنفاً ، فلم يوجهوا عنايتهم الى الحرب والغزو الا نادراً ولذلك لم يقو فيهم الميل الى انشاء الامبراطوريات الاستبدادية الرامية الى التوسع في الارض وهم محاطون من الصحراء والجبال والبحر . اما في الشمال فان الارض تتسع مع مجرى الفرات والخابور والدجلة . وفيما سوى الدول الارضية الواسعة التي نشأت في الشمال ودولة الاموريين في لبنان وما وراءه نجد دول سورية تتخذ صبغة جديدة هي صبغة المدينة ، خصوصاً في الغرب ، على الشاطيء امام لبنان حيث نزل الفرع الفينيقي من الكنعانيين. هنا انشئت المدن صيدا وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد وصور وعكا وصارت كل مدينة دولة مستقلة، كما نشأت في الداخلية دول مدنية امتازت بينها دولة دمشق .

على الشاطيء السوري نشأت المدينة البحرية التي اوجدت اتجاهاً جديداً في الدولة وأنشأت الامبراطورية البحرية . فحتى نشوء هذه المدن كان البحر حداً تقف الدولة عنده لا مجالا تتوسع فيه ولما اخذت مراكب الفينيقيين تسبح في البحر وتتصل بجزر وشواطيء اخرى صالحة للاستعمار وجه هؤلاء الكنعانيون همهم الى هذه الامكانية الجديدة التي كانت لغيرهم حداً للامكانيات وتركوا اعباء البر بالمرة وانصرفوا الى اعباء البحر بالكلية . وهكذا نجد قوة من نوع جديد تنشأ على الشاطيء السوري وتمتد الى اماكن قصية وتقبض على مواردها فقد جمع الفينيقيون بين عنصرين يأتلفان كل الائتلاف : التجارة وسلك البحار ، القوة السياسية والقوة الاقتصادية .

كان من وراء هذا الاتجاه الجديد نشوء مبدأ الاستعاضة عن حشد الجيوش خطوطاً طويلة وفي حملات عديدة لاخضاع المتمردين او لتأمين السيطرة واعمال الجباية بانشاء النقاط المركزية المسيطرة ، وهي المستعمرات

المنشأة في نقاط معينة لتأمين المواصلات والحركات التجارية . اسلوب جديد للتوسع بوسائل جديدة . وقد برهن هذا الاسلوب عن فاعلية قوية ونتائج عظيمة .

ولا بد لنا هنا من الالماع الى ان المزايا الثقافية التي كانت للكنعانيين كانت عظيمة وقد رأينا ابداعها في اختراع الاحرف الهجائية . والشعوب الاخرى الآرية كالحثيين والمتني وغيرهم والسامية كالأموريين والاكاديين والكلدانيين والاشوريين والاراميين كانت ايضاً ذات مزايا ثقافية عالية وسندرس هذه العناصر السورية في الكتاب الثاني ونقتصر هنا على هذه اللمحة ، لكي نتمكن من درس الاتجاه الدولي الذي اوجد شكلا جديداً من اشكال الدولة ومرتبة جديدة من مراتب الثقافة السياسية . فالثقافة الكنعانية العريقة لم تقتصر على ماهو اجتماعي اقتصادي كالذي ذكر في الفصل السابق بل تناولت ما هو سياسي ايضا فالشريعة الكنعانية التي اخذ عنها العبرانيون شريعتهم الموسوية [1] تدل على الارتقاء السياسي العالي في جنوب سورية كما دلت الشريعة الحمورابية على الارتقاء السياسي العالي في شرق شمالي سورية .

في هذه الارض التي « تفيض لبناً وعسلا » لم يتشبث الكنعانيون بمبدأ المحافظة المغرقة ،الذي كثيراً ما يصبح من مزاج الفلاح العاكف على الارض، بل تنبهوا الى الممكنات الجديدة . ويمكننا ان نقول ان شعوب سورية كلها لم تكن شديدة المحافظة من هذه الجهة ، لاخذها باسباب التجارة واتصالها المستمر بالعالم الخارجي بواسطة الحرب والتجارة والاستعمار .

ادى ادراك الفينيقيين ممكنات البحر الى انشاء الامبراطورية البحرية . فالامبراطورية البحرية السورية كانت اول امبراطورية بحرية في العالم. وقد ابتدأت هذه الامبراطورية بمدينة صيدا التي كانت لها الزعامة الاولى على فينيقية وبلغت اوجها في صور وقرطاضة والحقيقة ان صيدا كانت المثال

---

1 انظر المستد ، المقدمة

الاول للدولة البحرية المسيطرة فالصيدو نيون هم اول من اكتشف النجم القطبي واول من ابحر في الليل [1] . ولما كانت الامبراطورية البحرية تقوم على التجارة والمواصلات اكثر مما تقوم على الاستيلاء على اراض برية واسعة تتطلب الحاميات الكبيرة و تكون معرضة للتفسخ بطبيعة تقسيمها الى ولايات واعمال فقدادرك هؤلاء السوريون البحريون بثاقب فكرهم اسرار ثبات الامبراطورية البحرية و كان نقل صور البرية الى الصخر البحري (صور معناها «صخر» [2]) الواقع على مرمى مقلاع من الشاطيء عمل نبوغ عظيم جعل الامبراطورية الصخرية في مأمن من غزوات جيوش بابل وأشور ، التي اصبحنا نراها تتجمع على الشاطيء وتهدد المدينة الصخرية ، عاصمة الامبراطورية الواسعة ، بقبضات الايدي !

بهذه الطريقة البديعة امنت صور سلامة امبراطوريتها من اخطار الامبراطورية السورية البرية «البابلية والاشورية» حتى مجيء الاسكندر . ولو ان هذه الجزيرة الصخرية كانت تبعد كيلو متراً فوق بعدها الاصلي عن الشاطيء لكان الارجح ان يرتد عنها الاسكندر خائبا وقد كاد . اذ قد تبين من سقوط صور وقرطاضة ان الامبراطورية البحرية تقوم على عاصمتها فاذا ذهبت العاصمة ذهبت الامبراطورية البحرية فهي من هذا القبيل تختلف عن الامبراطورية البرية التي قد تذهب عاصمتها ولكن القضاء عليها لا يكون مبرما. شيء واحد لم تدركه الامبراطورية البحرية القديمة هو وجوب التناسب بين المركز والاطراف. فالامبراطورية البحرية لاغنى لها عن الارض والقوات البرية. ولو ان الفينيقيين اعتنوا بالقوات البرية عنايتهم بالقوات البحرية لما كانت تعرضت مستعمراتهم ووطنهم لما تعرضت له.

---

1 المستد ص 76

2 مايرج 2 ق ا ف 356

ومهما يكن من امر الامبراطورية البحرية التي تأسست على الشاطىء السوري فان أهمية الدولة المدنية التي نشأت في سورية عظيمة جداً ، خصوصاً دولة المدينة البحرية . في هذه المدينة وضع اساس الحقوق المدنية التي ارتقت في قرطاضة وبلغت اوجها في رومة .

في المدينة السورية البحرية ، التي طبعت ثقافتها على البحر المتوسط كله ، تحولت الرابطة القبيلية القديمة الى الرابطة الاجتماعية الواسعة . فزال باكراً ذلك الخضوع الاعمى للملك وزالت عن الملكية تلك الصبغة الالهية التي كانت لا تزال ترافق الملك والاسرة المالكة في الامبراطوريات البرية ، واصبح الملك فيما بعد ينتخب انتخابا لمدة الحياة فكان ذلك اصل الديمقراطية والجمهورية. وصحيح ان الرسمالية تعاظمت وان مقاليد الامور صارت الى ايدي الطبقة الغنية ولكن حقوق ابناء المدينة الاحرار في انتخاب الملك وفي الاجتماع لتقرير المسائل الهامة كانت حقوقا مشروعة وان كانت غالباً اسمية اكثر منها فعلية.

في هذه المدينة ازدادت الحركة الاجتماعية والاختلاط الاجتماعي واخذت المصالح الخاصة تحل محل مصلحة العشيرة وابتدأ الناس يشعرون باشتراكهم في حياة واحدة هي حياة المدينة وفي هذا الشعور نجد اصول مؤسسة حقوق الاشتراك في دولة المدينة والاتجاه نحو الديمقراطية . ولكن الحقوق السياسية وفي المدينة السورية البحرية لم تقع قط في ورطة استبداد الجمهور بواسطة تدخل الافراد ، كما حدث في اثينة المدينة الاغريقية لعهد بركلس الذهبي حيث كان يحق لكل فرد ان يتهم اي موظف في الدولة ، حين انتهاء مدته، بالخروج على القانون ، دائماً تهمته باية صفة من هذه الصفات المطاطة: عدم دستورية اعماله، او انها غير مرغوب فيها او ان نياته كانت سيئة الخ.[1]

---

1 مكيور ص 85

ان العقل السوري العملي لم يكن يميل الى تخيلات فاسدة من الوجهة العملية. ولذلك فهو قد اكتفى من التجربة الاغريقية للحكم الشعبي ، بواسطة الشعب اجمع ، بالمشاهدة . انه لخيال بديع ، في نظر غيري ، وخيال سخيف في رأيي ان يكون كل فرد من افراد المدينة المعترف بهم « شريكاً » فعليا في ادارة الدولة. ان المدينة السورية ظلت محافظة على الفرق بين السياسة والاجتماع واضحا. وهذا الفرق هو ما مكن الدولة من اطراد تقدمها .

ونحن نرى هذا الاطراد جلياً في المستعمرة السورية الخالدة قرطاضة التي ما لبثت ان اصبحت دولة قوية ومركز امبراطورية بحرية مترامية الاطراف.

في قرطاضة زالت الملكية الوراثية باكراً وحلت محلها الملكية الانتخابية . ومع ان الملكية جمعت في نفسها وظيفة الكهنوت والقضاء والادارة التنفيذية فان انفصال القيادة الحربية والسلطة العسكرية عنها[1] اضعف مركزها وسيطرتها . ثم ان الملكية نفسها انحطت في اوائل القرن الرابع ق.م الى حالة الانتخاب السنوي بواسطة الكلية الانتخابية [2] وهكذا نجد الدولة القرطاضية تتجه رويداً نحو الديمقراطية السياسية، بعدان كاد احتكار بيت مقو Mago سلطة الادارة الممثلة في السوفتين Suffets وقيادة الجيش يعيدها الى ملكية[3] .

ان اهم عصور الدولة القرطاضية كان عصر مجلس الشيوخ ومجلس المئة والاربعة اعضاء . وكان مجلس الشيوخ يتألف من نحو ثمانية وعشرين عضواً

---

1 ونقر ص 45

2 ايضا نفس المكان

3 ماير ، ج 3 ف 383

وكان يمثل رأس الدولة [1] ففي صلاحيته كان ابرام شؤون الدولة وتمثيلها في الخارج واليه يعود الملوك ومنـــه يستمدون قوتهم . وهنـا نجد الدولة الارستقراطية المؤلفة من طبقة التجار المثرين واصحاب الاملاك الواسعة ولكن قبض اسرة مقو على الجيش والادارة معاً بالتعاقب اوجد خطراً عظيما على الارستقراطية بامكانية اعـلان هذه الاسرة نفسها اسرة مالـكة . فلما انشيء مجلس الـ 104 اصبح هذا المجلس صاحب السلطة العليا في الحـكم على موظفي الدولة وقـواد الجيش ورجال مجلس الشيوخ والمـلوك المنتخبين سنويا او «السوفت» . ومع ان قسما من هذا المجلس كان ينتخب سنويا من الشعب فان نفوذ الطبقة الغنية واستعمال المال وعدم وجود مادة تمنع قابلية اعادة انتخاب الاعضاء على طول الحياة جعل هذا المجلس يمثل حكم الطبقة . ولـكنه كان في كل حال خطوة واسعة نحو الديمقراطية ، اذ ان مرتبة المتمولين لم تكن طبقة خاصة قائمة بنفسها ومنفصلة عن عامة الشعب ، بل كانت مرتبة يتعاطى اهلها الاعمال التجارية [2] ويمتزجون بالشعب . وهذه كانت ميزة للطبقة الحاكمة في قرطاضة وان الطبقات في الدول السورية البحرية لم تتحدد التحدد الذي نراه في غيرها . ولقد تم نشوء هذا المجلس الذي كان يقصد منه وضع حد للعائلة المسيطرة على شؤون الدولة بدون ان تلجأ هذه الى مقاومته [3] فبرهنت الدولة القرطاضية بذلك على مرونة سياسية كبيرة جعلتها فوق جميع الدول والامبراطوريات التي تقدمتها اوعاصرتها . ومابر [4] يقول انه لم يـكن بين جميع دول الاغريق دولة واحدة بلغت او كادت تبلغ ما بلغته قرطاضة من

---

1 وتقرا ايضا المكان عينه فوق

2 مابر ج 3 ف 382

3 ايضا ج 3 ف 383

4 ايضا ف 382

وسائل القوة والاتساع . ولا يعطي ماير قرطاضة حقها الكامل حين يقول [1] انها جديرة بان تكون، من حيث الترتيبات السياسية، مثالا يقتبس عنه الاغريق من بعض الوجوه .

ان محاولة الجمهورية الاغريقية الغت الدولة او كادت تلغيها . وان الاسلوب الذي جرت عليه الدولة في تقدمها وارتقائها كان الاسلوب السوري الذي ارتقى في قرطاضة الى الديمقراطية ووضوح الحقوق المدنية والحقوق الشخصية مع بقاء الدولة شيئاً متميزاً عن الشعب ، مؤسسة لا يمكن ان تعرض لعبث الجمهور . والحقيقة ان نظام الدولة القرطاضية كان معرضا لانتقادات بعيدة عن الصواب ، اذ ليس معقولا ، من الوجهة المنطقية ، ان تتمكن مؤسسة فاسدة من انشاء امبراطورية واسعة جداً وربح حروب عديدة في البر والبحر وادارة هذه الامبراطورية الضخمة طوال قرون . فقد اخضعت قرطاضة جميع الشعوب الحامية في تونس ومراكش وسيطرت على قبائل البدو المجاورة والحقت بسلطتها المدن الفينيقية على الشاطيء الافريقي واحتكرت الجنوب الغربي من البحر المتوسط والمحيط الاطلنتي. وادارة دولة هذه مساحة اعمالها تقتضي نظاما مرتقياً قوياً ومؤسسات ثابتة .

قسم ديودروس اتباع الدولة القرطاضية الى اربعة اصناف : [1] فينيقي قرطاضة . 2 فينيقي ليبيا . 3 الرعايا الليبيين . 4 البدو [2] . ولقد ميزت قرطاضة بين رعاياها الفينيقيين ورعاياها الليبيين. وصحيح ان المدن الفينيقية التي كانت في البدء حليفة قرطاضة اصبحت خاضعة لها وداخلة في نطاق حقوقها، مع احتفاظها بحكوماتها الخاصة ، ولكن ذلك جعل ابناء هذه المدن مساوين للقرطاضيين في الحقوق الشخصية والمدنية فكانوا يترقون في الجيش ويحق

---

1 ماير ف 384

2 نقله ماير ، ايضا ف 381 الحاشية

لهم تسنم المراتب العالية فيه . ولهم نفس مرتبة القرطاضيين تجاه الشعوب الحامية المخضعة [1] ولكنهم كانوا فاقدي الحقوق السياسية .

لم تعرف قرطاضة الثورات الدموية العنيفة وهذه الحقيقة تدل على ان الدولة لم تسر على طريقة الارهاق . واذا كان هنالك ضغط فهو قد تناول العبيد والليبيين الذين كان يصعب على الفينيقيين الامتزاج بهم وادخالهم في متحدهم ولذلك لم تتمكن قرطاضة من منح هؤلاء حقوق ابنائها ، كما فعلت رومة فيما بعد مع الشعوب التي دخلت ضمن امبراطوريتها . وروية نفسها ، لم تسلم بتساوي اللاتين وابنائها الا بعد حروب عنيفة ومشاكل صعبة .

ان المعضلة السياسية العظمى التي كانت تواجهها قرطاضة هي النزاع الشديد الصامت بين الطبقة القابضة على زمام السلطة وامبراطور الجيش . والحقيقة ان هذا النزاع كان السبب الرئيسي في خسارة الحرب الفينيقية الثانية مع رومة. ففي هذه الحرب الطاحنة التي وضع خطتها هاني بعل اعظم نابغة حربي في كل العصور وكل الامم [2] سلك مجلس قرطاضة خطة غريبة تجاه هذا القائد القرطاضي العظيم ، فقد اهتم هذا المجلس بارسال المدد الى الميدان الاسباني ولم يتخذ اي تدبير حاسم لايصال المدد الضروري الى الميدان الايطالي . ان هاني بعل كان يدرك جيداً ان الضربة القاضية التي يمكن احدى الدولتين المتنازعتين ان تنزلها بالاخرى يجب ان تكون في مركزها ولذلك زحف على رومة ذلك الزحف الرائع مجتازاً جبال الالب الشاهقة حتى بلغ اسوار رومة وقد دب

---

1 مايرِ ، ف 381 الحاشية

2 ان فن التخطيط الحربي وتحريك الجيوش في المعارك ارتقى الى مرتبته العصرية على يد هاني بعل فهو واضع قواعد الحرب الحديثة ومبتكر حركة الالتفاف . وان اركان الحرب الالمان قد اتبعوا في الحرب الكبرى خطة هاني بعل في معركة كني كما صرح بذلك فن فرتش . انظر ايضا جوان ريبيرو .

فيها الرعب على اثر معركة كني المخلدة بوغ البطل السوري وهلع قلب شعبها لتناقل العبارة Hannibal ad Portas! . ولكن مجلس قرطاضة بقي غارقا في دسائسه ضد القائد ذاهلا عن المرمى البعيد الذي رمى اليه هاني بعل .

وفي قرطاضه ، كما في رومة ، كان نزاع شديد بين حزب الشعب والطبقة القابضة على مقاليد الامور . ومع ان المبدأ المعترف به في قرطاضة كان مبدأ سيادة الشعب ، اذ كان من المقرر ان يستفتى الشعب في كل اختلاف بين المجلس والمراجع الحكومية [1] ، فان هذا المبدأ ظل بعيداً عن التحقيق بسبب مناورات الطبقة الحاكمة وبذل المال . ولكن الكوارث التي نزلت بقرطاضة في الحرب الفينيقية الاولى وخسارة الحرب الفينيقية الثانية التي كانت كفتها فيها راجحة ، قوى روح الاستياء في شعب المدينة و نشط الحزب الديمقراطي ومكن هاني بعل من تحقيق اصلاحه الديمقراطي بالغاء اعادة انتخاب اعضاء مجلس الـ 104 اكثر من مرة واحدة وتحوير بعض القوانين الادارية والمالية فكان هذا الاصلاح سابقة للاصلاح الغراقي [2] في رومة .

اعطى اصلاح هاني بعل قرطاضة الديمقراطية الصحيحة والاتجاه الديمقراطي الفعلي . ولم يبق امام قرطاضة لاستعادة حيويتها الامبراطورية سوى تمديد الحقوق السياسية المركزية الى المدن الفينيقية التابعة او الموالية لها ورفع الحقوق الشخصية والمدنية في الشعوب الليبية التي ظلت موالية لها ، واعادة تنظيم الجيش على اساس قومي بدلا من الجيش المستأجر الذي كان يؤلف اهم قسم من القوات المحاربة . ولكن رومة لم يكن يهدأ لها روع مادامت ندتها العظيمة قيد الوجود فظل كاتو يختم كل خطاب من خطبه في مجلس شيوخ رومة بهذه العبارة « اعتقد انه يجب تدمير قرطاضة » حتى كانت

---

1 مايرايضا ، ف382

2 هو الاصلاح الذي وضع قواعده طيباريوس غراقس في اصيل المئة الثانية ق . م - انظر : HH ج 5 ص 279 ، 302 . انظر كذلك مكيور كتابه المذكور ص 95 - .

الحرب الفينيقية الثالثة التي انتهت بخراب المدينة وقتل معظم اهلها وجلاء الباقين عنها .

بعد زوال الامبراطورية القرطاضية بقي هنالك قوتان عظيمتان هما الامبراطورية السورية والامبراطورية الرومانية ومع ان الامبراطورية السورية برهنت على انها اقوى قوة في الشرق الادنى فان نظامها الملكي لم يفعل شيئاً جديداً في سبيل ترقية فن الدولة ولم يكن البيت السلوقي ، رغم ظهور بعض افراده كسلوقس وانطيوخس الكبير ، مؤهلا للقيام على مقدرات الامبراطورية تجاه امبراطورية احدث طرازاً كرومة ، فبقيت ترقية فن الدولة من نصيب رومة و كانت رومة اهلا لتحقيق هذه الترقية .

في الحرب الطاحنة بين قرطاضة ورومة كانت دولة تحكمها طبقة تحارب دولة تحكمها طبقة . ولكن اضطراريات ظروف رومة دفعتها في اتجاه جديد هو تمديد حقوق عضوية الدولة الرومانية الى المقاطعات التي ادخلتها رومة نهائياً ضمن نطاق سيطرتها . وقد رمت رومة من وراء تمديد هذه الحقوق الى توحيد ايطاليا تحت سيطرتها ، اذ ان ايطاليا ، لذلك العهد ، كانت شعوبا وقبائل متعددة واحياناً متباينة في ثقافاتها . ولكن البيئة الواحدة جعلت الوحدة السياسية امراً لامفر منه فكانت هذه الوحدة السياسية الشرط الاول لتولد الوحدة الشعبية التي نشأت فيما بعد بعامل الاشتراك في الحقوق الدولية .

ان الحروب الايطالية هي التي اغنت رومة بالاختبارات السياسية ومن هذه الوجهة يمكننا ان نبصر جيداً اسباب ترقية فن الدولة في مدينة ناهضة الى مرتبة الامبراطورية . ان اختبارات رومة السياسية كانت اكثر واقوى من اختبارات اية دولة سورية مدنية . وهي ، بخلاف الدول السورية البحرية ، مدينة برية في الدرجة الاولى وكانت محاطة باقوام تضاهيها وبعضها ارقى منها ثقافة كالاتروريين (او الاترسكيين) فساعد ذلك على الرغبة في ادخال هذه الاقوام في نطاقها السياسي والاجتماعي ومن هذه الوجهة كانت ظروف رومة تختلف عن ظروف صور وقرطاضة .

ومع ان رومة استفادت كثيراً من اختباراتها السياسية الكثيرة فهي لم

تخرج عن المثال القرطاضي في نظام الدولة الامبراطوري ، فكما كان مجلس قرطاضة هو المرجع الاخير للمعاهدات ، واعلان الحرب وادارة المدن والمقاطعات التابعة للدولة كذلك كان مجلس شيوخ رومة . وكما برهن مجلس الـ 104 القرطاضي على عدم كفاءته لسياسة الامبراطورية العامة كذلك برهن سناتو رومة على عجزه عن ايجاد الاساليب السياسية التي يمكنها ان تؤمن توثق الامبراطورية [1] حتى اصبحت القوة المجردة الضمانة الوحيدة للبناء الامبراطوري.

ان تمديد الحقوق السياسية في الدولة الرومانية الى المقاطعات الايطالية ثبت وحدة الامبراطورية الرومانية في ايطاليا . ولكن لما اصبحت هذه الحقوق توزع على الشعوب وراء الحدود الجغرافية ، كجلالقة عبر الالب ، بطل سحرها وصارت عديمة الفائدة ، بل امست في الاخير من عوامل اضعاف مركز الامبراطورية وذهاب هيبتها . وهكذا نجدها في عصورها الاخيرة مسرحا لقوادها المتنازعين فيما بينهم حتى تداولها القياصرة وحولوا جمهوريتها الى الشكل الامبراطوري القديم الذي رأينا مثاله في سورية ومصر وفارس .

وبعد فراغ رومة من توحيد ايطاليا توقفت اختباراتها السياسية لأنها وجدت علاجا واحداً لجميع المشاكل الخارجية هو علاج القوة . اما العلاج السياسي فكان يقتضي تطوراً خطيراً يغير اساس النظام الكامن في المدينة . كان يجب ان تحل ايطاليا محل رومة وان توجد وسيلة للتعبير عن الارادة العامة في الامبراطورية ولكن الطبقة الارستقراطية في رومة كانت اقل استعداداً من الطبقة الارستقراطية في قرطاضة لتغيير وجهة نظرها في الغرض من الامبراطورية . وهكذا سارت رومة في سبيل قرطاضة فكانت آخر دولة من طراز دولة المدينة السورية .

امتازت قرطاضة على رومة بأمر خطير جداً في نظام الدولة هو فصل القيادة الحربية عن الادارة السياسية والمدنية. ومع ان رومة ابدت مرونة سياسية عظيمة فاقت بها على قرطاضة في اشراكها الملحقات في حقوقها السياسية فان

---

1 انظر مكيور ص 109 ومايليها

تقسيماتها التشريعية والادارية الداخلية بانشاءها مؤسسات السكوريا Curia والسنتوريا Centuria والكوميتيا Comitia ورؤساء العامة ، الذين كان لهم حق ايقاف التنفيذ لم تبرهن قط على حقوق دستورية يصح ان تتخذ مثالا في فن الدولة . وان نجاح رومة كان على الرغم من هذه التقسيمات المتعارضة مبدئيا اكثر مما كان بفضلها. ان هذه التقسيمات لم تكن سوى تسوية للنزاع الداخلي.

الشرع . امتازت الدولة في رومة على ما تقدمها من الدول في امرين هما تمديد محدودية الرومان (عضوية الدولة) الى الملحقات وتكوين وحدة سياسية تحفظ روح الارادة العامة ، وانشاء الشرع . والشرع الروماني هو اثمن ما تركته رومة للبشرية .

لا يعني ذلك ان الشرع وضع اولا في رومة ، فنحن نعلم ان شريعة حمورابي السورية هي اقدم شريعة في العالم . وكذلك نجد في جنوب سورية الشرع الكنعاني الذي اقتبس منه ومن الشرع البابلي العبرانيون شريعتهم الموسوية. ولقد تناولت شريعة حمورابي الاحكام المدنية الحقوقية والجزائية فنصت على التملك وواجبات الجندي وملكه واحوال المعاملة والحقوق التجارية والاحوال المدنية الشخصية كالزواج واحواله [1] .

والشرع الكنعاني تناول هذه الاحكام التي اختلف في بعضها عن شريعة حمورابي فيما يختص بالعقوبات . ومن وضع الشريعة البابلية والكنعانية نرى القانون قد اصبح شيئاً متميزاً كل التميز عن العادة والعرف والانتقام الشخصي والثأر . ففيها نجد تنظيما للاحوال الحقوقية والجزائية .

ولا بد ان يكون الشرع السوري البابلي ـ الكنعاني قد ارتقى مع ارتقاء احوال الدولة الفينيقية واتساع ملكها ومعاملاتها، خصوصاً في الامبراطورية القرطاضية ولكن المؤسف جداً ان يكون تخريب البرابرة الاغريق والرومان

---

1 انظر مار ، ج2 ف450 . انظر كورص 57 وما يليها

للعواصم الفينيقية تخريبا تدميرياً تاما ، كما فعل الاسكندر بصور وسيبيو « افريكانس » الثاني بقرطاضة ، فلم يبق لنا من آثار هذه العواصم الا النزر اليسير . وهذا لا يزال يحتاج الى تنقيبات جدية ومع ذلك فنحن نعلم من هذا النزر ان الحقوق الفينيقية لم تتعرض للقضايا التي تعرضت لها الحقوق الرومانية. والسبب في ذلك هو ان الدول السورية الفينيقية قامت على اساس شعبي واحد فكان نوع حقوقها واحداً . ولذلك نجد المساواة في الحقوق بين مدنيي قرطاضة وابناء المدن الفينيقية الاخرى (راجع ص 120) اللهم الا الحقوق السياسية التي ظلت حقوقاً مدنية خاصة .

ومتى نظرنا الى الشرع في الاغريق وجدنا نوع الشرع نفسه واذا كان هنالك ارتقاء فهو قليل . فان شرعهم كان لا يزال مجموعة قوانين دينية ومناقبية وسياسية متناقضة . ولقد ميز الشرع الاغريقي بين الجنح والجرائم، بين الادعاء الشخصي وطلب التعويض ، والادعاء العام بموجب قانون جزاء ولكن تصنيف الدعاوي كان ناقصاً . ففي حالة السرقة كان المدعي مخيراً في ان يقيم دعوى حقوقية ويطلب التعويض او ان يقيم دعوى جزائية . وفي حالة الاجرام كالقتل والتشويه كانت الحقوق الاغريقية لا تزال قريبة من من الحقوق الاولية اذ ان هذه الحالة كانت تترك للادعاء الشخصي [1] . والقانون عموما كان لا يزال تابعاً للوضع السياسي فهو لم يكن عاماً ففيه تساوت الحقوق السياسية والحقوق الشرعية .

في رومة خرج الشرع من هذا التخبط الى الشرع القضائي العام وحل محل المواد القانونية المتناقضة القانون العام الموحد الجامع نظام الدولة . ولولا هذا العمل الكبير لما كانت رومة تركت اثراً ثقافياً عالياً . فتاريخ رومة الثقافي هو تاريخ حقوقها ، [2] .

---

1 مكبور ص 103

2 ونقر، AR ص154

ابتدأ الشرع في رومة على مثال دولة المدينة السوريـة . فالحقوق كانت لاول عهدها حقوق رومة المدينة تسري احكامها على مدنييها فقط . فلم يكن لغير ابن رومة حق في حضور اجتماع الجيش واجتماع الشعب والتصويت وفي ان ينتخب وان يعقد زواجاً يعترف به في رومة الخ . [1] والشعوب التي تغلبت عليها رومة كان لها حقوقها السياسية والمدنية كالمدن اللاتينية والسمنيين والاتروريين والمدن الاغريقيةفي الجنوب والجلالقة في الشمال.

لما اخضعت رومة هذه الشعوب لسيطرتها وادخلتها ضمن نطاقها لم تلغ شرائعها المتمشية عليها ، بل ابقتها معمولا بها عندها . ولكن مبدأ الشخصية هـذا لم يـكن كافياً لحل القضايا الحقوقيـة في دولة المدينـة السائرة الى الامبراطورية ، لان الشعوب التي خضعت لرومة بالقوة وفقدت حق الجزاء واصبحت تحتاج الى شكل حقوقي جديد، ولان ادخال شعوب متباينة في حقوقها في نطاق دولة واحدة اوجب النظر في علاقة هذه الشعوب بعضها ببعض، ولان وضع هذه الشعوب تحت سلطة رومة اوجب مواجهة قضية العلاقة بين هذه الشعوب والشعب الروماني او بين افرادها وافراد رومة . فاختارت رومـة حل هذه القضايا بالمعاهدات اولا ثم بادخال حقوق الشعوب في نطاقها القانوني وهي الحقوق التي عرفت بال « Jus Gentium » وكان القصد منها النظر في جميع الحالات التي لا تصلح للنظر فيها الحقوق المدنية المعروفة بال« Jus Civile » المختصة بالرومان انفسهم ، فصارت هذه الحقوق الشعوبية حقوقا رومانية ايضا. وقد حاول الرومان التوفيق بين « اليوس سويـلي » و « اليوس غنتيوم » بواسطة محكمة الـ « Praetor Peregrinus » التي كان من صلاحيتها النظر في

---

1 ونقر ص 156

2 ايضا ص 157

القضايا بين المدنيين والاغراب . ولكن اهمية اليوس غنتيوم اخذت تعظم مع تحول المدينة الى دولة ارضية حتى فاقت اليوس سويلي ، لان هذه الحقوق اصبحت حقوق قسم عظيم من الرعايا الرومان لم يكونوا قد حصلوا على الحقوق المدنية الرومانية او على الحقوق اللاتينية (Jus Latinum) وهي الحقوق التي كانت تتمتع بها المدن اللاتينية . وكانت هذه الحقوق الشعوبية في مصلحة الرومان انفسهم ، لانها وسعت امامهم حقوق الزواج وحقوق التملك والارث وهكذا اصبح لمدني رومة الحق في اختيار التقاضي وفاقا للحقوق المدنية او الحقوق الشعوبية [1] .

ولكن تطور الحقوق الرومانية لم يقف عند هذا الحد بل تابع عمله خصوصاً في العهد الامبراطوري ، اي بعد زوال الجمهورية . في هذا الطور نجد عملا حقوقيا كبيراً قام به امبراطور رومة السوري قرقلة (Caracalla) الذي مدد الحقوق المدنية الرومانية في الـ Constitut'o Antonina (سنة 212م) الى رعايا الامبراطورية [2] فهو اول من اعلن حقوقا مدنية عامة للامبراطورية.

ولم يطل الزمن برومة حتى سقطت قبل ان يبلغ الشرع المرتبة العامة التي بلغها في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، الامبراطورية البيزنطية او الرومية. في هذه الجهة خصوصاً في سورية ، تابعت الحقوق تطورها في مدرسة بيروت والفضل الاكبر في حل قضية « الحقوق الامبراطورية والحقوق الشعبية » يعود الى مجهود المدرسة السورية [3] . واخيراً اكتمل الشرع الروماني في مجموعة القيصر يوستنيان التي جرى فيها تنقيح وتحوير القوانين القديمة ووضع قوانين جديدة . في هذه المجموعة نرى الحقوق

---

1 ونقر نفس المكان فوق

2 ونقر ص 156 و 193

3 ايضا ص 179

الشخصية قد تحررت من روابط القرابة الدموية ، بل اننا نرى بداءة تطبيق فكرة شخصية الجماعة [1] . ويمكن اعتبار مجموعة يوستنيان اعلى ما بلغه الشرع واساس الحقوق الشرعية في القرون الوسطى والعصور الحديثة .

الدولة الاقطاعية في الغرب والشرق . سقطت رومة تحت ضغط البرابرة الغربيين و تفكك ذلك النظام السياسي الامبراطوري الذي لم تتمكن انانيتها من انقاذه . وبينما الامبراطورية الرومية (البيزنطيـة) لا تزال تتابع عمل الدولة الموحدة في دستورها وادارتها ، مع اتجاهها نحو السلطة الفرديـة التي وضـع قواعدهـا ديو كلتيانس وقسطنطين، اذا بالدولة في الغرب تنحط الى اقطاعيات وقعت كل واحدة منها في حوزة امير نبيل او بطل محارب . اما الملوك البرابرة الفرنك والقوط واللعبارديون والوندال فكانت سلطتهم تتناول الجزية والاعمال الحربية فقط ولكنهم لم يتمكنوا من تنظيم الدولة. فاستفحلت سلطة الامراء الاقطاعيين حتى ان امبراطورية شارل مرتل وبابن وشرلمـان اضطرت الى القبول بالامر الواقع واحتمال حـكم الاقطاعيين البلاد بناء على تخويل شرعي من الملك [2] .

في الدولة الاقطاعية حلت مصلحة الامير محل مصلحة الدولة او مصلحة الكل . واخذت الاقطاعية تتحول الى صنف خاص يتوارث افراده الالقاب والمراكز فكان الوارث او ولي العهد يثبت في خلافته لقاء دفع تعويض [3] .

و كان قد نشأ الى جانب النظام الاقطاعي نظام آخر أخذ يدعي السيادة العامة هو نظام الكنيسة المستمدة قوتها من الدين . والحقيقة ان الدين لم

---

1 مكبور ص108

2 مكبور ص116

3 ايضا 117

يتنازل عن ادعائه السلطة العليا والقوة الزمنية ولكن سقوط قرطاضة وروما اعاد له صولته مع المسيحيـة ثم مع الاسلام كما سنرى . فقـد سيطر الدين على عقلية القرون الوسطى بصورة لم يعرف لها مثيل في مدنيـة البحر المتوسط والغرب ، وتعاظمت سلطة البابوات حتى زعم بعضهم انه السيد المطلـق الذي يخضع له كل الامراء . والحقيقة ان بعض البابوات كغريغور السابع ، الذي كان راهباً يشتغل سراً ثم علناً بعد ان ارتقى الى الكردينالية وأربان الثاني وانوسنت الثالث اصابوا نجاحـاً في النزاع بين السلطـة البابوية وسلطة الامبراطرة والملوك[1] .

ان سلطة البابوات كانت مستمدة من مبدأ الارادة العامة المعبر عنه بخضوع المؤمنين التام « لخليفة المسيح ». ولكن الكنيسة كانت في ذلك الوقت تحاول التوفيق بين مبدأين متناقضين هما الوظيفة الروحية والسلطة الزمنية . ولذلك لم يطل الوقت على السلطة الزمنية حتى ابتدأ الشقاق في نظام الكنيسة وشبت الحركات الاصلاحية الداخلية وكانت النتيجـة القضاء على الجامعة الدينـة الزمنية والروحية .

لم ينقذ الدولة من هذه الفوضى في الغرب الا الاتجاه نحو المدينة فنشوء المدن ونموها والعمل الصناعي والاتجار اوجدت المحيط والجو الصالحين لحرية العمل وتبادل الافكار والمعارف . ان المدينة كانت دائماً اصلح مـكان لنمو الفكرة الديمقراطية . وهي المكان الوحيد الذي يمكن ان تتمركز فيه الحياة السياسية . وهكذا نجد مدن المانيا وايطاليا الحرة توجد الطرق اللازمة لنشوء الحركات الاجتماعية والسياسية التي اخذت تعد السبيل لعصر جديد من عصور الدولة هو عصر الديمقراطية ونشوء القومية .

القومية هي التي عينت شكل دولة البلاد العصرية ووسعت دائرة المساهمة

---

1 لوشين فن ابينفرويط ص 256 - 257 ايضا مكبور 119

في الدولة او معدوديتها الى حدود لم تكن معروفة من قبل . وتحت تأثير عوامل القومية الآخذة في النشوء اهمل النظام الاقطاعي وقويت الملكية المركزية . لانها كانت دائما اقرب الى تمثيل وحدة الامة . وسلطة الفرد كانت دائما اقرب الى الديمقراطية من سلطة الارستقراطية المكونة طبقة ممتازة .

وقبل ان نتناول الدولة الحديثة القائمة على مبدأي القومية والديمقراطية المتجانسين نرجع الى حادث خطير في تاريخ الدولة ومبادئها وقع في الشرق واوجد حالة دولية لابد من درسها لاستكمال اطوار الدولة واستيفاء العوامل الخطيرة المهيئة مجراها .

الدولة الدينية . اذا كانت هنالك ارض تحدد الحياة والثقافة الانسانيتين تحديداً يكاد يكون حتمياً فهي ، بدون شك ، الصحراء . فالصحراء لا تمنع الانسان من الارتقاء من مرتبة الوحشية الى مرتبة البربرية او الجاهلية ، ولكنها تمنع الثقافة العمرانية . وهذه صحاري العالم كله كانت ولا تزال خلوا من العمران والحضارة وكل ثقافة عمرانية ولو لم تخرج بعض الشعوب السامية من الصحراء الى سورية لما كان قدر لها ان تظهر مزاياها العالية وتنتج النتاج الثقافي العمراني الذي دفع البشرية في مراقي الحياة الاجتماعية دفعة سيظل زخمها فاعلا فعله ما دامت البشرية تتقدم وترتقي .

والدولة في قبائل الصحراء هي دائماً وابداً دولة قبائلية، وهي الدولة التي اشرنا اليها في بداءة هذا الفصل ولا تدخل في الدولة التي اطلقنا عليها اسم الدولة التاريخية المتطورة ، المرتقية ، المنشئة تاريخها، او هي(الدولة القبائلية) الدولة الاولية التي يجتمع شيوخها عند الحاجة للبت في امر كما يقضي به العرف او العادة او الدين . ومعظم ما تنتهي اليه هذه الدولة هو اتحاد بعض القبائل المشتركة في القرابة الدموية ، ولا تحتاج هذه الدولة الى اكثر من العادة

والعرف نظاما نظراً للنمط الواحد الذي تسير عليه حياتها الفطريـة البعيدة عن الاخذ بالعلم والفلسفة ، المنعزلة عن مجال التطور الاقتصادي الاجتماعي .

ولما كانت الجماعات الفطرية عموما واقعة تحت تسلط التصورات الخارقة (الدينية) كان الدين العامل الوحيد الذي يمكنه ان يوجد مركزاً مشتركا للقبائل، كما نجد مكة قبل الاسلام وبعده . والحقيقة ان البيئة الوحيدة الصالحة لتكون الدولة الدينية العامة هي بيئة القبائل اللاعمرانية . ولا يمكن ان تنشأ في هذه البيئة دولة عامة غير دينية . وقد ادرك حقيقة هذه النظرية ابن خلدون فكتب في مقدمته فصل « في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصبغة دينية من نبوءة او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة » [1] ففي هذه البيئة مجال لقبول الشرع الالهي القاطع والخضوع له . ولا مجال لنشوء الشرع المدني والحقوق المدنية والشخصية وتطورها . والدولة الاسلامية التي وضع قواعدها النبي محمد بعد الهجرة هي الدولة الوحيدة التي امكننا ان نصير دولة عامة في بلاد العرب ونحن نرى في نشوء الدولة الوهابية العامة في القرن الماضي وعودتها الان الى الوجود بعد ان كانت قد قضت عليها الدولة العثمانية مصداقا لقول ابن خلدون المذكور آنفاً .

بينما الكنيسة المسيحية في الغرب تحاول ان تنشيء على انقاض الامبراطورية الرومانية ، دولة دينية عامة يرأسها البابا كانت الدولة الدينية في الشرق تسيطر بلا منازع .

هجر محمد مكة الى المدينة ليجعل الدين امراً مطاعا وليوفق بين الدين والسياسة او بين الفكرة الروحية التي كان مخلصا لها كل الاخلاص وبين حالة بربرية مادية لا مجال للثقافة الروحية فيها وقد يبدو عجيباً ان تكون البيئة الصالحة لسيطرة الدين اقل البيئات صلاحية لنمو الثقافة الروحية . ولكن لا غرو فحيث النفسية والحياة العقلية الروحية محدودة بنوع الحياة وظروف المحيط كان مجال التأملات الروحية والحياة العقلية ـ الروحية محدوداً . هنا المجال للتسليم بالله الواحد

---

1 المقدمة

والخضوع لاحكامه واطاعة حدوده وليس هنا المجال لمحاولة فهم الله في الف شكل وشكل من الحاجات والعلاقات النفسية التي لا يمكن ان تتولد الا في مرتبة ثقافية حضرية عالية تتحرر فيها النفس من الحاح الضرورة المعاشية ومن الدأب عليها .

وقد رأى النبي انه لا بد من التوفيق بين رسالته الروحية العامة وامكانيات البيئة . فاخذت سور القرآن المدنية تقلل من التعليم الروحي الذي اتصفت به سوره المكية وتكثر من الاحكام الشرعية والحدود ، واخذت جماعة المسلمين المحمديين تصير قوة غايتها اخضاع الكفار لدين الله واحكامه المنزلة على النبي ، بعد ان كانت في بدئها جماعة روحية تجتمع لممارسة التفاهم الروحي بواسطة الايمان الجديد . وهكذا نرى بداءة تكون الدولة الدينية التي اصبحت الدولة العامة للقبائل العربية .

كانت بلاد العرب لعهد محمد في حالة من تلك الحالات التي كانت تضطر قبائل الى الاخذ بالمهاجرة من الصحراء في طلب موطن جديد تكتمل فيه اسباب العيش . فلما نشأت الدولة الاسلامية وابتدأت تشعر بقوتها تحولت الحاجة الى المهاجرة الى طلب الفتح . والفتح لمد الاسلام بالحاجات كان مهمة الدولة الاسلامية الاولى بعد محمد فخرجت جيوش الجهاد ووجهتها سورية المنقسمة الى قسمين بسبب التسلط الاجنبي : الغربي التابع لبيزنطية ، والشرقي التابع لدولة الفرس فانتزعت الاول من نظام الدولة الرومية والثاني من فارس . وكان من حسن حظ سورية ان جيوش الفتح لم تقف فيها بل اندفعت موجاتها شرقا وغربا وجنوبا وما هي الا سنوات واذا بالدولة الاسلامية المحمدية قد صارت امبراطورية مترامية الاطراف مركزها مكة .

لم يترك محمد دستوراً للدولة فهو قد اتم الدين ولكنه ترك الدولة تهتم بمصيرها . ولما كانت الخلافة اول واقوى سلطة في الاسلام ، خصوصاً من الوجهة التنفيذية والادارية ، فقد اصبحت قبلة انظار الطامحين اليها وفي التنازع على الخلافة ظهر مبدآن : مبدأ الانتخاب ومبدأ النسب النبوي وحصر الخلافة في شرعية اهل البيت فكان النزاع بين المبدأين سجالا وكانت الكفة الراجحة

اولا في جانب مبدأ الانتخاب في خلافة ابي بكر وعمر وعثمان وبعد عثمان اشتد النزاع بين المبدأين في شخصيتين قويتين جداً هما: معاوية الاموي وعلي الهاشمي وعلي اقرب الى النبي واعظم شأنا من الوجهة الدينية.

ولكن معاوية كان قد اصبح ابن محيط غير المحيط العربي . فان العشرين سنة التي قضاها في سورية «سرينته» او «سورنه» واعطته اتجاهاً جديداً في الحياة الاجتماعية والسياسية . فان علم الدولة وفن السياسة وعلم الحقوق الدستورية والمدنيــة والشخصية كانت قــد بلغت في سورية ارقى مرتبة عرفها العالم ، فأثرت البيئة الجديدة كثيراً على معاوية وجهزته ببعد نظر سياسي رجحه على منازعه . ومن هذه الحقيقة ندرك السر في ان معاوية ، لا عثمان ، اسس الدولة الاموية التي طورت الدولة في الاسلام تطويراً خطيراً .

سارت خـــلافة معاوية بالدولة الاسلامية في طريق وسط بين الانتخاب وشرعية الخلافة ، اي انها جعلت الانتخاب لمرشحي العائلة . ومع ان الدولة الاموية قامت على القوة وعصبية البيت فانها لم تمح مبدأ الانتخاب [1] بـــل حصرته وحددته فلم يعد انتخاب الخليفة يؤدي الى التحزبات وقيام العصبيات بعضها على بعض وهرتمن يقول [2] في تحويل الامويين الخلافة الى ملكية وراثية انه كان حادثاً خطيراً لا يحسب شيئا في جنبه اي حادث آخر في حيـــاة الشعوب الاسلاميـــة الدولية . ولا شك في ان هـــذه الدولة السورية النشأة انقذت الامبراطوريـــة الاسلامية من حالة الفوضى وتطاحن القوات .

ان الفضل في ايجاد الاتجاه السياسي الدنيوي في الدولة الاسلامية يعود الى الدولة الاسلامية السورية الاموية. ففي هذه الدولة جرت المحاولة الفعلية الوحيدة لشد روابط اطراف الامبراطورية بالمركز [3] وهو ما لم تــدرك الدولة السورية العباسية

---

1 هرتمن AVV ص 38

2 ايضا ص 59

3 ايضا ص 51 و 52

اهميته ولم تحاول التطور نحو تحقيقه ، حتى ان سلطة الخليفة العباسي الفعلية كثيراً ما كانت تقف عند حدود مدينة بغداد [1] .

وانـه لمن الثابت ان الدولة السياسية في الاسلام كانت الدولة السوريـة الاموية . فلما انتقل الامر الى العباسيين عادت الوجهة الدينية والعوامل الفقهية الى السيطرة . فقد لبس الخلفاء العباسيون عباءة النبي واولوا الوجهة الدينية معظم اهتمامهم [2] وكانوا لبعد نشأتهم عن بيئة سياسية حقوقية مرتقية كالبيئة السورية ، (خرج العباسيون من العربة الى الملك رأساً واتخذوا شرق سورية قاعدة لملكهم من غير ان يمروا في حقبة تمدن سوري) ضعفاء في سياسة الدولة وهذا هو السبب في استفحال امر البرامــكة وغيرهم من العناصر الفارسية والتركية وعظم شأنهم في تسيير شؤون الدولة . ولم يحاول العباسيون اقتباس النظرة السورية الى الحياة والمجتمع لان الاتجاه السوري المـدني لم يكن يتفق مع التمسك الديني الذي جعلوه محور حركتهم .

كان من طبيعة الدولة الدينية ان تدخل في معدوديتهـا كل الداخلين في الاسلام وتساوي بينهم في الحقوق المدنية والسياسية الا فيما يختص بالخلافـة فانها منصوص على الا تكون الا في قريش . وقد ساعدهذا المبدأ كثيراً على تماسك الجماعة الدينية وتعضيد الدولة . وعدت الدولة الاسلامية كل بـلاد مفتتحة جزءاً من الامبراطورية الاسلامية . ولـكن الامبراطورية الاسلامية كانت اسمية اكثر منها فعلية فقلما كانت سلطة الخليفة او رأس الدولة تسري في كل اقطار الدولة . نضرب مثلا لذلك محاولة الخليفة عثمان وضع ادارة مالية مصر تحت ضابط الادارة المركزية فقد اعلن عامله عمرو انه لن يكون ممسكا البقرة بقرونها بينما غيره يحلبها [3] وكان خروج العباسيين من بلاد العرب لنقض الدولة السورية الحد الذي وقفت عنده محاولة هذه الدولة المشار اليهـا فوق ليحل محلها الاتجاه اللامركزي العباسي الذي لم يتمكن من مقاومة النزعات

---

1 هرتمن ص 52

2 كرلس 85

3 هرتمن

الاستقلالية المستمدة من عصبيات الشعوب المتعددة . وابن خلدون يجعل الدولة تقوم على العصبية التي يتم لها الغلب . والحقيقة ان التفكك نصيب كل دولة دينية ، لان كل دولة دينية تحمل في داخلها مبدأين لا يمكن الجمع بينهما على استقرار في المجتمعات العمرانية الراقيــة هما الوظيفة الروحية والسلطة الزمنية . وهكذا تفككت امبراطورية « امير المؤمنين » او الخليفة وزالت صورتها بعامل الفتح المغولي الذي لم تكن لها قوة لدفعه ، حتى نشأت السلطنة العثمانية التي حاولت ان تبعث فكرة الامبراطورية الاسلامية فتلقب السلطان بالخليفة . ولكن العوامل الطبيعية والثقافية كانت اقوى من السلطة الدينية الزمنية وهو ما ادركه الاتراك بعد الحرب فتركوا فكرة الدولة الدينية وخلعوا السلطان ونبذوا الخلافة وانشأوا دولة قومية في شكل جمهوري .

ويحسن بنا قبل ان نختم الكلام على الدولة الاسلامية ان نظهر اسسها الحقوقية . فقد ذكرنا ان المسلمين متساوون في الحقوق المــدنية والسياسية والشخصية الا في الخلافة فهي في قريش. وكل من اعتنق الاسلام عد مسلماً له كل حقوق المسلمين .

شرع الدولة هو شرع الله المنزل على رسوله . فهو شرع واضح جامـد (Rigid) ككل شرع ديني آخر ولكن الاجتهاد انقذ الموقف وكان مفيداً جداً في تطوير الشرع والحقوق .

ولما كانت كل بلاد افتتحت تعد بلاداً اسلاميــة وجزءاً من ارض الدولة الاسلامية فقد اصبحت الحقوق فيها حقوق المسلمين فقط . فعلى غير المسلمين ان يؤدوا الجزية عن يد «وهم صاغرون» ويكونوا في حماية الدولة . ولكنهم محرومون من الحقوق المدنية والسياسية ولا يبقى لهم سوى الحقوق الخاصة في الاحوال الاجتماعية والدينية المتعلقة بهم فهم مسموح لهم ان يمارسوا عباداتهم ويعقــدوا الزواج حسب شرائعهم ويجوز ان يتزوج مسلم غير مسلمة ولا يجوز العكس وبعد نشوء الدولة القومية في البلدان الاسلامية ايضاً اصبح يجوز كما في تركيا مثلا . وكان فقدان الحقوق المدنية والسياسية من اهم الدوافع التي جعلت شعوب البلدان المفتتحة تبادر الى اعتناق الاسلام فلا تقع في حكم المخضعين .

ولسن القوانين في الدولة الاسلامية ثلاثة مصادر : 1 .علم العلماء 2 .اجماع المسلمين 3 . سلطة الخليفة [1] . واثر الاجماع ضعيف فهو لا يظهر الا في وجوب أخذ العادة والعرف بعين الاعتبار عند الفصل في بعض المسائل الحقوقية . وبخروج الاجماع بقي الامر للعلماء والخليفة فكان هذان الجانبان يتنازعان في ايهما له الفصل في سن القوانين.فتارة يرجح الواحد وطوراً يرجح الآخر. وفي كل حال كان لا بد لكل قانون جديد من فتوى .

بعد انقسام الامبراطورية الى دول لم يعد لكل مسلم الحق في معدودية كل دولة اسلامية بل اصبح كل واحد يخص الدولة التي تحدد ارضها وشعبها ويدخل ضمن نطاق هذا التحديد .

***

الدولة الديمقراطية القومية في النزاع الطويل بين السلطة البابوية الزمنية وسلطة الملوك ، في الغرب ، خرج الملوك ظافرين ، لان الكنيسة لم تستطع التوفيق بين القوة الروحيــة والسلطة الزمنية ووقعت في الانقسام . وفي النزاع بين سلطة الارادة الالهيــة المغيبة وسلطة الارادة الآخذة في ان تصير الارادة الشعبية العامة اضطر الدين لان يتنازل عن طابه السلطة الزمنية ويترك ما لقيصر لقيصر وما للدنيا للدنيا ويحتفظ لنفسه بالالهيات والروحيات . ومن هذه الجهة فقط يستطيع الدين ان يحتفظ بزعمه انه وحدة عامة ومن هــذه الجهة فقط يستطيع الدين ان يبرر وجود مؤسساته .

مع نشوء المدن ونشاط التجارة والاحتراف ونهضة الاختراعات، دخل التمدن في طور جديد زعزع مؤسسات كثيرة .فالتجارة والاحتراف زعزعا النظام الفردي والعائلة القائمة باودنفسها، والاتجاه نحـو المدن حرر الارقاء وابطل الاعتماد على سيد الارض ، واختراع البارود قضى على مكانة الفرسان النبلاء الذين رسم لهم سرونتس صورة هزلية جميلة في بطله «دون كيخوط »

---

1 هر تمن ص 56

واختراع الورق والطباعة فتح الاعين والبصائر وايقظ الشعور. ومن هذه العوامل جميعها تكونت الطبقة الوسطى واخذت طبقة الملاكين والاقطاعيين تضعف وقويت سلطة الملك.

ان استيقاظ الشعور بالوحدة الحيوية والمصلحة الواحدة والرابطه الواحدة بالحياة في اشكالها واسبابها واتجاهها جعل الجماعة تدرك وجودها وجهزها بوسائل التعبير عن ارادتها فكان ذلك بدء نشوء القومية. فلم تعد العامة تبعا للامير تخدم مصلحته وتحتمي في ظله، وهو سيدها الاوحد وعلاقة الملك بابناء الدولة هي علاقته بالامير فقط. كلا. بل اصبحت العامة لها رأي وارادة وهذه الارادة شرعت تميل نحو الملك، لان الملك كان يمثل وحدة الدولة ووحدة السلطة ووحدة المصلحة ووحدة الشعب. ان مصلحة الشعب ومصلحة الملك كانتا، بطبيعتها، ضد مصلحة الارستقراطية الاقطاعية الاستثمارية المتسلطة المستعبدة التي كانت حائلا قويا دون ظهور الارادة العامة الآخذة في النمو والشعور بنفسها.

كانت الملكية في نزاع خفي وعلني مع الاقطاعيين على السلطة. ففي كل اصطدام بين هاتين المؤسستين كان الشعب يقف في جانب الاولى، حتى تغلبت الملكية على الاقطاع وتفردت بالسلطة. وفي هذا العهد الذي كان فيه الدين في فوضى، تصالحت الدولة والدين واستمد الملوك حقوقهم من الله فهم على عروشهم بارادته، حتى قال لويس الرابع عشر «انا الدولة». ولكن القومية لم تقف عند حد القضاء على سلطة الاقطاعيين وتوحيد المرجع في الملك، الذي اخذ تفرده في السلطة يتعاظم حتى اصبح شديد الوطأة، بل سارت نحو الهدف الذي يبرر وجودها وهو اقرار ان السيادة مستمدة من الشعب وان الشعب لم يوجد للدولة بل الدولة للشعب.

هذا هو المبدأ الديمقراطي الذي تقوم عليه القومية. فالدولة الديمقراطية هي دولة قومية حتما، فهي لا تقوم على معتقدات خارجية او ارادة وهمية، بل على ارادة عامة ناتجة عن الشعور بالاشتراك في حياة اجتماعية اقتصادية

واحدة . الدولة اصبحت تمثل هذه الارادة . فتمثيل الشعب هو مبدأ ديمقراطي قومي لم تعرفه الدول السابقة . الدولة الديمقراطية لم تمثل التاريخ الماضي ولا التقاليد العتيقة ولا مشيئة الله ولا المجد الغابر ، بل مصلحة الشعب ذي الحياة الواحدة الممثلة في الارادة العامة ، في الاجماع الفاعل ، لا في الاجماع المطاوع

تحت هذا العامل الجديد ، عامل القومية الظاهر في تولد روح الجماعة والرأي العام ، تغير معنى الدولة من القوة الحاكمة المستبدة الى سيادة المتحد وحكمه نفسه . والوسيلة التي مكنت المتحد من تحقيق هذا المبدأ الجديد هي التمثيل السياسي [1] الذي مكن من الفصل بين السلطة الاشتراعية والسلطة التنفيذية وترجيح كفة السلطة التشريعية ، لانها تمثل ارادة الشعب تجاه الملك القابض على مقاليد الامور وتجاه السلطة التنفيذية المستولية على وسائل القوة

كانت الطريق الى هذا الهدف طويلة وعرة . فقد تشبث الملوك بالحق الالهي والتفرد بالسلطة . فانتقل النزاع من كونه نزاعا في الدولة بين الملك والنبلاء الى كونه نزاعا بين الملك والقوة الجديدة التي ايدته في نزاعه السابق . ورويداً اخذت القومية المستيقظة تنتزع حقوقها من الملكية حتى قضت عليها اوحطتها الى مجرد ملكية دستورية مقيدة . وصارت السيادة الحقيقية في الشعب واصبحت الدولة تمثيلية .

ان معدودية الدولة مهدت السبيل لتوليد المتحد القومي ولكن القومية اوجدت صفة جديدة وحقوقاً جديدة لم تكن للمعدودية القديمة . انها شيء لا سلطة للدولة عليه . فهي لا تمنح من قبل الدولة لمقاطعات بعيدة وشعوب عديدة كما كانت تمنح المعدودية في رومة لعهد القياصرة ، بل هي حق من حقوق كل فرد من افراد الامة بالولادة .

والدولة القومية تتميز بانها لم تعد دولة تجبل الاقوام جبلاً في مساحة الارض التي تبسط ظلها عليها ، لانها اصبحت تصطدم بارادة متحدها هي ، قوميتها ،

---

1 جنكس ص 183

وارادة القوميات الاخرى . فاذا اتسع نطاق الدولة حتى جاوز نطاق الامة اصبحت الدولة امبراطورية او استعمارية كما هي الدول الاولى الان .

عند هذا الحد نقف في استعراضنا نشوء الدولة وتطورها لننتقل الى درس الامة والقومية لنعرف حقيقة هذا المتحد الاجتماعي واهميته التي اصبحت دين البشرية في العصور الحديثة وغطت شخصيتها القوية الفعالة على شخصية الدولة.

كانت الدولة قبل نشوء القومية ارادة خصوصية تفرض نفسها على المجموع الذي تشمله ، اما بعد نمو القومية فقداصبحت النظام والهيأة الممثلين لارادة الامة . وهكذا نرى ، مع نمو الدولة ونمو اعضائها في الفهم الاجتماعي، في الشعور بحاجاتهم الخاصة وامكانيات الحصول عليها بواسطة النظام السياسي تأخذ قوة الدولة في الاستقرار شيئاً فشيئاً على خدمتها هذا الهدف . فالدولة وحكومتها ليستا مظهرين اجتماعيين نهائيين، بل تقومان على ما هو اعمق منهما، على حياة المتحد وارادته [1] .

---

1 انظر مكيور ص 33 Community

الفصل السابع

الأمم الكنعانى

1

تحديد المتحد

اذا كانت الدولة مظهراً سياسيامن مظاهر الاجتماع البشري فالامة واقع اجتماعي بحت . ودرس الامم ونشوئها هو درس اجتماعي، لا درس سياسي، وان كان لا غنى للعلم السياسي عن درس الامة والقومية ، لاهميتها في النظريات السياسية وفعلها في تغيير مجرى الشؤون السياسية واصلاح المعتقدات والمبادئ السياسية ، كما مر في الفصل السابق .

واذا كانت الامة واقعا اجتماعياً ، وانها لكذلك ، فما تحديد هذا الواقع الاجتماعي وما اسبابه وخصائصه ومميزاته وما هي روحيته او عصبيته ، التي نسميها القومية [2] و كيف نفهمه ؟ .

قد رأينا في بحثنا الاجتماعي البشري ، في الفصل الرابع من هذا الكتاب ، ان الحياة البشرية ، كـكل حياة اخرى ، تجري وفاقالناموس عام هو ناموس العـلاقة البيولجية المثلثة الاضلاع : الجسم — النفس (الدماغ) — المحيط .

---

1 قد اصطلحنا على ترجمة: Gemeinschaft, Communauté , Community ==متحد

2 ان اختلاف اللفظ في النسبة الى الامة في اللغة العربية قد ادى الى التباس في المعنى كثيرا ما انتهى بتشويش في الابحاث . فيجب على القارئ ان يتحاشى هذا الالتباس .

فهل يعني ذلك ان اشتراك الكائنات الحية في هذا الناموس العام يمكن ان يولد اجتماعا عاماً بين الانسان والحيوان وان يكون متحدات عامة او مشتركة بين انواع الحيوان والانسان ؟ وهل ، اذا وجدنا في عالم الحيوان انواعا اجتماعية تجمهرية قائمة على اساس هـذا الناموس المشترك ، كالنمل والنحل والذئاب وغيرها ، يصح ان نبحث في انشاء متحدات من هذه الانواع والانسان بناء على اضافة ناموس آخر مشترك هو ناموس الاجتماع ؟ واذا كان الجواب على كل هذه الاسئلة نفيا فما هو السبب المنطقي ، الذي نحتاج اليه دائما في اقناع عقولنا المنطقية ؟.

السبب هو ان الناموس اصطلاح بشري لمجرى من مجاري الحياة او الطبيعة نقصد به تعيين استمرار حدوث فعل او خاصة من افعال وخواص الحياة او الطبيعة لا أن الطبيعة او الحياة وضعت لكائناتها هذه النواميس وامرتها بالسير عليها . وفي كل النواميس التي نكتشفها يجب ان لا ننسى اننا نستخرج النواميس من الحياة فيجب ان لا نجعلها تتضارب مع المجرى الطبيعي الذي نعرفه بها . فكوننا اكتشفنا ناموساً او ناموسين من نواميس الحياة العامة يجب ان لا يحملنا على نسيان الواقع الطبيعي ونواميسه الاخرى فالنواميس لا تمحو خصائص الانواع . واذا كنا قد اكتشفنا سنة التطور فيجب ان لا نتخذ من هذه السنة اقيسة وهمية تـذهب بنا الى تصورات تنافي الواقع وتغاير الحقيقة .

ان القياس كان ولا يزال مصيبة كبيرة في الابحاث العلمية الاجتماعية ، خصوصاً في الابحاث التي لا تجرد علم الاجتماع من النظريات الفلسفية ، من الفلسفة الاجتماعية. وهو الالتجاء الى القياس ما اوجد شيئاً كثيراً من الخلط في المسائل الاجتماعية عموماً ومسألة الامة والقومية خصوصاً . فالكلام السياسي عن الامة ، مثلا ، انها مجموع ذو ارادة واحدة قد قاد الى جعل الارادة غرضاً معينا من اغراض الحياة الاجتماعية ، او تمثلها بصورة الارادة

الفردية كما في القول : اريد السفر الى اميركا او اريدان اشرب . والحقيقة ان الارادة الاجتماعية ليست في هذه البساطة. فلا تكفي ارادة عدد من الناس، من مجتمع واحد او من مجتمعات متعددة ، السفر الى اميركا لانشاء متحد . بل ان الاشتراك الفعلي في تنفيذ هذه الارادة لا يولد متحداً . ان ركاب السفينة لا يشكلون متحداً ، لانهم يشتركون في مصلحة واحدة هي السفر وارادة واحدة هي الانتقال ، فان لم يكونوا متحداً من قبل فهم ليسوا متحدا.

ولقد اشرنا في غير موضع من هذا الكتاب (ص 87) الى ان الاجتماع البشري ليس اجتماعا مطلقاً او اختياريا مطلقاً . فاذا كان الاجتماع صفة عامة في الانسانية فهذا لا يعني ان الانسانية مجتمع واحد يسري فيه الاجتماع بمجرد الانسانية . فالسوري المسافر الى اميركا ليس كالمنتقل من دمشق الى بيروت او القدس ، من وجهة الاتحاد الاجتماعي ويعظم التباين في انتقاله الى الصحراء مثلا . وقد نجد في بعض الدروس العلمية الاجتماعية اوضاعا تصنيفية عامة كالاصطلاح على نعت مرتبة الرابطة الاجتماعية الاقتصادية بمرتبة او مظهر العلاقة الاختيارية [1] بالنسبة الى العلاقة الدموية الاولية (راجع ص 53) . فمثل هذا الاصطلاح قد يحمل على تصور اختيار استبدادي او اختيار مطلق والواقع غير ذلك . لا يختار الانسان المجتمع الذي يعيش فيه اكثر مما يختار والديه ، ولكنه قد يخيرامه على ابيه اوالعكس ليس المجتمع Contrat Sociale اساسه الفرد . وفي المجتمع يختار المرء من ينشئ علاقات معهم اختياراً لا يخلو من تقيد . ولا نريد ان نبني هنا فلسفة اجتماعية كالفلسفة التي يقول بها تكاتا الياباني او شمالنبخ الالماني [2] اللذان يذهبان الى ان رابطة الاجتماع في

---

1 فيقر ص 292 و 293

2 ايضا المكان نفسه

المستقبل ستكون رابطة الميل او العاطفة . فذلك طور لانعرف متى يكون، على افتراض انه كائن لا محالة ، ولا كيف يكون .

اذا كانت البشرية ليست مجتمعاً او متحداً فما هي اذاً ؟ هي مجتمعات ومتحدات . ولماذا هي كذلك ؟ ولنوضح اكثر ونسأل : ما هي العوامل والاسباب التي تولد المجتمعات وتكون المتحدات ؟ .

ان الجواب على بعض هذا السؤال قد اعطي في «المجتمع وتطوره» ففي هذا البحث تكلمنا عن الروابط الاجتماعية الاقتصادية الفاعلة في تطوير المجتمع عموما ، اي كل مجتمع تتناوله هذه الروابط نفسها . ولكن المجتمع عموماً ليس المتحد الخاص المعين . فكيف نعين المتحد بالنسبة الى ما نسميه احياناً المجتمع الانساني الى الانسانية ؟ .

هل مجرد انتشار ثقافة مادية وروحية واحدة بين عدد من الجماعات البشرية يولد من هذه الجماعات متحداً رابطته الثقافة ؟ اذا كان الجواب نفياً ولم تكن الثقافة الواحدة اساساً للمتحد فما هي عوامل المتحد وروابطه ؟.

ان الثقافة العامة تفرق بين انواع المتحدات ، لا بين المتحدات ،فهي اول شاطر بين الجماعات الاولية والفطرية الجاهلية وبين المجتمعات العمرانية الراقية ولكن الثقافة ليست من الصفات الطبيعية الشخصية التي لا تنتقل وسنعود الى درسها فيما يلي . اما الان فنريد ان نضع قاعدة عامة للمتحد ندرسه عليها .

اريد ان اجاري هنا مكيور في ايضاحه المتحد انه كل مساحة تشتمل على حياة مشتركة وتكون متميزة عن المساحات الاخرى تميزاً لا تصح بدونه تسمية المتحد [1] . فالقرية متحد والمدينة متحد والمنطقة متحد والقطر متحد

---

1 ص Community 23 - 22

و لكل متحد خصائص تميزه عما سواه مما هو اصغر منه او اوسع منه ، اقل منه او اكثر منه . فاذا سلمنا بالافتراض ان المريخ مأهول وان فيه نوعا من البشر يحيون في جوه وارضه حياة توافق ذلك الجو وتلك الارض ،صح ان يكون الناس على هذه الدنيا متحداً مشتركا ، على ما فيه من متناقضات ، في خصائص تميزه عن متحد سكان المريخ ، الذين ، على ما قد يكون لهم من فوارق متناقضة . لا بد ان يشتركوا في خصائص حياتهم العامة المميزة لهم عن سكان كل سيار آخر ، الموجدة لهم امكانيات تفاعل داخلي تحدد مجموعهم بالنسبة لمجموع هذه الدنيا ويكون اساس هذه الامكانيات خصائص النوع. ويكون معنى هذا المتحد منتهى التوسع في استعمال هذه اللفظة التي تفيد التجانس والتلاحم والتي اريد بعد الان اناقتصر فيها على الواقع الاجتماعي ، على الجماعة المشتركة في حياة واحدة تكسبها صفات مشتركة بارزة وتسبغ عليها ما يمكننا ان نسميه شخصية ووحدة خاصة بالنسبة الى الوحدة الانسانية العامة . فان شرط المتحد ليس ان يكون مجموعا عدديا من ناس مشتركين في صفات النوع الانساني العامة فحسب ، بل مجموعاً متحداً في الحياة متشابهاً افراده في العقول والاجسام تشابهاً جوهريا . ولا نقصد بهذا التشابه شيئاً سلالياً بحت ولكننا نقصد ما عناه بواس في الاجابة العضوية على محرضات البيئة التي تحدد المتحد (راجع ص 44) . ومن ايضاح بواس نعلم ان التشابه العقلي والفيزيائي نتيجة ، لا سبب . فهو ناتج عن الاشتراك في الحياة الواحدة . فالنقاد الخبير يقدر ان يميز بين الدمشقي والبغدادي والبيروتي او بين الجبلي والسهلي من بعض الصفات التي يتحلى بها كل من هؤلاء وتنطبع فيهم بعامل متحد كل منهم . كذلك يمكنك حالا ان ترى الفوارق المميزة بين السوري والمصري وتدرك في مقابلتها ان الواحد منها ينتمي الى غير متحد الآخر . فمتحد المدينة والمنطقة واقع اجتماعي وكذلك متحد القطر.

ان الاشتراك في الحياة يولد اشتراكا في العقلية والصفات كالعادات والتقاليد واللهجات والازياء وما شاكل . وعدم الاشتراك في الحياة يوهي

اشد الروابط متانة كالرابطة الدموية وهو ما تنبه لهوذكره ابن خلدون في مقدمته ومنه القول « النسب علم لا ينفع وجهالة لا تضر » ،اي ان النسب متى صار من باب العلم وفقد الاشتراك في الحياة الواحدة اصبح لا تنفع معرفته ولا يضر نسيانه او جهله.

الاشتراك في الحياة هو ما يعمى عنه عدد وافر من الكتاب والدارسين حين يتكلمون عن المتحد انه جماعة لهاصفات مشتركة من عادات وتقاليدولهجات، حتى انهم يجعلون هذه الصفات الاساس الذي يقوم عليه المتحد ، فيأخذون عدداً من الصفات العامة المشتركةويحاولون ان يجعلوا من الذين تنطبق عليهم هذه الصفات متحداً واحداً لا يتقيد بمساحة ولا تربطه بيئة . وهم في فعلهم هذا ينسون او يجهلون ان هنالك صفات عامة تسري على جميع البشر من غير ان تجعل منهم متحداً. فالمتحد هو دائماً امر واقع اجتماعي . وان من الصفات ما قد يميز جماعات من الناس عن جماعات اخرى من غير ان يعني ذلك وجود متحد منها . فان الصفات تتبع المتحد لا المتحد الصفات .

لنتوسع في درس هذا الموضوع ولننظر في التخبط الذي يجرنا اليه حسبان صفات مشتركة اساساً للمتحد . اذا سلمنا بهذه النظرية ،سلمنا بان الصفات من عادات وتقاليد ومناقب هي صفات ثابتة لا تتغير ولا تتحول ولا تنتقل ولا تكتسب،بحيث يتحتم على المشتركين في مجوعة معينة منها ان يكونوا متحداً خاصاً محددا بهذه الصفات كل التحديد او يمتنع عليهم الدخول في متحد تسري عليه صفات تتميز عن صفاتهم ويكون الاختلاف في الصفات بمثابة اختلاف طبيعي وراثي . وهذا يعني الا يؤمل السوريون والانكليز والطليان والالمان انشاء متحد في نيويورك او في الولايات المتحدة عامة ، او الدخول في المتحد الاميركاني ، لانهم اقوام لكل منها صفات خاصة تميزه عن القوم الاخر،او تختلف عن الصفات السارية على محيط المتحد الاميركاني !ولكننا كلنا نعلم ان السوري الذي يهاجر الى اميركا لا يلبث، اذا اقام، ان تتبدل صفاته الخاصة ويكتسب صفات المتحد الاميركاني الخاصة . فكيف زالت صفاته الاولى الثابتة التي كانت تميزه عن الاميركان ومن اين جاءته

الصفات الاميركانية التي اصبحت تميزه عن السوريين ؟ اليس في هذا الواقع برهان مفحم على ان الصفات ليست اساس المتحد وان اساس المتحد والصفات هو الاشتراك في الحياة الواحدة؟ بلى . فحيثما اجتمع جمهور كبير من السوريين في اميركا وقل اختلاطهم مع الاميركان وظلوا محافظين على اشتراكهم في حياتهم، في متحدهم ، فهم يكتسبون كثيراً من طابع البيئة ولكنهم يظلون متحداً متميزاً عن الاميركان بنسبة اقلالهم من الاشتراك في الحياة الاميركانية وعكفهم على حياتهم السورية . وكلما قل تعاشرهم فيما بينهم وازداد اشتراكهم في الحياة الاميركانية ازداد تخلقهم باخلاق الاميركان واكتسابهم صفاتهم. واذا كانت اميركا بعيدة على القارىء في سورية فلنأخذ مصر مثلا. ألسنا نرى اشتراك السوريين المقيمين في مصر في الحياة المصرية يكسبهم، تدريجاً، صفات مصرية فيعود واحدهم الى سورية يخاطبك بلهجة «ازيك» بدلاً من « كيف حالك » و « خبر ايه ؟ » بدلا من «شو صار » الخ . او ليس عدم حصول هذه الصفات لهم الا بعد اقامتهم في مصر دليل على ان صفات المتحد قائمة على اساس الاشتراك في الحياة ، لا ان الاشتراك في الحياة قائم على اساس الصفات؟.

لنأخذ متحداً صغيراً يمكننا ان نراقبه في جزئياته اكثر من المتحد الكبير كالشوير ، مثلا ، اوصوفر او مشغرة او بلودان او معلولا او بيروت او دمشق او نابلس او بغداد . اذا اخذنا الشوير مثلا وجدنا ان للشويريين لهجة خاصة في النطق واشتراكا في صفات نفسية او خلقية خاصة كاشتهارهم بالصلابة والعناد وعادات ومظاهر خاصة في نوع معيشتهم والحرف التي يحترفونها ناتجة عن اختباراتهم الخاصة . ولا بد لمن هو غير شويري من ملاحظة بعض مظاهر خاصة من حياة الشويريين اليومية. ومع ان عادات ومظاهر اهل بكفيا تقرب كثيراً من عادات ومظاهر اهل الشوير فان لكل واحدة من هاتين البلدتين بعض الصفات الخاصة التي لا بد ان يظهر اثرها وفرقها في المعاشرة لتدل على ان ابن الشوير وابن بكفيا من متحدين لا من متحد واحد . فهل يعني

ذلك انهما من متحدين ، لانهما متميزان الواحد عن الاخر ، او انهما متميزان، لانهما من متحدين اثنين ؟ ولا شك ان الوجه الثاني هو الصواب في بحثنا عن السبب في حين ان الوجه الاول صواب في الاستدلال ، لاننا نرى الشويري والبكفيي يفقدان خصائصهما المميزة اذا تركا متحديهما وسكنا بيروت ،مثلا، مدة طويلة تسمح للبيئة الاجتماعية بالتأثير عليهما او اذا جيء بهما الى بيروت طفلين وربيا فيها . وليس من ينكر الفوارق بين متحدي بيروت ودمشق ، مثلا ، فلهجة البيروتي ومظهره الخارجي ونوع حياته ، من الوجهة الخاصة، وبعض اتجاهاته النفسية كل هذه تميزه عن الدمشقي . ولكن جميع هذه المتحدات الصغيرة والوفاً مثلها تؤلف متحداً واحداً هو المتحد القومي او متحد الامة او متحد القطر ، اسماء لمسمى واحد . وهي في مجموعها تشكل وحدة يعم في افرادها التجانس العقلي والتجانس في الهيئة والمظهر، التجانس الذي هو اكثر واقوى من الفوارق الجزئية . وشرط كل متحد يصح ان نسميه متحداً ان يكون تجانسه اقوى واكثر من تباينه .

عند هذا الحد يمكننا ان نعين المتحد بالنسبة الى صفاته بانه اتحاد مجموع من الناس في حياة واحدة على مساحة محدودة يكتسب من بيئته ومن حياته المشتركة الخاصة صفات خاصة به الى جانب الصفات العامة المشتركة بينه وبين المحيط الذي هو اوسع منه ، بينه وبين جميع البشر ، وبينه وبين المتحدات الاخرى . اما تحديد المتحد بانه صفات مشتركة تشتمل على عدد من الناس بصرف النظر عن حدود المساحة والاشتراك في الحياة فمن الاخطاء التي ادت الى كثير من البلبلة والهذر .

لنترك هنا تحليل المتحد من حيث صفاته ولنأخذ في تحليله من وجهة اعمق من وجهة الصفات : من وجهة العلاقات ، من وجهة الاغراض والمصالح والارادة . فمما لا شك فيه ان وضع عدد من المشدوهين او المجانين في بقعة محددة من الارض لا يكون متحداً اجتماعياً ، كما ان اجتماع عدد من المسافرين على باخرة او في عربة قطار لا يكون متحداً . ولقد تكلمنا عن الارادة والمسافرين في بداءة هذا الفصل ونزيد هنا انه اذا كانت

الارادة خاصة ملازمة لكل متحد فلا يحسن ان نتجاهل الواقع فنظن ان التوافق في ارادة معينة او ارادات معينة يكفي لايجاد المتحد . فاذا تكلم العلماء عن عوامل الاجتماع ووصفوها بانها قوى او توافق المصلحة والارادة فيجب الا يبادر الى تكوين اعتقادات سطحية بشأن المصلحة والارادة بحيث تستعمل المصلحة بالمعنى التجاري البحت وتستعمل الارادة بالمعنى الفردي او الاستبدادي. فلا يتصورن احد ان تأليف شركة تجارية من سوريين وانكليز لاستثمار بعض اسواق الصين او البرازيل يؤلف متحداً اجتماعياً من افراد الشركة بناء على تعريف الشركة بانها هيئة تجمع المصلحة والارادة ، والمصلحة والارادة هما قطبا المجتمع او المتحد . ومن تصور شيئاً من ذلك فقد اختلط عليه ما هو شأن المتحد وما هو شأن الجمعية او الشركة.

نتكلم عن المصلحة والارادة متابعة للاصطلاح العام ولان المصلحة والارادة اوفى بالتعبير واوضح . فالحب الجنسي ، مثلا ، هو اشد من مصلحة ، هو حاجة بيولجية والجوع كذلك حاجة بيولجية ولكن سد الجوع مصلحة ترتقي او تنحط وارواء الحب مصلحة ترتقي الى اعلى مراتب النفسية وتنخفض الى ادنى مراتب الحيوانية - البيولجية والتوسع في معنى المصلحة يشمل كل ما تنطوي عليه النفس الانسانية في علاقاتها . وبهذا المعنى نتكلم عن المصلحة الاجتماعية . واذا كانت المصلحة والارادة هما قطبا المجتمع فواحدهما سلبي وهو المصلحة والآخر ايجابي وهو الارادة فالمصلحة هي التي تقرر العلاقات جميعها والارادة هي التي تحققها. وبديهي انه لا ارادة حيث لا مصلحة، فحين يجوع الانسان يريد ان يأكل وحين يعطش يريد ان يشرب وحين يشتاق يريد ان يحب . فالمصلحة هي طلب حصول ارتياح النفس . وتحقيق ارتياح النفس هو غرض الارادة . وهكذا نرى ان المصلحة غير المنفعة او الفائدة ، وليست هي دائماً وليدة الشعور بالحاجة ولا هي والحاجة شيئاً واحداً . اننا نعني بالمصلحة في هذا البحث كل ما يولد او يسبب عملا اجتماعياً وبناء على هذا التعريف يمكننا ان نقول ان رابطة المتحد هي رابطة المصلحة فالمصلحة وراء كل متحد . وكلما نمت الحياة وازدادت ازدادت المصالح التي

تولد الاجتماع وقلت المصالح المفرقة .

كما ادى استعمال الامثال في الكلام على المجتمع الى شي كثير من الحذر كذلك ادى الكلام غير المنقود الى اساءة فهم واساءة استعمال المقصود من المصلحة والارادة . وتجنباً للوقوع في فوضى الاصطلاحات التي عممتها لغة الجرائد في قطرنا تعميماً فاضحاً يجعل كل دراسة جدية لوضع الاشياء في مواضعها عملا شاقا، رأيت ان اعرض هنا لمحة من المصالح الاجتماعية التي يمكننا ان نسميها مصالح المتحد ، او مصالح لها خصائص ربط الناس في متحد .

ان المصالح ، مبدأياً ، صنفان يجب الا يصير بينهما خلط وتداخل كما يحدث عادة في تعميم المصطلحات الفنية . فهنالك المصالح المتشابهة او الشكلية التي هي لكل فرد مثلما هي لكل فرد آخر ، كتحصيل المعاش او ربح الصيت اوجمع الثروة، او اي مصلحة أخرى شخصية خاصة . فهذه المصالح هي شكلية او متشابهة ولكنها لا تقتضي اتحاد من يريدونها او ايجاد علاقة اجتماعية ثابتة فيما بينهم . وهنالك المصلحة العامة او المشتركة التي يجمع عدد من الناس على الاشتراك في تحقيقها لأنها تشمل الكل ، كمصلحة خير القرية او المدينة او القطر . ومهما كان الباعث على العمل لهذه المصلحة ، فالمصلحة نفسها تظل مصلحة الجميع لأنها تشملهم ، اي انه قد يكون حب المجد هو الموحي او الدافع لبعض الاشخاص على العمل للمصلحة العامة ، فتكون المصلحة في هذا المثل مركبة بالنسبة الى الشخص، ولكنها بالنسبة الى العموم عامة بسيطة ، وهنا نضطر الى التمييز بين المصلحة العامة الاولية بالنسبة الى الكل وبين المصلحة العامة الثنوية بالنسبة الى الشخص الذي يتخذ من المصلحة العامة وسيلة لمصلحة شكلية شخصية هي المصلحة الاولية له. فالاساس الاجتماعي للمصلحتين واحد هو خير المجتمع وهو وحده يوجد علاقة المصلحة الاجتماعية الثابتة . ومهما يكن من الامر في هذه المسألة فمصلحة المتحد تظل قائمة لانها دائمة وهي تختلف عن مصلحة قريبة منها هي مصلحة الشركة فهذه المصلحة تقوم

على اساس المصلحة الشخصية البحت وكل اعتباراتها العامة مقررة بالمصلحة الشكلية لكل شخص فهي خصوصية قبل كل شيء، لان غرضها خصوصي، معين ومحدد . فاذا رجعنا الى مثل الشركة السورية - الانكليزية المتاجرة بصنف معين وجدنا انه متى وجدت شركة من هذا النوع نفسها تجاه حالة لا تسمح بالاثراء الذي هو غرضها لم يبق للشركاء اية مصلحة اخرى يجب اعتبارها والشركة تزول بزوال غرضها . الشركة وسيلة مصالح خصوصية متماثلة . اما المتحد فهو مجمع الحياة الاجتماعية .هو مقر الاحياء المتحدين في الحياة بكل مصالحها . الشركة او الجمعية هي شيء جزئي اما المتحد فشيء شامل كامل فيه تقوم جمعيات من كل نوع وتزول وهو مرجعها . هو اكبر واوسع من اية جمعية ومصالحه عمومية وبعضها ثابت لا يزول الا بزوال الحياة . باندثار المتحد كما بنكبة من النكبات .

يجب الا يفهم من هذا الايضاح اي تناقض بين ما نقوله هنا وبين ما قلناه في الفصل الخامس من ان رابطة الاجتماع الاساسية هي الرابطة الاقتصادية . فيجب ان لا نتصور الرابطة الاقتصادية عبارة عن عملية اقتصادية او غرض من اغراض الربح الاقتصادي ، بل مصلحة تأمين حياة الجماعة وارتقائها . ولذلك يمكننا ان نعد المصالح المتشابهة الجوهرية من اهم المصالح الاجتماعية. فتأمين سد حاجة الجوع والبرد يسهل جداً في الاجتماع وكل مجتمع لا يؤمن سد هذه الحاجات لا يمكنه ان يثبت ولهذا السبب نرى الافراد الذين لا يجدون تأميناً لمصالحهم الحيوية في متحدهم يهجرونه حالما يتمكنون من ذلك، الى بيئة جديدة يجدون فيها غرضهم الاولي . حيثما وجد متحد كانت مصلحة حياة كل فرد من افراده ، مصلحة حياته العامة ، اولى مصالحه . ان مصالح الحياة هي مصالح كل متحد ولكن ليست مصالح اي متحد مصالح كل متحد، لان مصالح المتحد ليست بيولجية فقط ، بل هي مصالح نفسية (عقلية) ومصالح حيوية نوعية ايضاً وقديماً ميز ارسطو بين « الحياة » و « الحياة الجيدة » [1] فاذا كانت مصالح الحياة الجيدة كذلك ، ان مصالح الحياة الجيدة هي التي

---

1 ذكره مكيور كتابه الاخير ، ص 109

تتنوع وتتحد بتنوع المتحدات وتحددها ، مولدة انواعاجديدة من الاشتراك في الحياة . ولكن جميع هذه المصالح لا تقوم الاعلى اساس المصلحة الاقتصادية، وقد رأينا في درسنا « المجتمع وتطوره » كيف ارتقى المجتمع وفاقا لنجاح المصلحة الاقتصادية .

اذا كانت المصلحة الاقتصادية اساسية في كل مجتمع فهو لانها تخدم كل مصلحة اخرى حيوية او نفسية . والمتحدات جميعها تماثل في ان لها مصالح حيوية ولكنها تتفاوت في هذه المصالح وفي مصالح الحياة الجيدة بالنسبة الى المرتبة الثقافية والدرجة الاقتصادية . ففي القبائل التي لا تزال على درجة الرابطة الدموية نجد المصالح القائمة على الحاجات الحيوية العضوية اكثرها من نوع المصالح الجنسية وهي المصالح التي تتعلق بالزواج والعائلة والنسب اما مصالح الحاجات الحيوية اللاجنسية ،اي مصالح الطعام والشراب واللهو وغيرها فهي بسيطة جداً من رعاية وجمع نبات وثمر . واما مصالح الحاجات النفسية (العقلية) فقليلة وضعيفة جداً وهي تنحصر في بعض القصائد او الاغاني وكلها تدور على محور العلاقات الجنسية والحرب او الغزو وفي الدين الذي يعني التسليم لارادة عليا او لقوة خارقة ، لله القدير العلام ، خالق السموات والارض . وجميع هذه المصالح عامة في المجتمع الفطري ومتداخلة،فهي مركبة

الحقيقة ان المصالح لا تتعدد وتتعين الا في المجتمعات الراقية وفي هذه المجتمعات تتحدد المصالح وتولد جمعيات معينة .والمصالح وجمعياتها تتميز وتتنوع بحيث تجعل وحدتها اتم واوضح .

في المتحد الراقي نجد المصالح جميعها تتنوع وتتعين بتنوعها وتؤدي الى انشاء جمعيات من كل نوع منها تجمع كل جمعية الافراد العاملين لمصلحتها . وهذه المصالح على ثلاثة انواع :النوع الاساسي وهو يشمل المصالح الحيوية والمصالح النفسية (العقلية) . والمصالح الحيوية هي اولا : الجنسية ، وجمعياتها العائلة في اشكالها . ثانيا : اللاجنسية ، وهي ما تعلق بالغذاء واللباس والمدرأ وتؤدي الى انشاء الجمعيات الزراعية والصناعية والتجارية وجمعيات الصحة والطب

والجراحة . والمصالح النفسية هي اولا : المنطقية من علمية وفلسفية ودينية وتهذيبية ، وتتحد في الجمعيات العلمية والفلسفية والدينية : (الكنيسة) والتربوية . وفي المدارس والمعاهد التهذيبية . ثانيا : الفنية . وتتنــاول جمعيات الرسم والدهان والموسيقى والتمثيل والادب . ثالثاً : المصالح الخصوصية ، مصالح السلطة والجاه . والعاملون لها ينشئون الاندية الخاصة والجمعيات العسكرية والقومية . ثم تأتي المصالح الاقتصاديــة البحت (تمييزاً لها عن المصالح الاقتصادية الحيوية التي تبعث الجمعيات الحيوية في نوعيها الجنسي واللاجنسي) وهذه تتناول الجمعيات المالية والتجارية الكبرى والمصارف والشركات المتحدة « كالترسط » وغيرها والاتحادات التجارية وجمعيات المستخـدمين وجمعيات المستخدمين الخ . وتأتي في ارقى المراتب المصالح السياسية واكبر جمعياتها، الدولة ، تشمل جميع مصالح المتحد الاتم الذي هو الامة ويتفرع من الدولة جمعيات اخرى اصغر منها تختص بالمتحـدات التي هي اصغر من الامـة هي الحكومات المحلية للمناطق والمدن . وبعد الدولة نجد الاحزاب السياسية التي هي جمعيات تختص بمصالح الفئات . ثم تأتي الجمعيات السياسية للقيام على مصالح معينة . ثم الجمعيات القانونية والقضائية وغيرها . وهنالـك ايضـا المصالح الاجتماعية العمومية وهي تشكل جمعيـات التعارف والصحبة واندية السمر والتسلية البريئة او المفيدة .

هذه صورة غير تامة من مصالح اي متحد راق وهي على ما بها من نقص تمثل جلياً بعد المرحلة بين مصالح الجماعات الفطرية والمجتمعات المتمدنة الراقية. وكلما ارتقى المتحد في ثقافتيه المادية والعقلية ازدادت المصالح المعينـة التي من شأنها ترقية الحياة الجيدة وتجميلها .

قـد عرفنا المتحـد بالنسبة الى الصفات الخاصـة التي تميزه عن غيره (راجع ص 148) ونرى ان نعرفه بالنسبة الى مصالحه وارادته، فهو من هذه الوجهة وحدة اجتماعية حاصلة لاعضائها القناعة الداخلية الاجماعية ان لهم مصالح تكفي لتفاعل اعمالهم، تفاعل مصالحهم وارادتهم ، في حياة عمومية مشتركة على

مستوى ثقافي معين ، ضمن حدود مساحة معينة . وبعد هذين التعريفين هل ندرك الفارق المعين الرئيسي بين كل متحد وكل متحد آخر ؟ اهو الصفات المميزة وقد رأينا ان هذا الفارق ليس من الثبات والتحدد بحيث يصح ان يكون الفارق الرئيسي المعين ؟ ام هو المصلحة ومصلحة عدد كبير من المتحدات تتماثل الى درجة يستحسن معها توحيدها ؟ ام هو الثقافة ونحن نعلم ان متحدات عديدة كبيرة وصغيرة تأخذ بثقافة واحدة عامة ؟ كلا . ليس واحداً من هذه الفوارق الفارق الاساسي ، بل الفارق الاساسي هو وحدة الحياة المتجمعة ضمن حدود معينة . فالمتحد الاجتماعي ليس مجرد اوصاف او مصالح ، بل هو امر واقع . هو جماعة من الناس تحيا حياة مشتركة في بقعة معينة ذات حدود .

كل متحد ، مهما كثرت صفاته او قلت ومهما تعددت مصالحه ، هو متحد قائم بنفسه . كل قرية متحد ولا يعكس وكل مدينة متحد ولا يعكس وكل منطقة متحد ولا يعكس وكل قطر متحد ولا يعكس . والقطر الذي هو متحد الامة او المتحد القومي هو اكمل واوفى متحد . فالمصالح تنشأ في المجتمع ، لا خارجه . والصفات تتكون من حياة جماعة مشتركة وكل جماعة لها حدود ، حتى البدو الرحل لهم حدود لرحلتهم . فهم يتنقلون ابداً ضمن نطاق تجري حياتهم ضمنه فان خرجوا منه الى بيئة جديدة خرجت حياتهم عن محورها . ولو كانت بيوت اهل دمشق قائمة الى جانب بيروت من جهة صيدا والشويفات مثلا ، وملتحمة ببيوت هذه المدينة اكان يجوز حينئذ التحدث عن مدينتين متميزتين ، عن متحدين ؟ .

يعرف المتجول المتحد قبل ان يعرف مصالحه وخصائصه وصفاته فهو اذا اطل على بلدة كمشغرة يدرك حالا ان هنالك متحداً من الناس قبل ان يعرف ان اهل مشغرة كانوا زراعا وانهم اليوم صناعيون متخصصون في دباغة الجلود وان هذا التطور الاقتصادي قد طور مستوى مصالحهم وعدل اخلاقهم . وهكذا الذي ينتقل من قطره الى قطر آخر يدرك انه قد اصبح في متحد

جديد سواء اكان يعرف ما هي لغة اهله ام لايعرف سواء اكان يجهل اخلاقهم ام لا يجهل . يميز الانسان المتحد اولا ثم يميز خصائصه فهو يرى البلدة اولا ثم يرى اشكال بيوتها وجنائنها وبساتينها ونسبة ترتيبها الى طبيعة البيئة. وهو في تنقله من قطر الى قطر يرى برية ذلك القطر واماكن اقامة اهله واتصال قراه ومدنه بعضها ببعض ومدنه الكبرى ، التي هي الكتل المغنطيسية التي تتوجه اليها الكتل الصغرى ثم يتعرف الى جمعياته التي تمثل مصالحه ومؤسساته والى اخلاق اهله وصفاتهم . اما المصالح فهي مصالح هذه المتحدات، واما الصفات فهي صفاتها واما الارادة ففي كل منها وما الارادة الا التعبير عن الحياة . ما نريد هو ما نحن [1] . نحن نريد مصالحنا لاننا نريد حياتنا والارادة على قدر المصلحة ، وكلما كانت المصلحة اساسية دائمة كانت الارادة كذلك .

تحديد الامة .

الامة هي اتم متحد ، كما قلنا . ولكن لابد لنا من درس هذا المتحد درساً خاصاً به ، لانه اوسع واكثر تعقداً من كل متحد آخر . ومع انه ليس من الصعب ايضاح الواقع الاجتماعي والحقائق الاجتماعية فان الامة كانت ولا تزال محور كثير من النظريات التي قد تبدو متعارضة واحيانا متناقضة. والسبب في ذلك ان الامة تنطوي على عنصر هام ، بل حيوي لها، مفقود من المتحدات الاخرى ، هو العنصر السياسي . فالكلام على الامة يكاد لا يخلو من عصبية القومية او الوطنية ، او من الاغراض السياسية ، وهو لذلك عرضة لاختلاف النظريات وتعدد المذاهب فيه .

كل امة تشعر بضرورة سيادتها على نفسها وحماية مصالحها من اجحاف وتعديات الامم الاخرى . وفي هذا التنازع ، الذي كثيراً ما يكون عنيفاً ، يلجأ سياسيو الامة ومفكروها الى نظريات توافق ظروف اممهم وتكسبها

---

1 مكيور كتابه الاخير ، ص 136

معنويات قوية . فبعضهم يبحث عن حقيقة تاريخية او مثال حقيقي او موهوم من التاريخ ، او عن نزعة دينية او سلالية . ولا يقتصر تنازع البقاء على تنازع النظريات بين الامم ، بل يمتد الى تنازع النظريات ضمن الامة الواحدة ، لما تشتمل عليه الامة من طبقات وجماعات يكون لبعضها مطامع ومصالح خاصة ، كما حدث للنظريات القومية الفرنسية ، مثلا . فان الامة الفرنسية التي ابتدأت تتكون من امتزاج عنصرين رئيسيين هما الجلالقة اهل البلاد الاصليون والفرنك المغيرون على بلادهم ، وهؤلاء شطر من القبائل الجرمانية ، تعرضت في مجرى تاريخها للنزاع الخارجي الذي جعل رجالها الشاعرين بمصالحها الخاصة يبحثون عن ممسك روحي ، حقيقي او خيالي ، يجمع الفرنسيون من فرنك وجلالقة على التمسك به صيانة لمصالحهم ، التي اصبحت مصالح متحد واحد ، من اخطار التقلبات السياسية والحربية . وقد توهم بعضهم ان انقاذ وحدة المتحد الفرنسي من كل اختلاط خارجي ، خصوصاً مع جيرانهم الالمان الذين هم شطر آخر من القبائل الجرمانية ، وتقويتها يتمان بجعل الفرنسيين سلالة واحـــدة من نسب واحد . ويجب ان يكون هذا النسب عريقا في المجد والبطولة ، عظيما بخوارق قوته يحبب الانتساب اليه والالتفاف حوله . واي نسب اعرق واحب من ابطال طروادة الذين خلدهم هوميرس . الم يقلد ورجيل هوميرس وينظم اناشيد « الانيادة » في البطل انياس Eneas الذي تحدر منه الرومان ؟ اذاً يجب ان لا يقل بناء باريس عظمة عن بناء رومة . وكما وجد في ايطاليا ورجيل ليخلد ذكر أب الرومان الوهمي كذلك يجب ان يوجد لفرنسا من يخلد ذكر البطل العظيم الذي خرج من صلبه

الفرنسيون : فرنقس او فرنسيون بن هكتور ! وقد وجد « رنسار » Ronsard الذي اهتدى الى هذا الحلم الضائع واخذ يؤلف اناشيد

«الفرنسيادة» [1] مجاراة لورجيل في الانيادةفنشر سنة 1572 الاناشيد الاربعة الاولى الوحيدة التي ظهرت . ولكن رنسار عدل عن متابعة هذا العمل الشاق العقيم ، ومع ذلك فان الاعتقاد بالاصل الطروادي للفرنسيين ظل معششاً حتى اواخر القرن السابع عشر . وقد حمل السبب نفسه الذي من اجله وضعت نظرية الاصل الطروادي للفرنسيين ، فرنكاً وجلالقة وروماناً ، كتاباً آخرين على البحث عن ممسك آخر مخترع يكون اقرب الى المعقول فذهب بعضهم (Etienne Forcadel) الى ان الفرنك ليسوا سوى جلالقة هاجروا في زمن قديم ثم عادوا الى وطنهم وميراثهم وعلى هذا يكون كل الفرنسيين جلالقة . فلما اثبت ليبتز جرمانية الفرنك ولم يعد في الامكان دحضها ذهب عدد من الكتاب الى وحدة الشعب المؤلفة من المزيج الجلالقي والفرنكي وواحد منهم جعل اسم فرنسا « فرنكوغاليا » (Francogallia) واتخذه

---

[1] Franciade ، انظر جوانيه ص37 . وفيما يلي مثال من الفرنسيادة :

Muse, enten-moy des Sommets de Parnasse
Guide ma langue et me chante la race
De rois françois issus de Francion
Enfant d'Hcotor, Troyen de nation,
Qu' on appeloit en sa jeunesse tendre
Astyanax et du nom de Scamandre .
De ce Troyen conte - moy les travaux,
Guerres, desseings, et combien sur les eaux .
Il a de fois (en despit de Neptune
Et de Junon) surmonté la fortune
Et sur la terre eschapé de peris (perils)
Ains que (avant que) bastir les grands murs de paris .

عنوانا لمؤلفه [1] .

تراوحت النزعات القومية في فرنسا بين ان تكون الامة من اصل جلالقي او طروادي او جرماني. واشتد نزاع النظريات في الاصل بين مختلف الكتاب والمؤرخين الذين عالجوا هذه القضية القومية الفرنسية . وبديهي ان تكون الانظار اتجهت في البدء الى الوجهة السلالية من الموضوع ، لان اصطلاحات الرابطة الدموية الموروثة من العهد البربري كانت لا تزال مسيطرة ، وهي الاصطلاحات التي تسيطر على كل موضوع قومي في كل امة لا يزال عهدها بالبربرية قريباً او خضعت ، لعهد قريب ، لعوامل موجة بربرية . واشتد النزاع الداخلي في فرنسا حول هذه النقطة لانها كانت تهم طبقتي الاشراف والعامة في تنازعهما حقوق السيادة والحرية . وقد اولع عدد من اشهر كتاب الفرنسيين بالمفاخرة بالعنصر الجرماني الفاتح مزدرين كل فكرة جلالقية، لان الفتح شيء لامع محبوب عند كل الاقوام ، حتى حسبه هؤلاء الكتاب مغنياً عن روعة الواقع في نشوء الامم . وقد اشرنا الى ما كان من شأن العقائد السلالية في فرنسا في الفصل الثاني من هذا الكتاب فليراجع هناك .

سيطرت كل نزعة من هذه النزعات السلالية القومية على عصر من عصور حياة الامة الفرنسية ، وفاقا لظروف كل عصر ومطاوعة لمصالح الطبقات والفئات الخاصة . فسرى الاعتقاد بالاصل الطروادي مدة من الزمن ثم قويت العقيدة الجلالقية ثم سيطر المذهب الجرماني الفرنكي ، في التعليم المدرسي ، الذي يجعل الفرنك اسلاف الفرنسيين حتى مئة وخمسين سنة خلت . اما الان فالتعليم العمومي في فرنسا يجعل الجلالقة ، اهل البلاد قبل مجيء الفرنك ، اسلاف الفرنسيين [2] . اما الامة الفرنسية والقومية الفرفسية فتتمثلان في كلمة

---

1 هو المتشرع الكبير هطمن Hotman

2 جرانه ص 31

كانت استعمالا لم يحظ منذ البدء بمرتبته العالية ولكنها اخذت تنحت موقعها في القلوب حتى اصبحت اوضح صورة للامة الفرنسية والقومية الفرنسية هي : الوطن (Patric) [1] الذي جعل اسمي « فرنسيا » و « غليا » مترادفين . ومع ان اسم فرنسا هو الذي غلب على البلاد بالاستعمال فان الكيان الفرنسي ظل دائماً يطمح الى جعل حدوده حدود الجلالقة القديمة .

نكتفي بهذا المقدار للدلالة على ان تحديد الامة قد يتعرض للتأثر بعوامل العقائد والاغراض قبل ان تنجلي في الذهن حقيقة الواقع الاجتماعي . فالامة الفرنسية التي بقيت هي هي كانت أولا نسبا بعيداً ثم سلالة ثم اصبحت وطنا.

كما يجد الدارس الاجتماعي صعوبة في فهم حقيقة المتحد من الامثال والتشبيهات كذلك هو يجد صعوبة في فهم المتحد القومي او الوطني من وراء التحديدات التي قد تبدو متعارضة : وتكون كذلك احيانا ان لم يكن غالبا ، لان الذين حددوا الامة حددوها على ما سطع لكل منهم من نورها ووحيها في بيئته الخاصة . فرينان يحدد الامة متأثراً بتاريخ فرنسا والروحية الفرنسية حين قال: « ليس تكلم لغة واحدة او الانتساب الى مجموع شعبي واحد Ethnographique هو ما يؤلف الامة بل يكونها الاشتراك في فعل امور عظيمة في الماضي والرغبة في فعلها في المستقبل » [2] هذه صورة الامة الفرنسية من خلال تاريخ دولة الكبتيين وما بعدها . ولما كان دارس العلم السياسي يتناول موضوع الامة ويحاول فهمها من الاقوال التي ذهبت امثالا في هذا الشأن ،

---

1 Maurice Barrès يقول في كتابه: «Les Traits eternels de la France»

Nous sommes la nation qui, la premiére de toute l'Europe, a eu l'idée qu' elle formait une patrie ذكره جوانيه ص 32

---

2 ذكره جوانيه ص 226 . انظر ايضا مكيور الدولة الحديثة ص 123

ارى ان اتناول هذه التحديدات وان احلل اجزاءها، لكي اسهل على الطالب السياسي او الاجتماعي متابعة درس هذه القضية بالاسلوب الذي تعوده .

ان اول تحديد وضع لتعيين ماهية الامة وايجاد صورة ذهنية منطقية لها هو التحديد الذي اعلنه بسكال منتشيني Pascal Mancini في خطابه الشهير الذي افتتح به فرع الحقوق الانترنسيونية في جامعة تورينو ، في الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة 1851 وهذا نصه الحرفي :

« Nazione é una Società naturale di uomini, dà unità di territorio, di origine, di costumi, di lingua conformata à communanza di vita e di coscienza sociale » وترجمته : « الامة هي مجتمع طبيعي من الناس ذو وحدة ارضية (جغرافية) واصلية ووحدة عادات ولغة خاضع للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي » . وقد جلب هذا التصريح على منتشيني نقمة النمسا، التي سعت الى منع خطبه ، ومصادرة املاكه بامر ملك نابولي .

منذ صرح منتشيني بتحديده المشار اليه ونشره في السنة نفسها ، في Prelezioni تنبه المفكرون الحقوقيون والسياسيون والاجتماعيون الى وجوب تعريف الامة تعريفاً خالياً من الغرض ومن حرية القول الاستبدادي او غير المنقود. فتعاقبت التصريحات والتعاريف، التي لم يكن بعضها سوى توسيع او تعديل لتعريف منتيشيني . فشدد بعضها على عنصر معين من عناصر الامة وتشبث البعض الآخر بعنصر غيره او بمجموعة عنصرية خاصة . ويحسن هنا ، قبل البدء بتحليل عناصر الامة ، ان نذكر تعاريف اخرى بالوانها الخاصة لنرى تنوعات الفكرة الواحدة ونموها وتطورها .

بعد منتشيني ببضع سنوات عرف الامة متشرع آخر فرنسي Pradier - Fodéré بانها « مجتمع يشكله سكان بلاد معينة لهم لهجة معينة (Même langage) وترعاهم قوانين معينة وتوحدهم هوية الاصل والتوافق

الفيزيائي والاستعدادات المناقبية واتحاد طويل العهد في المصالح والشعور وتدامج في العيش على مر القرون. وما يفهم من القومية هو انها حصول حالة الامة في الواقع »[1] وفي سنة 1915 عرف اميل دركهيم Durkheim القومية بانها « جماعة انسانية تريد ، لاسباب اثنية او تاريخية فقط ، ان تحيا في ظل قوانين معينة وان تشكل دولة سواء اكانت صغيرة ام كبيرة ، وهو الان مبدأ مقرر عند الامم المتمدنة انه متى ثبتت هذه الارادة الموحدة نفسها باستمرار حق لها ان تعتبر الاساس الثابت الوحيد للدول »[2] . وفي سنة 1919 الف م. ايوانوف كتاباً بعنوان « البلغاريون امام مؤتمر الصلح » عدد فيه العناصر التي تؤلف الشخصية القومية وتحفظها فاذا هي : « وحدة السلالة ، الحدود الجغرافية ، اللغة . الدين ، الوحدة السياسية ، التاريخ والتقاليد ، الادب ، طريقة الحياة والمظاهر الثقافية العمومية ، وكلما ازداد ظهور العناصر في قومية ما ، ازداد احياؤها وحدة وازداد الشعور القومي ، الذي يحركهم ، توقداً واندفاعا »[3] . واننا نرى رنان يشدد على « المبدأ الروحي » للامة ولكنه يعود فيقول « Une nation resulte du marriage d'un groupe d'hommes avec une terre »[4] الامة تتولد من زواج جماعة من الناس وبقعة ارضية . ويأتي ايضا شبنغلر فيقول « ليست الامم وحدات لغوية ولا سياسية ولا بيولجية ، بل وحدات روحية[5] ومع ذلك نرى مبدأ السلالة يسيطر على معنى الامة في المانيا في حين ان هنالك تعاريف اخرى تعزز اهمية الارض كقول فن ايرن Fon Ihren « الارض هي القوم » وما ذهب اليه هردر Herder بهذا الصدد .

---

1 ذكره جوانيه ص 9

2 ايضا ص 10

3 ايضا ص 9

4 نقله جوانيه ص 386

5 نقله مكيور ايضا ص 123

اذا تركنا الان التحديدات الجزئية او الفرعية او الموضوعة من وجهة نظر واحدة او خاصة وعمدنا الى درس عناصر الامة استناداً الى التحديدات الشاملة غير المتميزة ، او المقصود منها ان تكون مجردة وجدنا هذه العناصر معددة على اتم وجه موضوع حتى الان في تعريفي منتشيني وايوانوف . ومن مقابلة هذين التعريفين نجد ايوانوف يستعمل « وحدة السلالة » حيث يستعمل منتشيني « وحدة الاصل » ونراه يضيف الى عناصر منتشيني الدين والوحدة السياسية والتاريخ والادب ويضع التقاليد في محل العادات ، وطريقة الحياة والمظاهر الثقافية العمومية في محل الاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي . فلنأخذ كل عنصر كما ورد في كل من هذين التعريفين ولندرسه ونقابله مع مشابهه .

نبدأ بتعريف منتشيني ونتناول قوله ان الامة هي Società naturale di uomini مجتمع طبيعي من الناس. فواضح من هذا القول ان المجتمع الطبيعي هو نقيض المجتمع الاصطناعي وبهذا القول وضع منتشيني حداً فاصلا بين الامة من حيث هي مجتمع بطبيعة الواقع اذ ترى الناس مشتركين في اسباب حياتهم الواحدة في مجرى طبيعي من التفاعل والترابط ، والدولة من حيث هي نطاق قد يتسع حتى يشمل ما هو اوسع من المجتمع الطبيعي فيكون مجتمعاً مصطنعاً من مجتمعين طبيعيين او اكثر . نأخذ مثلا سورية وبلاد العرب فنرى سورية متحداً تاما ، مجتمعا طبيعيا تجري ضمنه حياة افراده في ترابط وتفاعل تامين واشتراك في مصير واحد . فالسوريون يشتبكون اشتباكا متيناً في جميع المصالح كالزواج والتعاشر والتعاون الاقتصادي والجمعيات والاندية والاحزاب والنقابات والمدارس الخ. كذلك نرى بلاد العرب مجتمعاً ، بل مجتمعات طبيعية . فالعرب تجري حياتهم ضمن دوائر قبائلهم ولهم مصالحهم الخاصة في الزواج والرحلة والغزو والسلب . وليس لهم مصالح عمرانية الا في اسفل الجنوب في اليمن وهناك مصالحهم خاصة وضعيفة . والمصالح النفسية هي بالاجمال معدومة. ففي زمن الدولة الاسلامية اصبح هذان المجتمعان الطبيعيان مجتمعاً واحداً مصطنعاً هو مجتمع الدولة فاشتركا في دولة واحدة ولكنهما ظلا مجتمعين طبيعيين منفصلين في الحياة فمن استقر من العرب في

سورية اصبح جزءاً من المجتمع السوري الطبيعي وطلق البادية بالمرة . وهذا ما حدث مراراً في مجرى التاريخ ليس لسورية وبلاد العرب فقط بل لاقطار عديدة كالمجتمعات التي ضمتها رومة الى نطاقها الشرعي والدولي وبسطت عليها لغتها كجلالقة عبر الالب واقطار اخرى فان هذه المجتمعات اشتركت في حياة الدولة الرومانية ولكنها لم تكون وايطاليا مجتمعاً طبيعياً واحداً . وكان من البديهي ان تنقم النمسا على منتشيني لانه يوقظ في الطليان فكرة مجتمعهم الطبيعي فيكون فيها القضاء على سلطتهم في ايطاليا. فالامة اذاً مجتمع طبيعي ، لا بالقوة الخارجية ولا بالاستبداد ولا باي شكل من اشكال الاصطناع. اما قوام الامة (المجتمع الطبيعي) فيعطينا منتشيني عنصرها الاول: الوحدة الارضية ، او الحدود الجغرافية في تعريف ايوانوف .

كان منتشيني موفقاً كل التوفيق حين قدم العنصر الارضي على جميع عناصر المجتمع الطبيعي الاخرى . فقد رأينا في فصل سابق (الثالث) ان الارض هي اولى امكانيات الحياة على الاطلاق واليابسة عموما هي اولى امكانيات حياة الحيوانات ذات الجهاز التنفسي واولى امكانيات حياة الانسان . واشرنا هنالك الى تنوع البيئات وامكانياتها . فالبيئة الجغرافية ضرورية لحياة المتحد او المجتمع ضرورة الارض للحياة . واي متحد اخذناه وجدناه محدداً بالمساحة او البيئة ، لان الاقامة في الارض والعمران لهما شروط سابقة لا يتمان الا بها . وقد عرضنا لها في الفصل الثالث .

واذا اعدنا النظر في البيئة الجغرافية ،في القطر وما يتعلق به ، وجدنا ان الحدود ليست من التمام بحيث تفصل فصلا تاما بين اي قطر وكل قطر ، بين اي متحد وكل متحد ، والا لوجب ان نسمي كل قطر دنيا قائمة بنفسها. وحيث الفصل تام كما في الجزر يلجأ المجتمع الى ايجاد طرق واساليب للمواصلة وهو لا ينفك يحسن هذه الطرق والاساليب حتى يجعل الاتصال على افضل حالة ممكنة . لان العزلة التامة منافية للتمدن والارتقاء الثقافي. ولكن الحدود تقلل الاتصال ، سواء اكان سلمياً ام حربياً ، وتصعب التداخل والاختلاط الاجتماعيين مع الخارج بقدر ما تسهل اشتباك الجماعات في الداخل واتحادها .

فالبيئة المحددة هي البوتقة التي تصهر حياة هذه الجماعات وتمزجها مزجاً يكسبها شخصية خاصة ، كالشخصية التي يكتسبها الشبهان (البرنز) من مزج النحاس والتنك والرصاص ، وهي التي توجد الامكانيات لنشوء المراكز العمرانية التي تتألب عليها قوات المجتمع ويحتشد فيها نتاجه الثقافي، فتتكون البيئة الاجتماعية التي تصبح ذات مناعة تكمل ما نقص من الحدود الطبيعية . والحقيقة ان البيئة من حيث هي مركز الاجتماع والتكتل هي اهم من الحدود لتكون البيئة الاجتماعية ولكن الحدود الطبيعية ضرورية لوقاية المجتمع وحماية نموه حتى يستكمل قوته الشخصية . فبعض الامم جنت عليها قلة حدودها الطبيعية او رخاوتها وطلاقتها كبولونيا ، وارمينيا والى درجة اقل الاغريق والاراضي السفلى (هولندا) وبلجيكا . وكذلك سورية فقد جنت عليها كثيراً طلاقة تخومها من جهة الصحراء فالصحراء حد للبيئة السورية يقف عنده عمرانها وتمدنها وثقافتها ولكنها لم تكن حداً للقبائل المتحينة الفرص للاستيلاء على ارض آمن من الصحراء واضمن للعيش منها ،والاستقرار فيها.

لعل سورية افضل مثال للبيئة التي تصهر الجماعات المختلفة النازلة بها وتحولها الى مزاج واحد وشخصية واحدة . فنحن نعلم ان سورية كانت مأهولة في العصر الحجري المتوسط ، كما دلت البقايا المكتشفة في فلسطين، وانها على الارجح مصدر الثقافة المغالثية [1] . ونعلم ايضا ان جماعات شمالية كالحثيين وغيرهم قطعت طورس وهبطت سورية لتلتقي فيها بالجماعات الجنوبية الخارجة من الصحراء ، فتمتزج هذه الجماعات كلها وما اضيف اليها مما جاء من الغرب كالفلسطينيين بعضها بالبعض الاخر وببقايا جماعات العصر الحجري وتكون مزيجاً خاصاً. ومع اننا نتمكن، بالادلة الرأسية والدموية من تقصي مختلف السلالات الموجودة حالياً في سورية فاننا نرى لها كلها طابع البيئة الخاص الذي يكسبها تشابها قويا وتجانسا شديداً [2] . وقد رأينا ان هذا المزيج السوري تمكن من انشاء امبراطورية قوية بسطت سيطرتها على مصر واتخذت مصر قاعدة لها ، كما رأينا

---

1 انظر المستند

2 سنعود الى هذا الموضوع باسهاب في الكتاب الثاني

مصر تبسط نفوذها على سورية وكما رأينا امبراطورية الفرس تبسط ظلها على سورية ومصر. ولكن لم يؤثر شيء من ذلك على تحديد البيئة المتحد. وهنا تبدو لنا صحة قول فن ايرن « الارض هي القوم » وقول رنان في كيف تتكون الامة (راجع ص 161) والفرق الواضح بين المجتمع الطبيعي القومي والمجتمع المصطنع السياسي. وويدال دلابلاش الذي اشرت مرارا الى مؤلفه الهام في الجغرافية الانسانية. يقول [1] « ان ظواهر الجغرافية الانسانية (توزيع البشر) تنسب الى الوحدة الارضية التي لا يمكن تعليل تلك الظواهر بدونها. انها (الظواهر) تعزى، في كل مكان، الى البيئة التى هي بدورها وليدة توافق حالات فيزيائية » وهو يوافق « لواصور » في ان سكان اية بقعة كانت يتألفون من عدد معين من النوى المذرورة المحاطة بمناطق مشتركة المركز تقل كثافتها في ابتعادها عن مركزها [2]. فكل متحد له مراكز تجمع مشتركة تضعف عوامل الحياة وظواهرها وتقل كثافة السكان كلما ابتعدت عنها، فهي الكتل المغنطيسية التي تجذب ما حولها اليها.

ما اصدق هذا القول على سورية فهو يصدق عليها كما يصدق على فرنسا وعلى اي بلاد اخرى. خذ النوى المذرورة في سورية، في التاريخ القديم، تجد انها قد اصبحت كتلا مغنطيسية قوية كدمشق وبغداد (بابل) واورفه (اديسه) وحمص وحلب وبيروت والقدس. الا تقل كثافة السكان ومظاهر الحياة كلما ابتعدت عن القدس جنوبا وعن دمشق شرقا وجنوبا حتى تكاد تنعدم، ثم الا تقل عن حلب شمالا وشرقا وماذا غرب بيروت ونطاق بغداد اليست حوافيه رقيقة ؟ او ليست سورية كلها تجمعات صغيرة حول كتل مغنطيسية كبيرة ؟ ولو كانت القاهرة واقعة بين القدس ودمشق، مثلا، او بين القدس وقناة السويس، وقرى مصر ومزارعها واقعة في شبه جزيرة سيناء وما حولها بحيث يكون هنالك عمران واحد في بيئة واحدة، هي بيئة القطر

---

1 كتابه ص 7

2 ايضا ص 15

السوري ، أكان في الامكان حينئذ التكلم عن القطرين سورية ومصر ؟ وان جفاف الاقليم بسبب محق الحرجات والغابات ، الذي ساعد الصحراء على اقتحام التخوم السورية الجنوبية ، وتجويف الصحراء السورية كاد يفصل بين الشام والعراق او بين شرق سورية وغربها لولا النهران السوريان العظيمان الفرات ودجلة اللذان حفظا استمرار العمران السوري وامكانية تكاثره وتوثيق الحياة القومية ضمنه .

لا امة على الاطلاق بدون قطر معين محدود . اما ما ذهب اليه اسرائيل زنويل Israël Zangwill من ان الشعب اليهودي تمكن من الاحتفاظ بنفسه بدون بلاد [1] فمن الاغلاط الاجتماعية الفاضحة . فاليهود قد احتفظوا بيهوديتهم الجامدة من حيث هم مذهب ديني . وقد اكسبهم دينهم الشخصي عصبية لا تلتبس بالعصبية القومية الا على البسطاء والمتغرضين . اليهود ليسوا امة اكثر مما هم سلالة (وهم ليسوا سلالة مطلقاً) ، انهم كنيس وثقافة [2] . لا يمكننا ان نسمي اليهود امة اكثر مما يمكننا ان نسمي المسلمين امة والمسيحيين امة او السنيين امة والشيعة امة والارثوذكس والكاثوليك امة الخ . ولجميع هذه المذاهب عصبياتها وتقاليدها التي تتميز بها .

الامة تجد اساسها ، قبل كل شيء آخر ، في وحدة ارضية معينة تتفاعل معها جماعة من الناس وتشتبك وتتحد ضمنها . ومتى تكونت الامة واصبحت تشعر بشخصيتها المكتسبة من اقليمها ومواد غذائها وعمرانها ومن حياتها الاجتماعية الخاصة وحصلت من جميع ذلك على مناعة القومية اصبحت قادرة على تكميل حدودها الطبيعية او تعديلها ، على نسبة حيويتها وسعة مواردها وممكناتها . وبقدر ما هي الحدود جوهرية لصيانة المجتمع من تمدد المجتمعات الاخرى القريبة منه كذلك هي ، الى درجة اعلى ، طبيعة البيئة ومواردها . فالامة تكون قوية او ضعيفة ، متقدمة او متأخرة ، على نسبة ممكنات بيئتها

---

1 نقله جوانيه ص 385

2 باركر ص 15

الاقتصادية ومقدرتها على الانتفاع بهذه الممكنات . وان وجود موارد كافية لتأمين التبادل الداخلي ومعادلة التبادل الخارجي ،او زيادةالصادر على الوارد، هو من شروط البيئة الصالحة لنشوء الامة . القطر والجماعة ، وان شئت فقل القطر الصالح والقوم المؤهلون،هذانهما العنصران الاساسيان لنشوء الامة.

يعرف منتشيني العنصر الثاني بوحدة الاصل (العرق) للجماعة ، اما ايوانوف فيعرفه بوحدةالسلالة . وفي هذين التعريفين ، على ما بها من تشابه في المرمى، اختلاف قد لا يكون يسيراً ، وهذا الاختلاف هو في اختيار ايوانوف لفظة السلالة التي قد لا تخلو من مغزى في استثارة نعرة معينة . يمكن ان تتفق هاتان اللفظتان : الاصل والسلالة ، اذا عني بالسلالة تعاقب اجيال شعب معين بصرف النظر عن الحقائق الانتربلوجية ـ الحيوانية (زولجية) . فان من المؤلفين في السلائل كمرتيله(Mortillet)من يميز بين السلالات التاريخية والسلالات الحيوانية الفيزيائية . وهذه نظرة تذهب الى ان اختلاط سلالات امة معينة وتمازج نسلها قد يولدان ، على التعاقب ، سلالة فرعية او ثنوية ، بحيث يصبح في الامكان التكلم عن السلالة السورية والسلالة الالمانية والسلالة الانقليزية . وقد ورد ذكر السلالة السورية على اقلام الكتاب كما جرت على اقلامهم السلالة الانقلوسكسونية التي يسخر منها كثيراً ولز في مجتزأه التاريخي . والفرنسيون ، الذين ينتقدون الالمان كثيراً في مذهبهم السلالي في القومية المؤسس على نظرية قوبنو وتشمبرلين الارية ، يعتنقون هذا النوع الفرعي من السلالة فتقوم السلالة التاريخية لهم مقام السلالة الفيزيائية . ومع ان هذه السلالة قد تراوحت عندهم بين ان تكون فرنكية جرمانية او جلالقية فهي قد رست على السلالة الفرنسية التي تتخذ الجلالقة اسلافا لها ، محافظة على الارتباط التاريخي بين القوم والارض .

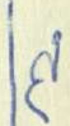
الحقيقة انه ليس لامة من الامم الحديثة اصل سلالي واحد ، حتى ولا اصل شعبي واحد، اذا اردنا ان نعود الى الاصل الفيزيائي او التاريخي. فلست اخال منتشيني يعتقد ان الطليان من اصل سلالي واحد او من اصل شعبي

واحـد . فاذا تتبعنا تاريخ تكون الامة الايطالية كان الاصل الوحيد الثابت الذي نتمكن دائماً من تقريره هو الارض ايطاليا . اما الاصل الشعبي فهو مشترك في عدة اصول. فقد نشأت رومة من ثلاث قبائل وجدت نفسها محاطة بشعوب قوية مختلفـة اللغات والثقافات كالاتروريين (الاترسكيين) الذين اخـذ الرومان عنهم فنونهم واللاتين الذين اخذوا عنهم لغتهم واللوكانيين والليقوريين والجـلالقة امام الالب وغيرهم ، ثم جاء فيما بعد اللمبرديون. ومن اختلاط هذه الشعوب في ايطاليا نشأت الامة الايطالية (لا الامة الرومانية). وقـد اشرنا الى سلالات ايطاليا الانتربلوجية (راجع ص 38) وسواء أأخذنا السلالات الايطالية من الوجهة الانتربلوجية ام من الوجهة التاريخية وجدناها غير موحدة الاصل.

ان الامة من الوجهة السلالية او من وجهة الاصل، هي مركب اومزيج معين كالمركبات الكيماوية التي يتميز كل مركب منها بعناصره وبنسبة بعضها الى البعض الآخر. وهذه الامة السورية فاي اصل واحدها؟ اهو الاصل الكنعاني (الفينيقي) والكنعانيون جاؤوا طبقة فوق طبقة اهـل العصر الحجري ، ام الاموري ام الحثي ام الارامي (الكلداني)؟ او ليست سورية مزيجاً اومركباً معيناً من هذه الشعوب مضافا اليها العرب بعد الاسلام وغيرهم . واذا اخذنا الوجهة الانتربلوجية من الاصل السوري وجـدنا انه كذلك مزيج من مفلطحي الرؤوس ومعتدليها ومستطيليها كما اثبتت ذلك الابحاث الانتربلوجية [1] وكما سنسهب ذلك في الكتاب الثاني . وقد رأينا ان فرنسا لا تختلف عن سورية وايطاليا بهذا الصدد . واذا وجهنا نظرنا الى انكلترا والجزر البريطانية عموما فاننا نجد الحالة نفسها من المزيج ففي انكلترا وحدها شعبا « الانكليز والسكسون» ثم ما جاءهم من رومان ونرمان ، وهولاء الاخيرون كان لهم التـأثير في تغيير

1 انظر بهذا الصدد ابحاث كبرس ، وابحاث الدكتور شنكلن في الجامعة الاميركانية

لغة الانكليز حتى اصبحت لاتينية اكثرمنها جرمانية ،حتى انشد تنسون «من نرمان وسكسون ودنمركيين نحن » وليس الاصل الانكليزي سوى ما جعل شكسبير هنري الخامس يحث به جنوده : Yeomen whose limbs were made in England « الرجال الذين صنعت اعضاؤهم في انقلترا » وماذا نقول في المانيا. اليست هي خليط من نحو ثلاث سلالات انتربلوجية وتختلف اشكالها السلالية في الشمال والجنوب والوسط ، مع كل ما يحكى هنالك عن نقاوة الدم الآري ؟ وهذه اميركا امامنا فاية وحدة سلالية،تاريخيـة او انتربلوجية لها ؟ اليست الولايات المتحدة خليطاً من انقلـيز والمان وارلنديين وطليان وسوريين وفرنسيين واسوجيين الخ . والبرازيل ايضاً هي خليط من برتغاليين وسوريين والمان وطليان وزنوج وهنود اصليين واسبان. وعلى هذا قس اية امة اميركية اخرى . اكرر ان الاصل الانساني الوحيد للامة هو وحدة الحياة على تعاقب الاجيال وهي الوحدة التي تتم دورتها ضمن القطر . المزيج المتجانس اصل كاف للامة وهذا المزيج هو ما يعبر عنه احياناً بلفظة السلالة .



يضع منتشيني بعد وحدة الاصل وحدة العادات واذابحثنا عن مرادفها او مقابلها في تعريف ايوانوف وجدنا التقاليد ولعل منتشيني يجعل العادات تشمل التقاليد ولعل ايوانوف يجعل التقاليـد تشمل العادات ، والفرق بـين العادات والتقاليد ان الاولى لا يجب ان تكون موروثة من الاجيال الماضية والثانية وراثية في الاجيال . تتناول التقاليد ما هو بمعنى الطقس او القانون غير المكتوب لما يكون لها من المساس بالحالات النفسية العميقة وشؤون الحياة الهامة كالزواج واحواله والمآتم وطريقة دفن الموتى ونظـام العائلة ، وهي لذلك اثبت واصلب من العادات . فقد يجوز ، في العرف ، ان تترك عادة من العادات ولكن الخروج على التقليد يعتبر تمرداً وثورة .اما العادات فتتناول ما هو بمعنى الازياء والتصرف في حالات وظروف معينة كـحالات الاكل والشراب واللباس والمعاشرة والاعياد . فمن العادات عادة تقبيل الايدي ،مثلا، وشرب قدح من العرق قبل الاكل وعادة التقبيل عند الوداع او اللقاء وعادة السلام والتعارف والرقص . وبالاجمال العادة تتعلق ، على الاكـثر ، بالذوق

وما هو مستحسن وما هو مكتسب في الحياة الجيدة اليومية ، والتقليد يختص بما هو جوهري في الحياة الاجتماعية وما يتعلق بالاعتقادات الخفية المتوارثة ومنها ما صار اعتقادات دينية او نصف دينية . ولا ينفي ماقلته بشأن وراثية التقاليد ان يكون هنالك عادات وراثية ايضاً فان من الاشياء التي تصبح مستحبة ما يظل كذلك اجيالا .

تنشأ التقاليد من اختبارات الحياة والاعتقادات بشأنها وتنشأ العادات من ظروف الحياة واستحسان بعض اساليبها ورموزها . وهذا يعني ان التقاليد والعادات تنشأ بعامل الاجتماع في المجتمع ، فهي شأن من شؤون المجتمع ونتيجة من نتائجه اي انها ليست سبباً من اسبابه، كما يظن عادة بعض الدارسين سطحياً ، الذين يوهمون ان توافق بعض عادات عند عدد من الامم سبب يكفي لالغاء واقع هذه الامم والتعويض عنه باستنتاج امة واحدة موهومة من عادات او تقاليد معينة . فان من التقاليد والعادات ما هو مشترك بين عدة امم او بين عدد كبير من الامم ، خصوصاً الامم التي كانت قديما قبائل او شعوبامتجاورة كالشعوب السامية . فان هذه الشعوب جميعها تشترك في تقاليد وعادات بعضها ديني وبعضها اجتماعي ولكن هذه التقاليد والعادات ليست كل تقاليدها وعاداتها موحدة ، بل اننا نجد لكل امة من هذه الامم تقاليدوعادات خاصة بها ناتجة عن اختباراتها الخاصة الشخصية وعن نمو اذواقها بتفاعلهامع بيئتها وباتصالها بالعالم الخارجي . ووحدة هذه التقاليد والعادات الشخصية ، التي تظهر وجهاً من نفسية الامة في مجرى حياتها ، هي العنصر الهام من عناصر وجود الامة.

كل امة تنشأ بعامل ارتباطجماعةمن الناس ، مها كانت تقاليدها وعاداتها ومها كان مصدرها ، ببقعة من الارض لابدمن ان تكون في مجرى حياتها تقاليد جديدة وعادات جديدة . فالتقاليد معانها وراثية ،تنشأ وتندثر بعامل الحياة لتحل محلها تقاليدجديدةو كذلك العادات وهي اسرع تبدلا من التقاليد. كل ارتقاء في امة يحدث تعديلا في التقاليد والعادات . والامة التي تتحجر تقاليدها وعاداتها تكون هي نفسها في حالة تحجر . هكذا الصين ، مثلا ، فان

صلابة تقاليدها حرمتها التقدم بقدر ما فصلتها عن تقاليد العالم المتمدن . ان التقاليد تصبح في مثل هذه الحالة كالاغلال والقيود لا يمكن الامة ان تحيا حرة الا بتحطيمها . يجب ان تكون حياة الامة اقوى من تقاليدها والا قتلتها التقاليد . التقاليد والعادات تكسب حياة الامة لوناً خاصاً تتميز به ولكنها لا تكون الامة .

كل تطور ثقافي في امة من الامم يولد تقاليد جديدة . وشرط التقاليد المميزة الامة ان تكون متولدة من حياة الامة. فهنالك تقاليد مشتركة بين عدد من الامم ولكن ليست هذه التقاليد هي التي تميز الامة .

يشترك منتشيني وايوانوف في اعتبار وحدة اللغة عنصراً اساسياً في تكوين الامة . والحقيقة ان اللغة (اية لغة كانت) من حيث هي وسيلة للتخاطب والتفاهم البشري في المجتمع هي من ضرورات الاجتماع الانساني الداخل فيه العقل والنفس . وان وسيلة من وسائل التفاهم ضرورية ايضاً للتجمهر الحيواني الراقي كاصوات بعض الطيور وتنبيهات بعض الحيوانات الصوتية كنباح الكلاب وهريرها او الصامتة كاشعارات العث او الذئاب .

كل مجتمع يجب ان يكون له وسيلة او وسائل ، لغة او لغات ، لهجة او لهجات يتخاطب بها افراده ويتفاهمون ويتفاعل تفكيرهم وتزداد ثروتهم العلمية. وهكذا نرى ان اللغة وسيلة من وسائل قيام الاجتماع لا سبباً من اسبابه ، انها امر حادث بالاجتماع في الاصل لا ان الاجتماع امر حادث باللغة .

ثم ان اللغة متى صارت لغة جماعة او جماعات معينة اصبحت حاملة الميراث الادبي الثقافي لهذه الجماعة او هذه الجماعات. وفي هذه الحقيقة يكمن سر ان اللغة عنصر من عناصر الامة . فالامة من حيث هي متحد اجتماعي ذو نوع من الحياة خاص به في بيئته لا بد لها من لغة واحدة تسهل الحياة الواحدة وتؤمن انتشار روحية واحدة تجمع آدابها وفنونها وعواملها النفسية واهدافها ومثلها العليا.

ولا فرق بين ان تكون اللغة الواحدة مختصة بالامة الواحدة او مشتركة بين عدد من الامم ،لان الهام للامة في اللغة هو ما تحمله من صور حياتها وحاجاتها النفسية والمادية وما هو من خصوصياتها، لا اشكال الفاظها القاموسية. فليس الفرق عظيما بين ان يكون اسم الباب «باباً» والحجر «حجراً» وان يكون اسم الباب door او Porte او Tuer واسم الحجر Stone او Pierre او Stein . وان يعرف الانسان اوالقوم لغة لا تعبر عن احتياجاته واشتياقاته كأن لا يعرفها . وبهذا المعنى فقط يجب ان يفهم قول بلنتشلي(Bluentschli) : « متى استبدل المرء لغة جديدة بلغته خسر قوميته» اي متى كانت اللغة الجديدة لغة راقية غنية بادبها الخاص حاملة مجاري نفسية وفكرية قوية تجرف معها النفسيات الجديدة الداخلة فيها . اما حيث تكون النفسيات الداخلة في لغة جديدة قوية فانها تفعل في اللغة وتكسبها من نفسياتها وتوجهها في التعبير عن احتياجاتها ومثلها العليا شأن السوريين في اللغة العربية فانهم اخذوها من الفاتحين العرب ولكنهم نقلوا الى هذه اللغة علومهم وادبهم ومجاري فكرهم فاصبحت اللغة العربية لغتهم القومية تسيطر نفسيتهم ومواهبهم فيها في بيئتهم وتجاوزها . وان من الاسئلة التي تنبه الفكر الى هذه الحقيقة : ماذا كانت تكون الثقافة العربية لولا ما نقله السوريون من السريانية واليونانية الى اللغة العربية ؟ .

لا يصح قول بلنتشلي المشار اليه الا في الاقوام الغافلة عن نفسها ووحدة اجتماعها اما الاقوام المتنبهة الحية الوجدان القومي او الاجتماعي فيمكنها ان تقبل لغة جديدة ولا تفقد خصائصها القومية الاخرى . وهذه ارلندة يعود اليها تنبهها القومي وعصبيتها بعد قرون من سيطرة اللغة الانكليزية .

ان وحدة اللغة لا تقرر الامة ولكنها ضرورية لتماسك الامة . وحيث تتخذ اللغة اساسا للقومية يكون القصد من ذلك التعبير عن حاجة التوسع والامتداد ، كما هي الحال في المانيا التي يلجأ مفكروها احياناً الى وحدة السلالة

واحياناً الى وحدة اللغة [1] لسد حاجتها الى التوسع ولضم اقلياتها الداخلة في امم اخرى تعمل على اذابتها .

وان من اكبر الاغلاط تحديد الامة باللغة . فليس عالم اللغة العربية امة واحدة وليس عالم اللغة الانكليزية او اللغة الاسبانية امة واحدة . وكل امة من امم هذين العالمين تنشيء ادبها الخاص الذي يعالج حاجاتها ويظهر نفسيتها وذوقها بلغة هي مشترك بينها وبين غيرها . وبعض الجماعات لا تفتقر الى لغة واحدة لتكوين امة . فهذه سويسرا يطلق عليها كل ما يطلق على الامة الا وحدة اللغة ولكنها بدون لغة واحدة تظل ضعيفة الوحدة الروحية .قابلة للتفسخ بعامل التأثيرات الثقافية التي تمتد اليها بواسطة لغاتها المتعددة المتصلة وراء الحدود بامم عظيمة ذات مراكز ثقل ضخمة وجاذبيات قوية .

انه ضروري ان تتكلم الامة لغة واحدة وليس ضرورياً ان تنفرد بهذه اللغة . على ان اهم ما في اللغة للامة الادب الذي تنشئه هذه الامة ليعبر عن روحيتها ويحفظ روحيتها ومثلها العليا .

يزيد ايوانوف على عناصر منتشيني عناصر منها الدين فهو يرى الدين لازما للشخصية القومية ومن صفاتها الاساسية وما يقصده من الدين هو الاعتقاد الديني الواحد العام في المتحد الاجتماعي .

---

1 مثال ذلك غناه موريس ارنط M, Arndt :

So weit die deutsche Zung klingt
Und Gott in Himmel Lieder singt,
Das soll es sein ! Das soll es sein !
Das ganze Deutschland soll es sein.

معناه : يجب ان تشمل المانيا الكاملة مدى مايرن اللسان الالماني وما يترنم الله في السماء !

مما لا شك فيه ان الدين ظاهرة نفسية عظيمة الخطورة من ظواهر الاجتماع البشري . انه ظاهرة قد نشأت وارتقت بعامل تطور الانسانية نحو سيطرة النفس وحاجاتها في شؤون الحياة . وهو قد تطور مع تطور البشرية ولن ينفك يتطور بتطورها . ولكن تطوره بطيء جداً وفي هذا البطء سر خطورته .

اذا مثل الدين وحدة العقيدة في شعب كان من العوامل على تقوية التجانس الداخلي الروحي فيه . وكلما كان الشعب متأخراً في الارتقاء الفكري الفلسفي كلما كان الدين افعل في السيطرة على العقلية .

الحقيقة ان الدين في اصله لا قومي ومناف للقومية وتكوين الامة ، لانه انساني ذو صبغة عالمية . ففي التعاليم الدينية المسيحي اخو المسيحي باعتبار المسيحيين جماعة واحدة ، والمسلم المحمدي اخو المسلم المحمدي باعتبار المسلمين المحمديين جماعة واحدة . ورابطة المسيحيين دم الفادي وتعاليمه ورابطة المسلمين المحمديين القرآن المنزل وكل دين الهي في العالم يزعم انه للعالم كله لا فرق بين سوريه واغريقيه ويسعى لتوحيد العالم تحت ظله .

ولكن الدين ، الهياً كان او غير الهي ، لم يشذ عن قواعد الشؤون الانسانية ولم يخرج على مقتضيات انواع الحياة البشرية وحاجاتها المتباينة او المتقاربة . فحيثما تضاربت مصلحة المجتمع ، الدولة او الامة ، ومصلحة الدين كانت مصلحة المجتمع هي الفاصل في النزاع . هكذا اخذت السور القرآنية المدنية تتطور لتوافق حاجة الجماعة فصارت جهاداً وتشريعاً ، بينما كانت السور المكية فكراً متسامياً الى « الله » وروحاً متجردة من الاصنام والدنيويات . وهكذا صارت تعاليم لوثر المصلح وسيلة لتحرر المانيا من ربقة رومة . والكنيسة الانقليكانية (الانقليزية) التي انشئت وازيلت ثم اعيدت لتفي بغرض المجتمع الانقليزي فظلت في طقوسها كأنها كاثوليكية او ارثوذكسية ولكنها استقلت عن هذين المذهبين .

ان الدين واحد ولكن الامم متعددة . وفي احتكاك الامم بالامم تتمسك كل واحدة بكل عقيدة او باية عقيدة ، سواء اكانت دينية او غير دينية ،

لتحافظ على استقلالها الروحي فلا تخضع لامة اخرى بواسطة السلطة الروحية الدينية ولذلك ظلت اسكتلندة كاثوليكية لكي تحتفظ بشخصيتها القومية فلا تذوب في انقلترا وما يقال في اسكتلندة يقال في ارلندة. وهكذا لجأ الفرس الى الشيعة ليحدثوا انقساما يتخلصون فيه من سيطرة سورية الاموية وليستعيدوا استقلالهم و نفوذهم الروحيين والماديين، لتصبح السيطرة فيهم، وتمسكت سورية بالسنة لكي لا تخضع للفرس.

اما الدين من الوجهة العقلية فهو نوع من انواع الفلسفة في تعليل مظاهر الكون وتقدير نهايته ومصير النفس البشرية. ومع ان جميع الاديان الكبرى تجمع على فكرة اساسية واحدة، هي فكرة الله وخلود النفس والعقاب والثواب فهي تختلف في جزئيات تتعلق بالمناقب والاخلاق بالنسبة الى البيئة التي ينشأ فيها كل دين وحاجة الحياة لتلك البيئة. ثم تأتي المذاهب والشيع لتعدل الدين من هذه الوجهة ليلائم حاجات ومصالح مجتمع خاص او مجتمعات خاصة ونحن نعتقد ان ايوانوف قصد المذهب حين قال الدين فجعل المذهب دينا قائما بذاته وهو من باب تسمية الجزء بالكل او الفرع بالاصل.

ان في المجتمعات الانسانية نزعة الى اكساب العقائد العامة صبغات والوانا واذواقا من خصوصيات شخصياتها. فكل مجتمع يحب ان يرى نفسيته وشؤونه الخصوصية في معتقداته ومذاهبه، اي ان يطبع المذهب العام او المشترك بطابع شخصي. فالمجتمع الروسي، مثلا، قد ادخل في الارثوذكسية الشيء الكثير من شخصيته وخصوصياته الاجتماعية فالترانيم والاجواق الكنسية وتقبيل الاقارب والاحباب ثلاثا والاعياد ومظاهرها القومية، هذه الاشياء الثانوية بالنسبة الى الاعتقاد بالله والخلود والمسيح لها الشأن الاول في نفسية المجتمع وهي هذه الاشياء التي لها قيمة قومية في حياة المجتمع، اشياء تقليدية صبغ المجتمع الدين بها فاصبحت تقاليد دينية قومية.

ارادت الجامعة الدينية ان تحول دون نشوء الامم ولكن الامم عدلت الدين ليوافق نزعاتها القومية. وبهذا المعنى صار الدين ويصير عنصراً من عناصر القومية. وفي الامم، التي تتعدد فيها الاديان او المذاهب تكون القومية

الدين الجامع ويعود الدين الى صبغته العامة وعقائده الاساسية المتعلقة بما وراء المادة .

ان شرط كون الدين عنصراً قومياً ان لا يتضارب مع وحدة الامة ونشوء روحها القومية فاذا فقد هذا الشرط زالت عنه صبغته القومية وعادت له طبيعته العامة .

ومن العناصر التي يعددها ايوانوف الوحدة السياسية والتاريخ والادب وطريقة الحياة والمظاهر الثقافية العامة . اما الوحدة السياسية فهي التاج الذي تتوج به الامة نفسها وتحصل به على اعتراف الامم الاخرى بحقها في الحياة وكرامتها الشخصية . ولكن الوحدة السياسية ليست شرطاً للامة ولا عنصراً من عناصرها ولكنها ضرورة من ضرورات الامة ليكون لكيانها الاجتماعي-الاقتصادي قيمة حيوية عملية. كل امة تتجه بطبيعة وجودها الى انشاء دولة تضمن لها سيادتها وحقوقها الانترنسيونية .

واما التاريخ فهو سجل مجرى حياة الامة وخطورته هي في القومية ، في روحية الامة ووجدانها ، لا في الامة بعينها فان ذكريات ما قامت به الامة وما عانته تقوي الوجدان القومي . ووحدة الامة هي التي تعين التاريخ القومي . فلولا ما حدث من وحدة الاغريق بعد الاسكندر لظل تاريخ الاغريق تواريخ اثينا واسبرطة وطيبة ومكدونيا او تواريخ الدوريين واليونانيين والهلينيين الخ.

واما الادب فقد ذكرناه في باب اللغة [1] .

واما طريقة الحياة فمن مميزات الامة الناشئة في بيئة معينة تقدم امكانيات معينة من زراعة وصناعة وسلك بحار وتجارة وتفصيلها في باب العادات والتقاليد.

واما المظاهر الثقافية العمومية فتشمل جميع ما ذكر من لغة ودين وعادات وتقاليد وتاريخ وادب وهي كلها من مظاهر المتحد الاجتماعي الاتم الذي هو الامة .

ومع ان تفصيل المظاهر الثقافية قد مر معنا فيحسن بنا ان نعرض هنا لشيء ادق من المظاهر الثقافية ولم يذكره ايوانوف ولا منتشيني ولكن الكتاب

---

1 راجع الصراع الفكري في الادب السوري ، للمؤلف .

الاجتماعيين يوردونه في ادلتهم على الامـة وهو الثقافة او وحدة الثقافة.
والثقافة هنا بمعنى Culture وهي مجمل العلوم والفلسفات التي تتناول الحياة وما له علاقة بها، وما يحصل من ذلك من مستوى عقلي واتجاهات فكرية واعتقادات مناقبية وادراك للشؤون النفسية والمادية.

الحقيقة ان طبيعة الثقافة عامة كطبيعة الدين. وانما قد مر على العالم ادوار ثقافية سمي كل دور منها باسم الشعب الذي قام به او اللغة التي كانت واسطته. فاذا تكلمنا عن الثقافة السورية عنينا بها الدور الذي قام به السوريون في ترقية الثقافة العامـة وهو دور الجمع بين الزرع والغرس وسلك البحار والتجارة وانشاء الحروف الهجائية والدولة المدنية وخصوصا العناصر الاربعة الاخيرة، كما تقدم معنا آنفاً. واذا تكلمنا عن الثقافة الاغريقية عنينا بها الفلسفة والفن اللذين انشأهما الاغريق واعطوهمـا للعالم. واذا تكلمنا عن الثقافة العربية عنينا بها ترقية العلوم التي اشتركت فيها العناصر الداخلة في نطاق اللغة العربية، كالحساب والهندسة والطب والكيمياء. واذا تكلمنا عن الثقافة العصرية عنينا بها الدور الاخير الذي تشترك فيه الامم المتمدنة واللغات الحية كلها مع الاحتفاظ بالالوان او الصبغات القومية لبعض نواحي الثقافة.

اذن، ليست الثقافة شيئاً خاصاً، بـل شيئاً عاما يتفاوت في الدرجات بين الاقوام. فالسوريون والانقليز والالمان والفرنسيون والمصريون وجميع الاقوام المتمدنة يشتركون في ثقافة واحدة عامة دورها هو الدور العصري. ولكن كل امة من هذه الامم تحتفظ لنفسها باسلوبها الادبي او الفني الخاص في ما تعطيه لهذه الثقافة. ويجوز ان يكون لكل امة بعض مظاهر ثقافية خاصة.

اذن لا تعين الثقافة الامة ولكن درجة الثقافة تكون فارقا بين امم وامم. والسبب في هذا الفارق اقتصادي جغرافي قبل كل شيء، حيثما وجدت المؤهلات الروحية.

بقي في تحديد منتشيني عبارة قوية هي كون الامة مجتمعاً طبيعيـاً من ابرز صفاته خضوعه للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي.

هذه هي نقطة الابتداء الحقيقية الاساسية لوجود الامة ولتعريف الامة . شرط المجتمع ، ليكون مجتمعاً طبيعياً ان يكون خاضعاً للاتحاد في الحياة والوجدان الاجتماعي ، اي ان تجري فيه حياة واحدة ذات دورة اجتماعية اقتصادية واحدة تشمل المجموع كله وتنبه فيه الوجدان الاجتماعي ، اي الشعور بوحدة الحياة ووحدة المصير فتتكون من هذا الشعور الشخصية الاجتماعية بمصالحها وارادتها وحقوقها .

كل ميزة من ميزات الامة او صفة من صفاتها تابعة لمبدأ الاتحاد في الحياة الذي منه تنشأ التقاليد والعادات واللغة والادب والدين والتاريخ (انظر ص 145و 147) .

الامة متحد اجتماعي او مجتمع طبيعي من الناس قبل كل شي آخر . وكل ما مر آنفاً من العناصر هي اوصاف للامة ناشئة من مجرى حياتها وتاريخها وهي قابلة التطور والتكيف فقد تتعاقب الاديان ويتحول الادب وتتبدل العادات وتتعدل التقاليد وترتقي الثقافة في امة من الامم من غير ان يشوب سنة نشوء الامم شائبة ومن غير ان ينتفي وجود الامة ، الى ان تزول الامم والقوميات من الوجود ويصبح العالم كله متحداً اجتماعيا واحداً لا تفصل بينه فواصل ارضية او اجتماعية او اقتصادية .

لقد عرفنا المتحد الاجتماعي في مكان آخر (ص 148 و 153) فراجعه هناك . ومما مر في بحثنا في تعريف الامة وعناصرها يمكننا ان نستخلص قاعدة عامة لتعريف الامة تعريفاً غير خاضع لتأثير واحد معين من تاريخ او ادب وهي:

الامة جماعة من البشر تحيا حياة موحدة المصالح ، موحدة المصير ، موحدة العوامل النفسية ـ المادية في قطر معين يكسبها تفاعلها معه ، في مجرى التطور ، خصائص ومزايا تميزها عن غيرها من الجماعات .

الاتم الكنعاني

ما دمنا قد بلغنا حد الوجدان القومي الذي هو ابرز الظواهر الاجتماعية العامة العصرية فقد بلغنا هذا الدين الاجتماعي الخصوصي الذي اعطى الكنعانيون

فكرته الاساسية للعالم ونعت في بعض الظروف بالخديعة الكنعانية [1] او الاثم الكنعاني .

ومن الهام جداً للعلم الاجتماعي ان نستقصي سبب نسبة الرابطة القومية المؤسسة على فكرة الوطن الى السوريين الكنعانيين ، لان هـذا الاستقصاء يساعدنا على فهم هذه الرابطة الروحية المتينة . ولا بد لنا من الاعتراف باننا لم نقف في ما طالعناه من كتب التاريخ والاجتماع على سوى هـذه الاشارة السريعة الى اصل الوطنية الكنعاني ومع ذلك فلن يصعب علينـا اكتشاف السبب بدرس احوال الكنعانيين الاجتماعية والسياسية .

ان الكنعانيين ، من بين جميع شعوب التاريخ القديم ، كانوا اول شعب تمشى على قاعدة محبة الوطن والارتباط الاجتماعي وفاقاللوجدان القومي،للشعور بوحدة الحياةووحدة المصير ،فارتحلت جماعة منهم من حوالي البحر الميت الى الشمال الغربي ونزلت على الساحـل امام لبنان وعرفت في التاريخ باسم الفينيقيين [2] الذي اصبح اشهر من اسم كنعان ولكنها ظلت محافظة على نسبها الكنعاني فظل الفينيقيون يسمون انفسهم كنعانيين .

انشأ الفينيقيون(الكنعانيون) الدولة المدنية فكانت طرازاً جرى عليـه الاغريق والرومان . ومع ما نشأ عنـدهم من الدول فانهم لم يتحاربوا وظلوا محافظين على صفة الشعب الواحد المتضامن في الحياة وكانت زعامـة فينيقية تنتقل من مدينة الى مدينة ، من دولة الى دولة بعامل التقدم والكبر وازدياد المصالح والنفوذ كانتقال الزعامة من مدينةصيداء الى مدينة صور التي اسست

---

1 هرتس ، كتابه المذكور ص162 نقلا عن قوبنو . انظر ايضا افلاطون ، الجمهوريـة ، الفصل الثالث .

2 ان حكاية مجيء الفينيقيين من خليج العجم او البحر الاحمر ليست موثوقا بصحتها وقد اصبحت ساقطةبعد الادلة الجديدة المثبتة ما ذكرناه آنفاً . ماير (ج 2 ف356 الحاشية)يذكر نفي مجيء الفينيقيين من البحر الاحمراو جزائر البحرين وان كان كيتاني قبل القول بمجيء الفينيقيين من خليج العجم (كتابه ج ١ . ص 185) .

اول امبراطورية بحرية في التاريخ .

وباكراً اسس الفينيقيون الملكية الانتخابية وجعلوا الملك منتخباً لمدة الحياة فسبقوا كل الشعوب والدول التاريخية الى تأسيس الدولة الديمقراطية. وما الدولة الديمقراطية سوى دولة الشعب او دولة الامة . هي الدولة القومية المنبثقة من ارادة المجتمع الشاعر بوجوده وكيانه .

وان المحافظة على الرباط الوطني القومي عند الفينيقيين ظل ملازماً لهم في انتشارهم في طول البحر السوري وعرضه وفي المستعمرات والامبراطوريات التي انشأوها فظلت الحقوق المدنية في الزواج والاختلاط وجميع المظاهر الاجتماعية والثقافية واحدة لهم جميعاً ولم يكن هنالك استثناء الا في الحقوق السياسية .

ومع ان الفينيقيين (الكنعانيين) انشأوا الامبراطورية البحرية فان انتشارهم كان انتشاراً قومياً بانشاء جاليات استعمارية تظل مرتبطة بالارض الام وتتضامن معها في السراء والضراء . كان انتشارهم انتشار قوم اكثر منه اتساع دولة . وان هذا الانتشار مع بقاء الاشتراك في الحياة بالروابط الوطنية والدموية والاجتماعية كان الظاهرة القومية الاولى في العالم التي اليها يعود الفضل في نشر المدنية في البحر السوري والتي خبت نارها قبل ان تكتمل بما هب عليها من حملات البرابرة الاغريق والرومان . ومن دلائل هذه الظاهرة التي امتاز بها الكنعانيون انهم لم يدخلوا الاقوام الغريبة التي اخضعوها بالفتح كالليبيين والاسبان القدماء (الايبريين) في نظام حقوقهم المدنية والسياسية . ومع ان ذلك كان من مصادر ضعفهم تجاه تقدم رومة فانه كان دليلا على روحهم القومية ومحافظتهم على وحدة مجتمعهم .

القومية ، اذن ، هي يقظة الامة وتنبهها لوحدة حياتها ولشخصيتها ومميزاتها ولوحدة مصيرها . انها عصبية الامة . وقد تلتبس احياناً بالوطنية التي هي محبة الوطن ، لان الوطنية من القومية ولان الوطن اقوى عامل من عوامل نشوء الامة واهم عنصر من عناصرها . انها الوجدان العميق الحي الفاهم الخير العام ، المولد

تعريف القومية

محبة الوطن والتعاون الداخلي بالنظر لدفع الاخطار التي قد تحدق بالامة ولتوسيع مواردها ، الموجد الشعور بوحدة المصالح الحيوية والنفسية ، المريد استمرار الحياة واستجادة الحياة بالتعصب لهذه الحياة الجامعة التي يعني فلاحها فلاح المجموع وخذلانها خذلانه .

القومية هي الروحية الواحدة او الشعور الواحد المنبثق من الامة ، من وحدة الحياة في مجرى الزمان . ليست القومية مجرد عصبية هوجاء او نعرة متولدة من اعتقادات اولية او دينية . انها ليست نوعا من الطوطمية ، او نعرة دموية سلالية ، بل شعور خفي صادق وعواطف حية وحنو وثيق على الحياة التي عهدها الانسان . انها عوامل نفسية منبثقة من روابط الحياة الاجتماعية الموروثة والمعهودة ، قد تطغي عليها ، في ضعف تنبهها ، زعازع الدعاوات والاعتقادات السياسية ، ولكنها لا تلبث ان تستيقظ في سكون الليل وساعات التأمل والنجوى او في خطرات الانسان في برية وطنه او متى تذكر برية وطنه .

وان الوطن وبريته ، حيث فتح المرء عينيه للنور وورث مزاج الطبيعة وتعلقت حياته باسبابها ، هما اقوى عناصر هذه الظاهرة النفسية الاجتماعية التي هي القومية . ماذا تعني القومية للسويسري اذا ازلت جبال الالب وبحيراتها؟ وماذا تعني القومية للفرنسي اذا اختفت سهول فرنسا وتحولت انهرها عن مجاريها؟ .

والسوري هل يخفق قلبه لجبال الالب او لصحاري بلاد العرب على ما فيها من مشاهد جميلة ؟ اليست سورية هي التى ترتاح اليها نفسه ويحن اليها فؤاده اذا غاب عنها ؟ .

ان شاعراً سوريا مهاجراً ظن انه قد وجد قوميته في الدعوة السياسية ـ الدينية الى الامبراطورية العربية او الوحدة العربية او اعادة مجد العرب .

ولكنه، في ساعة سعيدة من ساعات يقظته النفسية ، تنبه شعوره الداخلي المجرد عن العوامل السياسية فادركه الحنين الى الوطن . على ان هذا الحنين لم يكن الى وطن لا عهد له به ، الى الصحراء او مصر او المغرب ، بل الى سورية .

هو الشاعر الياس فرحات فانظر كيف تتدفق عواطفه الصادقة وشعوره السليم الفطري :

نازح اقعده وجد مقيم   في الحشا بين خمود واتقاد
كلما افترله البدر الوسيم   عضه الحزن بانياب حداد
يذكر العهد القديم   فينادي
اين جنات النعيم   من بلادي

زانها المبدع بالفن الرفيع   منصفاً بين الروابي والبطاح
ملقياً من نسج ابكار الربيع   فوق اكتاف الربى ابهى وشاح
حبذا راعي القطيع   في المراح
ينشد اللحن البديع   للصباح

موطني يمتد من بحر المياه   ممعنا شرقا الى بحر الرمال
بين طوروس وبين التيه تاه   بجمال فائق حد الجمال
ذكره يغري فتاه   بالمعالي
انا لا ابغي سواه   فهو مالي

واي سوري لا يشعر بهزة نفسية حين يقرأ قصيدة « رب صن سورية » لامين تقي الدين وبأن في هذا المقطع روعة الحقيقة:

يابلادي نعشي غداً سيسير   فتغطيه من رباك الزهور
ومتى حث بي لقبري المسير   فلنعشي على الاكف صرير
كل معناه : رب صن سورية

وهنالك شاعر سوري آخر كبير هو سليمان البستاني مترجم الالياذة . هذا الشاعر اغترب وساح كثيراً وادركته اوصاب الهرم فذهب يستشفي

في سويسرة الجميلة . ولكن سويسرة لا ترتبط بحياته فهو لا يرى فيها صور نفسيته ومزاجه وروابط حياته وروحيته . تأمل حنينه الى سورية ومقابلته بين تلول لبنان وجوه وجبال الالب وهواء سويسرة :

افق ولو حينا قبيل الرحيل لم يبق من صحوك الا القليل

افق فذي شمسك رأد الاصيل

ان آذنت بالعبور عم الظلام

ونمت عاري الشعور بين النيام

وفاتك الحس وسمع الكلام والمنطق العذب ومرأى الجميل

. . . . .

ذكرت لبنان وهاج الحنين فؤادي العاني لذاك العرين

قد عز مناه طوال السنين

فاين تلك الفصول بلا انحراف

واين تلك التلول والجو صاف

واين ماء فيه محي وشاف واين ذياك النسيم العليل

فهل ترى يفسح آتي الاجل حتى به تغمض منك المقل

وارض سورية محط الامل

ولو زمانا يسير قبل الفوات

الى حماها تسير تلقي الرفات

واهلها تلفي قبيل الممات بمرتع الرغد وعيش خضيل

ان الاثم الكنعاني لا يزال فاعلا فينا وقد اصبح فاعلا في العالم كله .

هناك بعض الاغلاط المطبعية كزيادة نقطة على بعض احرف الكلمات او نقصانها ، لا تخفى على القارىء المتبصر .

